

مجلة
شهرية
تعنى
بشؤون
الفكر

عدد ممتاز

طريقنا الجديد



السنة الخامسة عشرة ١٩٦٧

العددان ٧ و ٨

تموز (يوليو) ـ آب (اغسطس)

هوامش .. على دفتر النكسة

- ١ -

انعي لكمْ ، يا أصدقائي ، اللغةَ القديمهْ
والكتب القديمه
انعي لكم ..
كلامنا المثقوب كالاحذية القديمه
ومفردات العهر ، والهجاء ، والشتيمه
انعي لكم .. انعي لكم ..
نهاية الفكر الذي قاد الى الهزيمه

- ٢ -

مالحة في فمنا القصائدْ
مالحة ضفائر النساء
والليل .. والاستار .. والمقاعد
مالحة امامنا الاشياء

- ٣ -

يا وطني الحزينْ
حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكّينْ ...

- ٤ -

لأن ما نحسُّهُ
اكبر من أوراقنا ..
لا بد أن نخجل من أشعارنا ..

- ٥ -

اذا خسرنا الحرب .. لا غرابهْ
لاننـا ندخلها
بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابه
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابه
لاننـا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابه

- ٦ -

السر في مأساتنا :
صراخنا أضخم من أصواتنا ..
وسيفنا اطول من قاماتنا ..

- ٧ -

خلاصة القضّيهْ .
توجز في عباره
لقد لبسنا قشرة الحضاره
والروح جاهليه ..

- ٨ -

بالناي والمزمارْ ..
لا يحدث انتصار

- ٩ -

كلفنا ارتجالنا
خمسين الف خيمة جديده

- ١٠ -

لا تلعنوا السماء ..
اذا تخلت عنكمْ .. لا تلعنوا الظروفْ
فالله يؤتي النصر من يشاء
وليس حدّادا لديكم ، يصنع السيوف

- ١١ -

يوجعني ان أسمع الانباء في الصباحْ
يوجعني أن أسمع النباح ..

- ١٢ -

ما دخل اليهود من حدودنا ..
وانما تسربوا
كالنمل .. من عيوبنا ..

- ١٣ -

خمسة آلاف سنه ..
ونحن في السردابْ
ذقوننا طويلة .. نقودنا مجهولة
عيوننا مرافيء الذباب ..
يـا أصدقائي ..
جربـوا ان تكسروا الابواب
ان تغسلوا أفكاركم ، وتغسلوا الاثواب ..
يـا أصدقائي ..
جربوا أن تقرأوا كتاب
أن تكتبوا كتاب ..
أن تزرعوا الحروف ، والرمان ، والاعناب
ان تبحروا الى بلاد الثلج والضباب ..
فالناس يجهلونكم
في خارج السرداب
الناس يحسبونكم
نوعا مـن الذئاب ..

- ١٤ -

جلودنا ميتة الاحساسْ
ارواحنا تشكو من الافلاس
ايامنا تدور بين الزار .. والشطرنج .. والنعاس
هل (نحن خير امة قد اخرجت للناس) ؟

— ١٥ —

كان بوسع نفطنا الدافق في الصحاري
أن يستحيل خنجرا من لهب ونار
لكنه . واخجلة الاشراف من قريش
وخجلة الاحرار من أوس ومن نزار
يراق تحت ارجل الجواري .

— ١٦ —

نركض في الشوارع
نحمل تحت ابطنا الحبالا
نمارس السحل .. بلا تبصر
نحطم الزجاج والاقفالا ..
نشتم كالضفادع
نمدح كالضفادع
نجعل من افزامنا ابطالا ..
نجعل من اشرافنا انذالا
نرتجل البطولة ارتجالا ..
نقعد في الجوامع
تنابلا .. كسالى
نسطر الابيات .. او نؤلف الامثالا ..
ونشحذ النصر على عدونــا
من عنده تعالى ...

— ١٧ —

لو احد يمنحني الامان ..
لو كنت استطيع ان اقابل السلطان
قلت له : يا سيدي السلطان
كلابك المفترسات مزقت ردائي ..
ومخبروك دائما ورائي ..
عيونهم ورائي
انوفهم ورائي
اقدامهم ورائي
كالقدر المحتوم ، كالقضاء ..
يستجوبون زوجتي
ويكتبون عندهم اسماء أصدقائي
يا حضرة السلطان
لانني اقتربت من أسوارك الصمّاء
لانني حاولت ان اكشف عن حزني وعن بلائي
ضُربت بالحذاء ..
ارغمني جندك ان آكل من حذائي ..
يا سيدي . يا سيدي السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لان نصف شعبنا ليس له لسان
ما قيمة الشعب الذي ليس له لسان ؟
لان نصف شعبنا محاصر كالنمل والجرذان
في داخل الجدران ..
لو احد يمنحني الامان
من عسكر السلطان
قلت لــه :
لقد خسرت الحرب مرتين
لانك انفصلت عن قضية الانسان .

— ١٨ —

لو اننا لم ندفن الوحدة في التراب
لو لم نمزق جسمها الطري بالحراب
لو بقيت في داخل العيون والاهداب
لمــا استباحت لحمنا الكلاب

— ١٩ —

نريد جيلا غاضبا
نريد جيلا يفلح الآفاق
وينكش التاريخ من جذوره
وينكش الفكر من الاعماق
نريد جيلا قادما مختلف الملامح
لا يغفر الاخطاء . لا يسامح
لا ينحني . لا يعرف النفاق
نريد جيلا ، رائدا ، عملاق

— ٢٠ —

يــا ايها الاطفال ..
من المحيط للخليج ، انتم سنابل الآمال
وانتم الجيل الذي سيكسر الاغلال
ويقتل الافيون في رؤوسنا .. ويقتل الخيال
يــا أيها الاطفال ، انتم بعد طيبون
وطاهرون ، كالندى والثلج ، طاهرون
لا تقراوا عن جيلنا المهزوم يا أطفال
فنحن خائبون
ونحن ، مثل قشرة البطيخ ، تافهون
ونحن منخورون .. منخورون .. كالنعال
لا تقراوا أخبارنا
لا تقتفوا آثارنا
لا تقبلوا أفكارنا
فنحن جيل القيء ، والزهري ، والسعال
ونحن جيل الدجل ، والرقص على الحبال
يــا ايها الاطفال ...
يا مطر الربيع ، يا سنابل الآمال ..
انتم بذور الخصب في حياتنا العقيمه
وانتم الجيل الذي سيهزم الهزيمه ...

نزار قباني

استفتاء «الآداب»

درس الهزيمة الأكبر !

ما هو ، في رايكم ، الدرس الاكبر الذي تعلمنا ايـاه الهزيمة ؟

جواب الاستاذ ميخائيل نعيمـه

في رايي ان الدرس الاكبر والاهم الـذي يحسن بالعرب ان يتعلموه من هزيمتهم النكراء هـو ان الدنيـا لا تساس بالدين . فالدين موطنه السماء التـي لا يعرفها احد . والدنيا موطنها الارض التي لا يجهلها أحد .

ثم ان الدين يأبى ان يطـرأ عليه اي تغيير او تبديل من جيل الى جيل . في حين ان الدنيا تتغير وتتبدل في كل رفة جفن . فنبضها في تسارع مستمر . وقد بلـغ في الزمان الاخير حد الجنون . فكأنـه نبض المحمـوم تشويه الحمى شيئا . بينما نبض الدين في تباطؤ مستمر . فكأنه نبض السلحفاة عضها الجليد .

وهذه السرعة في نبض دنيانا مردها ، فـي الدرجة الاولى ، الى العلم الذي جاءنا بالماكينة . وهـو ماض فـي تطويرها بسرعة تخطف العقول وتبهر الابصار . وهكـذا باتت الماكينة سيدة الميدان والمفتاح الـذي بـه تفتـح خزانات الدنيا . وبات مـن لا يملك ذلـك المفتاح وكـأن نصيبه من متاع الدنيا هو نصيب المتطفل والمستجدي .

لعل اكبر الخزي في دنيانا هو انها لا تـزال دنيـا نزاعات وحروب . فاذا كـان العرب ممـن يعتقدون ان حقوقهم لا تسترد ولا تصان الا بالحرب ، وان الحـرب لا يكسبها الا السلاح ، وان السلاح لا يخلقـه الا العلـم والمال ، فما عليهم الا ان يتعبدوا للعلم والمال . لعل العلـم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم .

جواب الدكتور قسطنطين زريـق

الدرس الاكبر الذي تعلمنا اياه الهزيمة هـو ، فـي رايي ، انه لا بديل لاية امة تريد السلام والفوز ، وبخاصة في هذا العصر المتأزم ، عـن طلب الحقيقة والتقيد بهـا والسير على هداها . فلقد برهنت الهزيمة على ان قادتنا وشعوبنا كانوا جاهلين للحقيقة وابعادها ، وغيـر متقيدين بها . واعني بالحقيقة هنا واقع القـوة الصهيونية : مـن حيث التجهز العسكري بالادوات والرجـال والتنظيـم والتخطيط ، والسند السياسي الخارجي ، وتعبئة الراي العام العالمي ، وما الى ذلـك مـن عناصر التهيؤ واعداد القـوى .

فلو ان القادة والحكام كانوا متملكين لهذه الحقيقة ، واضعين اياها نصب اعينهم ، حاسبين لها حسابها من كل طرف وزاوية ، لكنا اقدر علـى مجابهة العـدوان ودرء اخطاره . لو كنا مدركين ذلك وملتزمين به ، لعرفنا ايـن هو موضع الخطر الاكبر ، ولقدمنا واجبات هـذه المعركة وفروضها على اية فروض اخرى ، ولمـا خضنا معـارك داخلية تبلبل صفوفنا وتضيع وحدتنا وتستنزف مواردنا وتقسمنا الى جبهات ، في حين اننا احوج مـا تكون الـى التعبئة الشاملة ، والى حشد الجهـود ، وتوفير المـوارد وادخارها .

المصيبة هي اننا لا نعرف ، ولا نـريـد ان نعرف . لا نعرف لاننا لم ندرك بعد ابسط مبادىء العيش في هذا العصر ، وهو ان هذا العصر هو عصر عـلم واختصاص ، وان القدرة فيه هي ، قبل كل شيء ، قدرة العقل المتفتح القاهر ، وقدرة الكفاءة المدربة المنماة .

ولا نريد ان نعرف لتغلب الشهوات والاطماع علـى تصرفاتنا الخاصة والعامة ، ولوضعنا المصلحة الشخصية او الحزبية او القطرية قبـل المصلحة الشاملة ، ولعـدم استعدادنا لدفع الثمن الذي تتطلبه هـذه المعرفة جهـدا وتضحية ، وانكار ذات ، وتكاتف ايـد ، وتلاحم عقـول وقلوب .

ينتج عن هذا اننا اذا اردنا ان نمحو اثـار هـذه الهزيمة وان نعود فنقلبها الى ظفر وانتصار ، فلا بد لنـا من ان نبدأ حيث يجب ان نبدأ : اي بمعرفة حقيقة هـذه الهزيمة : اسبابها المباشرة وغيـر المباشرة ، وابعادهـا ، ونتائجها في الحاضر وفي المستقبل . الحقيقة قبل كـل شيء ، وعن كل شيء . الحقيقة كما هي ، لا كمـا نريدها ان تكون . الحقيقة الموضوعية الصريحة ، مهما تكن ، لا كما نتصورها او نريد الناس ان يتصوروها .

من هنا يجب ان نبدأ . اما بقية الطريق فهي تدرب وتدرب على تحمـل الحقيقة ، واستخراج متضمناتها ، والالتزام بها في ما نخطط من حلول ، وما نجهز للمستقبل . ان المعرفـة الصحيحـة للاسباب الحقيقية لهزيمتنا هـي

الشرط الاول لازالة هـذه الاسباب ، ولتخفيف وطأة نتائجها ، وللاعداد المطلوب في سبيل غد افضل . اما اذا خدعنا انفسنا عن هذه الاسباب وجهلناها او تجاهلناها ، او اذا عرفناها ووجلنا عن مجابهة تحدياتها ، فاننا نكون قد عجزنا عن وعي الدرس الاكبر ، بل الدرس الاول ، الذي تعلمنا اياه الهزيمة .

جواب الاستاذ منير البعلبكي

ان الدرس الاكبر الذي تعلمنا اياه النكسة — ولا اقول الهزيمة . فنحن لم نهزم بالفعل — هو ان الاستهانة بالعدو اول الطريق الى الفشل والضياع .

ولا يستغربن احد ان نجعل من هذه الحقيقة البدهية امثوله النكسة الرئيسية التي تتضاءل امامها سائر الامثولات . فالحق انها تحتل مقام الصدارة بين كل ما نص عليه الكتاب والمفكرون من اخطائنا وعيوبنا ، بل لسنا نعدو جادة الصواب اذا قلنا ان جميع تلك الاخطاء والعيوب هي — في التحليل الاخير — حصيلة الاستهانة بالعدو ونتيجة طبيعية له .

ولافصل الان بعض هذا الذي اجملت :

لقد تصرمت منذ نكبة ١٩٤٨ الى نكسة ١٩٦٧ تسعة عشر عاما كاملة قضاها العدو في الاستعداد لمعركة جديدة حاسمة يمكن بها لنفسه في الارض المحتلة ويوسع من خلالها رقعة تلك الارض في اتجاه الشرق والشمال والجنوب وقضيناها نحن في الاستهانة به والتقليل من شأنه ...

فهو حينا مجتمع متفسخ يعاني صنوفا من التناقضات تجعله غير مؤهل للبقاء ...

وهو حينا عصابات جبانة عاجزة عن ان تصمد ، اذا جد الجد ، في وجه تصميمنا على تطهير الارض العربية منها والانتقام لشهدائنا من جرائمها ...

وهو في أحسن الاحوال « دويلة » تعيش على الاحسان والشحاذة . والاحسان والشحاذة لم يكونا في يوم من الايام اساسا تقوم عليه الدول ...

من هذا الوهم انطلقنا في تفكيرنا الفلسطيني والعربي ، بعد النكبة ، فكان اعدادنا للجولة الثانية التي رشحناها للقضاء على اسرائيل واستعادة الوطن السليب متناسبا تناسبا طرديا مع ذلك الوهم الكبير . وباستثناء دولة او دولتين او ثلاث دول على الاكثر ، من دولنا العربية الكثيرة ، ادركت في مراحل مختلفة وبنسب مختلفة حقيقة اسرائيل فعملت على ضوء هذا الادراك ، نستطيع الزعم ان العرب واجهوا المأساة بروح اتسمت قبل كل شيء بالهزل واللامبالاة والقعود والاسترخاء ...

فلا هم غيروا وجه مجتمعهم الحضاري بحيث يستطيع ان يثبت في وجه العدو ولا نقول بحيث يستطيع ان يتغلب عليه ...

ولا هم طوروا اقتصادهم من اقتصاد سلم الى اقتصاد حرب مع ان حالة الحرب بيننا وبين اسرائيل لم تسقط يوما واحدا طوال الاف مؤلفة من الايام حبلت بها السنوات التسع عشرة المنصرمة ...

ولا هم سعوا سعيا جديا الى انشاء وحدة عربية شاملة تعبيء كامل طاقات الامة البشرية والمادية للمعركة المرتقبة . وحتى الوحدة الثنائية التي تمت بين مصر والشام وجدت في داخل القطر السوري نفسه خصوما ائتمروا بها فتركوها اثرا بعد عين

ولا ... ولا ...

مع ان نظرة بسيطة الى تاريخ الصهيونية واهدافها ووسائلها والى ما جريات الاحداث في المنطقة منذ قيام اسرائيل كان خليقا بها ان تفتح اعيننا على الحقيقة الرهيبة ، الحقيقة التي تتلخص بأن التاريخ لم يعرف في احقابه المتطاوله حركة اكثر اجراما من الحركة الصهيونية، وبأن صفحاته لم تسجل ان امة من امم الارض كلها منيت ببلاء اشد من بلائها .

فما الاستعمار ، وما الاحتلال العسكري ، وما الاحتكارات الاقتصادية العالمية ، وما القواعد العسكرية الاجنبية ، وما تجزئة الاوطان اذا قيست بالبلاء الاسرائيلي الذي نكبت به الامة العربية ... ؟!

انها كلها ضروب من الزكام العارض ... اما الصهيونية فهي سرطان ليس منه برء وليس معه بقاء .

فالاستعمار ممكن ازال الهزيمة به . والاحتلال العسكري يجلى جنده عن البلد بعد حين ، طال الزمن او قصر . والاحتكارات الاقتصادية العالمية قابلة للكسر . والقواعد العسكرية الاجنبية عرضة للتصفية . والاوطان المجزأة لا يتعذر على الامم المناضلة توحيدها ... اما الصهيونية فرأس الحكمة عندها ابادة الجنس العربي لكي تستولي على أرضه التي هي ، في زعمها ، ارضها .

تلك هي مأساتنا . لقد قدر الله على الامة العربية ان تبتلى - من دون امم الارض جميعا ، بهذا الطاعون المهلك ، وانه لبلاء لو حل بأعرق الشعوب المتمدنة ، حتى في دنيا الغرب نفسه ، لقوض بنيانها ، وشرد سكانها ، ومزق اوطانها ، أي لفعل بها ما فعله بالامة العربية ...

اقول ذلك على سبيل الترجيح لا على سبيل القطع . ولكن الشيء الذي استطيع ان اقطع به ، وانا مطمئن ، هو ان تلك الامم لو ابتليت بالصهيونية او باسرائيل لاتخذت منها موقفا غير موقفنا نحن طوال هذه التسع عشر سنة الماضية .

انها على الاقل ما كانت لتستهين بها ، وبالتالي ما كانت لتلدغ من جحرها مرتين ...

ومن اجل ذلك قلت : أن الدرس الاكبر الذي تعلمنا اياه النكسة هو ان الاستهانة بالعدو اول الطريق الى الفشل والضياع .

مأجورا .

لاننا لم نعد نستطيع ان نفرق بين من يدافع عن الحريه ومن يهاجمها ، بين من يطلقها ومن يخنقها ، بين من يمجدها ومن يسخر منها ، بين من يرفعها مناره ورايه ومن يدوسها بقدميه .

كل شيء يختل ويتشوش . كل شيء يسمح لنا بالتساؤل : **هل الموت عندنا هو ، حقا ، موت ؟ هل الحياة عندنا هي حقا حياة ؟**

ولا عودة الى الصحة الا بالبدء من الحرية ، حيث يبدأ كل شيء .

***

٢ — الامارة الثانيه هي **الخلق — الفعل** ، هي **التعبير** .

اكثر من اي وقت مضى ، يجابه المفكر العربي سؤالا في مستوى مصيره . ما هو دوره في احداث التغيير العربي وقضاياه والامه ؟ هل يبقى بعيدا : ينسحب فيسكن في « فراغ » العزله ، ام يتعالى فيسكن في « فراغ » المستقبل ؟ ام انه ينخرط في التاريخ ويقوده ويغيره ؟

هذه الاسئلة قديمة . لكنها ، اليوم تشحن حياتنا وتصرخ في وجوهنا ، وتنزل في ضمائرنا مثقلة بالعالم والتاريخ ، بمعنى جديد اخر . ذلك ان التغير الجاري يؤكد لنا يوما بعد يوم ان قضيه الصراع الذي يخوضه العربي تتجاوز الاطار السياسي القومي الى ما هو ابعد واعمق — الى الانسان ذاته في حقيقته الكيانية الاخيرة . فهي اوسع من ان ننظر اليها من خارج ، على سطح التاريخ . ولئن كان السياسيون ينظرون ويعملون من هذه الناحية السياسية القومية، فان على المفكرين دورا اخر هو الكشف عن الدلائل والمعاني الحضارية .

لكننا لا نستطيع ان نعيد خلق العالم ، ان نقود التاريخ ما لم ندخل فيه . ما لم نعشه لحظة لحظة . بل اننا لا نستطيع ان نكون احرارا ، الا بدءا من الانخراط في حركة التاريخ .

كاتب يتشرنق لا يمكن ان يكون حرا . وان ظن انه حر ، فحريته هذه ليست من فعله ، بل من عطالته . ليست مجبولة بنبضه ، بشهيقه وزفيره . وانما هي خرقة مزركشة . انها حرية اللافعل .

الذين يرتضون هذه الحرية يعيشون «مصنوعين» « مجروفين » ، في حرية الورقة التي تدحرجها الريح ، والعمود الذي ينغرس في اليباس ، والحصاة المطروحة في استرخاء ابدي . فحين « ينسحب » الكاتب من حركة التاريخ ينسحب من ذاته : يعيش في جلدته بين ثيابه والغبار .

اليوم يتاح للخلاقين العرب ان يعيشوا حياة رؤيابة خارقة . كل شيء حولهم يزلزل حواسهم ، ويشنج العالم في اعماقهم ، ويؤكد على الفعل . ثمة كهرباء روحية يندر مثيلها ، تسري في حياتهم . ثمة اسباب يندر مثيلها، تقودهم الى ان يعيشوا مغامرة الابداع الحقيقية : **الوحدة بين الفكر والعالم . ان الثورة ، على المستوى السياسي والقومي ، يجب ان تبطنها وتقودها الثوره على مستوى الابداع والفكر .**

الخلاق يقود الفعل . المشاركة في الفعل طاقة عادية . القياده طاقة غير عادية . **كل خلاق قائد — طاقه غير عاديه** . ان جوهر الفن الانساني ، الانساني حقا ، هو تخليص الانسان من الية الزمن والموت . اعني ، بعباره ثانية ، هو الانخراط في التاريخ . التاريخ فعل الانسان، والزمن فوه غفل . الذين يرفضون التاريخ ، يسقطون في الزمن — هاوية الغفل واللاشيء .

اليوم ، اكثر من اي وقت مضى ، يدعونا التاريخ . الفن ذاته ليس ، اليوم ، علم الجمال الشكلي ، بل هو علم الدلالة — دلاله التاريخ والمجتمع والحقيقه والكون . وفي مجتمع بلا دلالة ، لا يمكن ان يحيا الفرد الا حياة بلا دلالة .

***

٣ — الامارة الثالثة هي **خرق العادة** . هذه، بخاصة، ميزة المبدع : ميزه الشاعر ، بالمعنى الواسع الشامل . فالشعر هو ، جوهريا ، خرق العادة .

فلنخرق العادة ، نحن الشعراء ، في هذا الوقت
وقت العربي المحروم المظلوم المضطهد المستعمر
وقت الوقوف على عتبة كوكب اخر
وقت الحرية التي تتحول الى سجن
والسجن الذي يصير حياة ،
ولنعلن تغيير الانسان العربي ، ولنعلن الشعر .

***

١ — كل ابداع مخاطرة . كل ابداع حرب . والمبدع محارب : يحارب الاخر ، والمؤسسات والجمود ، ونفسه، وبقدر ما يجرؤ ، ويقتحم ، يدخل في الخطر ، يدخل في منطقة الابداع .

غير ان الابداع الحقيقي هو المغامرة في العالمين الداخلي والخارجي . فهذان العالمان وحدة لا تتجزأ . بل اننا ، اليوم ، نستشعر الحاجة اكثر من اي وقت مضى الى المغامرة في العالم الخارجي واقتحامه . فهو ، حولنا ، بنوع خاص عالم جمود وطغيان واستعمار واستغلال وحيلولة دون الحرية والكرامة ، ودون الانسان في تحقيق انسانيته . نحن في حاجة ملحة الى ان نحارب هذا العالم وان نفضح وحشيته وشراسته وقبحه وحيوانيته.

كيف يستطيع الفنان ان يرضى عن مثل هذا العالم؟ كيف يرضى بأن يتوظف عنده مهرجا ينشده ويطربه ؟ كيف يستطيع ان يسد اذنيه دون صرخات العذاب والجوع ؟ ان يزين القصور وينسى الانقاض والسجون ؟ ان الخيانة الكبرى لقضية الانسان لا تتمثل في الطاغية او المستعمر ، اكثر مما تتمثل في الفنان الذي يسكت على الطاغية المستعمر او يهادنه ، او يعيش في الريش والحرير حيث لا وجود لغير المعذبين، ولغير العذاب والفقر والعبودية.

مثل هذا العالم سجن . ومهمة الفنان الاولى هي ان يقوض جدرانه .

بيان ٥ حزيران ١٩٦٧

بقلم أدونيس

من انا ؟ هل اعرف نفسي ؟ دخل غيري عصر الكهرباء والآلة والالكترون والذرة . يصلون الى القمر . يفتحون صفحة جديدة في سفر التكوين الانساني . سرت قليلا ، تعلمت قليلا . امتلك ثروة كالبحر ، وانا الان واضع يدي على ارض يجري فيها الذهب انهارا . حاولت ان اخرج من بدائيتي الزراعية الى عالم الصناعة والاله . حاولت ان ادخل عالم الفكر ...

لكن هل استخدم السياره حقا ام انني أستخدم **فرسا من حديد** ؟ هل اقود الطائره حقا ، ام انني اقود « **احدى اعاجيب الفضاء** » – شيئا غريبا « **نصفه طير ونصف بشر** » ؟ هل تعلمت الهندسة حقا ، ام انني اخذت **شهاده زينت بها كالوسام** ؟ هل استخدم الطاقة الكهربائيه ، ام انني استخدم **شموعا من الزجاج ومصابيح تشتعل بلا زيت** ؟ هل ان سيري تقدم حقا ، ام انه **صخب ورايات** ؟ هل الدولة التي أبنيها نظام حقا ، ام هي **قبيلة ثانية** ؟ هل ما اسميه نهضة او ثورة او انقلابا ، نهضة او ثورة او انقلاب بالفعل ؟

الفكر العظيم ، وحده ، يصنع القضايا العظيمة . هل انا في حياة لا تعرف الفكر العظيم : ليس لها ، اذن ، قضية عظيمة ؟ لا تستطيع اذن ان تقوم بأي عمل عظيم ؟

وان قلت انني مفكر ، اتساءل اين انا موجود وكيف؟ اين مجال تأثيري وفعلي ، واية سلطة لي ، وما هي القيم التي أنشأتها ، او دافعت عنها ، او حميتها ؟ الحرية ، الحقيقة ، المحبة ؟ حرية البحث عن الحرية والحقيقة والمحبة ؟ هل دافعت عن الفكر عند كل مفكر ، ام عن افكاري انا وحدي؟ هل اضطهدت او سجنت او استشهدت من اجل اقامة الفكر وحق الفكر في الحوار بين الاطراف ، ام اخوّن كل فكر غير فكري وانفيه ؟ وان كنت اخوّن كل فكر في وطني غير فكري ، أفلا يعني هذا انني جزء من وطن خائن بمعنى ما ، ومن شعب خائن بمعنى ما ، وانني قابل جاهز ، كل لحظة ، ان اكون ، بدوري ، خائنا ؟ وحين خونت غيري هل كنت امينا ، وهل كنته بقوة الحقيقة ام بقوة الشعب أم بقوة السيف ؟ وبأي اسلوب حكمت على غيري ، بالحوار والاقناع ام بالخنجر والرصاصة ؟ وما هو مقياسي في الحكم عليه ؟ وهل السلطة التي حكمت بها عليه سلطة السجن ام سلطة العقل ؟ وحين نفيته ماذا اثبت ؟ وحين قلت انه طاقة هدم وسلب فهل كنت انا طاقة ايجاب وبناء ؟

هل انا شخص اخر ؟ هل يحيا في اسلافي الذين ابتكروا الابجديه ، وقرأوا البحر ، ومدوا قوس حضاره تتلألأ بين سمرقند وغرناطه ، ام الحصني الفهرمان المموك هو من يحيا ؟ هل انا في يقظه حقا ، ام في وهم اليقظه وأحلامها ... في انحطاط حصيب أحضر ؟

هل انا انسان كان لا انسان يكون ؟ اكتمل منذ ولادته . الزمن ليس مجالا لتحوله او لصيرورته ، بل هو وسيله لاستعاده كماله . ولانه المستعيد ابدا ، يحول نظره عن الواقع . يؤوله مثاليا : الفقر ، مثلا ، امتحان للنفس ، لا خنق للانسان . الانكسار نكسة لا هزيمة . ليس العدو المباشر هو من يغلبني . يغلبني العدو الآخر ، غير المباشر ، المستتر .

هل انا فكر لا يعنى بالموضوع ، وانما يعنى بعلاقته الشخصية مع هذا الموضوع ؟ لا يرى من الاشياء والموضوعات الا التماعاتها وجوانبها . فكر **يتنزه** ، لا فكر **يبحث** . يحول الاشياء الى انفعالات وانطباعات ، لا الى قضايا . كل شيء يصير نسبيا ، جزئيا : الحقيقة هي التي يعلنها هذا الفرد او ذاك ، وما عداها باطل . الحرية هي هذه لا تلك . ما عداها الفوضى او ما يشبهها . والحق هو انا لا هو . **هو يصير حقا حين يفنى في ما اريده .**

هل أعيش في نسيج زماني خالص ، في معزل عن الارض ؟ هل المكان عندي جسر ، هل هو اصطلاح لفظي وحسب ؟ هل الارض عندي لكي ازرعها واستمتع بخيراتها وحسب ، وليست جزءا حيا من جسدي ، وبعدا من أبعاده ؟ هل الارض بالنسبة الي متساوية ، ولهذا أحب الهجرة والتأقلم حيث اكون واذوب ؟ هل الارض فرس ثانية أمتطيها في طريقي نحو الآخرة ؟ هل حين ادافع عن المكان الذي أسكنه ادافع حقا عن الارض ، ام عن ملكي على هذه الارض ؟ هل أعتبر الارض كالملك : يتبدل، ينقص، يزيد ... يتضمن امكان ان يزول – يتضمن ، لذلك ، امكان التخلي عنه ؟

***

هل انا نموذج « المهاجر » ؟ لا تهمه الارض ، بل يهمه ان يظل في هجرة . ألارض التي يحبها هي الارض التي تطيب له ، لا التي ولد فيها ، بالضرورة ؟ ثمة سهولة عندي في ان اترك بيتي . كأنني مستعد ان اموت في سبيل **فكرة ما** ، لا في سبيل **ارض ما** . كأنني كائن في

اللوغوس ، في الكلمة ، لا في الطبيعة .

هل انا نموذج تراجيدي مـن نـوع فريد لا ليست الارض لي مستقرا ، بـل ممر . احب المندفعين **معي من الماضي . اثره الابين من المستقبل ، ومن المجهول . احارب لاسترجع حريه مروري علـى الارض ، لا الارض ذاتها .** ليس وطني هنا والان – بل الاخره التـي تلتقي بالماضي في مكان اخر من نوع غير ارضي .

هل انا شخص ينظر الى الشعب نظرته الى الارض ؟ **الشعب للارض ممر هجره .** احارب لا لانقـذه ، **بل لانقذ سيادتي فيه وعليه .** الشعب قناع لي ، لباس ، سلاح . يتغير لون القناع ، ينمزق الثوب ، يتكسر السلاح : كذلك الشعب . يهمني ان ابقى متسلحا ، مقنعا ، لابسا بشكل او آخر .

انا قيمة ثابتة والشعب قيمة متحولة . انـا الاصل وهو الظل . الذلك اتارجح بين قطبين . ملـك وشحاذ ، طاغية وسجين ، نبي ودجال ؟ انا فوق الانسان ودونه في آن . العالم ، لذلك ، فوق طاقتي ودونها في ان . كانني احيا خارج العالم .

***

انا ، طارح هذه الاسئله ، هو **الانسـان العـربي ،** العائش اليوم ، في هذا النصف الثاني من القرن العشرين . بهذه الاسئله (يمكن طرح اسئلة كثيره غيرها) احاول ان اعيد النظر : فيّ ، في هذا الانسان ، قبل اعادة النظر في الحياة العربية . فليست المسألة ان تتغير هذه الحياة اي المجتمع ومؤسسـاته ، بقدر مـا هـي ان يتغير الانسان العربي : من هنا وحسب ، تبدأ اهمية العلم والتقنيـة وتغيير الحياة العربية .

اننا نعيش النتائج الفاجعة لانجرافنا ، طيلة السنوات الخمسين الاخيرة ، وراء التغيرات من خارج ، واهمـال الانسان من داخل . فالحياة العربية تنقل ، على نحـو سريع ، الاشكال المدنية ، الاوروبية والاميركية ، وتمارس وسائل العلم التطبيقية صناعة وزراعة وعيشا يوميا . لكن الانسان باق لم يتغير . يبدو ، في تزاحم تلـك الوسائل والاشكال ، مأخوذا مبهورا . يظن انه يستعيض بالكمّ عن الكيف ، وبالشكل عن الجوهر . شخصيته من داخل ما تزال كما كانت منذ خمسة عشر قرنا . كأنـه أثر تاريخي من القرن الخامس ، يلبس شكل الانسان ، يأكل ، ينام ، يتحرك ، بمعجزة ما ، في القرن العشرين .

يستخدم الثياب التي يخلعها العالم في مسيرتـه الابداعية – ثياب العرق والتعب والكشوف والتغيير . ويظن العربي اذ يستخدم هذه الثياب ، انه يتساوى مع العالم المبدع . ولئن اتاحت له ان يجتاز ما بينهما مـن مسافة الشكل فانها لا تتيح له اجتياز مسافة الجوهر – مسافة الحضارة .

هكذا لا يبدو العربي غريبا عن نفسه وحسب ،وانما يبدو الى ذلك غريبا عن العالم . انه وجود مؤجَّل . وفيما هو يستمر ، ناقلا مقلدا ، يبدو غصنا مصطنعا في شجره الحضاره المعاصره . . . بثمار مصطنعه يؤتى بها من هنا وهناك وتلصق عليه . ويراد لها ، في احيان كثيره ، التصديق بانها طبيعيه تتدلى من غصن طبيعي . ان بين العربي الانسان . والعربي كحياه يوميه ، مسافة طويله ، يملؤها الفراغ والتمزق والتفتت . ان العربي المعاصر يحيا في بيانين . **ذاته المعرفه في السلفيه ،** وحياتـه المتهالكـه على اشكال المدنيه الحديثه .

يدرس الفيزياء والكيمياء والـذره والبيولوجيا والرياضيات ، لكن معنى هذه الدراسه لا يتجاوز كتـابه وراسه ودائرته . يبقى في اعماقه ، فـي جوهر حضوره الانساني في معزل عن هذه العلوم ، من حيث انها كشوف ومبادىء وقوانين تعيد خلق الحياه والعالم .

انه يتبنى التقدم نظريا ، ويحيا عمليا في الاطـار السلفي التسييدي . انـه يقدس الحريه بشفتيه، وحسب. يساري بفكره وفي الظروف العاديه ، لكنه في الظروف المصيريه الحاسمه ، واحيانا في الظروف العادية نفسهـا يميني بسلوكه وحياته . يريد ان يصنع التاريخ فيمـا يهرب منه . يود ان يحارب فيما يسعى للتخلص مـن الحرب . انه في ان قائد وتابع ، صياد وفريسه ،شجاع وجبان ، شيوعي وبورجوازي ، شرقي وغربي . انه جهاز استيعاب . ينقل العالم دون ان يحوله او يصهره فـي ذاته . الثقافه بالنسبه اليه كسب يحفظه فـي وعـاء الذاكره ، لا معرفه تتداخل في كيانه وحياته . ليـس حضوره في الزمان تآلفا وتركيبا ، وانما هو حضـور فردي ، منعزل ، كالمسمار والحصاه . كأنه ليس موجودا الا على مستوى الحس والشيء .

***

الانسان العربي الثوري يخسر الواقع ، فيما يزداد تشبثا بالنظرية . يهمل الانسان ويتمسـك بالعقيدة . يحتقر المواطن ويمجد المرتزق : ان ثمة مشكلة حقيقيـة يواجهها الثوري العربي قد لا يكون لها مثيل في تـاريخ الانسان : لم تعد المسألة ان يقنع المواطن بعقيدة او نظـام او مبدأ . المسألة اليوم هي ان يقنع المواطن بأن له وطنا.

هذا العربي الثوري ينتقد ، يهدم ، يدين ، يحكـم باسم الثورة لكنه فيما ينشط ، يمارس سلطانه علـى الكلمات، لا على الواقع . **يغير تشكيلة الكلمات في النطق ، في الجملة ، فيخيل اليه انه يغير تشكيلة الحياة .**

***

والانسان العربي **المفكر** ، شاعرا ورساما وموسيقيا وفيلسوفا وكاتبا ومربيا ، خلق في السنوات العشريـن الاخيرة حياة بابلية بامتياز . جعل مـن اجيالنا الات استذلها لنير التقليد الغربي ، او لنير التقليد الرجعي ، او لنير الجهالة . ساعد ، سلبا او ايجابا ، بالصمت او بالكلام ، على ان يكون الشعب وثرواته وتراثه في خدمـة الحاكم ونظامه . شارك في جعل الحزب اعلى من الوطن

والشعب ، والعقيدة اسمى من الحقيقة والانسان . حول المدارس الى خلايا ببغاوات تزدرد وتصوت وتمومىء . حول الجامعات الى مصاهر تقلب الاميين وانصاف الاميين الى عباقرة وقادة شعوب . جعل من الكتاب جثة ومن الكلمة مومياء .

التسويغ ، الصمت ، العزلة ، الاستسلام لعصا الحاكم ، – هذه مظاهر يحفل بها الفكر العربي المعاصر . وهي تتضمن تواطؤا على الحقيقة والفكر والحرية ، او مشاركة في التواطؤ او تغاضيا عنه . قلما وقف ، طيلة السنوات العشرين الاخيرة ، تمردا على طاغية ، او انتصارا لمضطهد او مسجون او محروم . حتى الانتصار للحرية كحرية ، للعدالة كعداله ، للحقيقة كحقيقة ، لم يكن يجمع بين ممثليه . كانوا دون مستوى العدالة والحقيقة والحرية . كانوا ينخرون الانسان نفسه والشعب نفسه والوطن نفسه ، فيما ينخرون شجرة الحرية .

***

هذا الشبح الذي اسميه الفكر العربي المعاصر ، اتهمه ، وانا جزء منه ، بأنه **عاجز جاهل** . لا يعرف احدا . لا العربي ولا غير العربي . لا يقدر ان يطال احدا . لا العربي ولا غير العربي . اتهمه انه **تابع ومسحوق** .

ثمة مفكرون لا يتجاسرون على الجهر بايمانهم ، لا يتجاسرون على التلفظ بالحقيقة والشهادة للحق . ثمة مفكرون اصغر من كبر الاعتراف بالخطأ حين يخطئون ومن تغيير ارائهم وافكارهم حين تثبت لهم الحياة والتجربة بطلانها . ثمة مفكرون يؤثرون ان يملكوا دكانا على ان يملكوا مكتبة . ثمة مفكرون يدعمون الطاغية الذي يضطهد مفكرين اخرين . ثمة مفكرون يتكدسون كالهشيم . ثمة مفكرون موتى وهم يتحركون : ضيقون ، منغلقون . **المصلحة عندهم قبل الحقيقة ، والسلامة قبل الحرية** .

الفكر هو الكلمة – الفعل ، وهو كذلك ان تكون الكلمة – الفعل في البدء . الى ان يولد الفكر حقا ، ويولد من يفكر حقا ، ستبقى الحياة العربية تبدو كتلا ضخمة من اجساد تتحرك ، تتقدم ، تتأخر ، تصطرع ، تتجمع .. لكنها تبقى في **نظام التكتيل لا نظام التكوين ، في نظام الموتى ، لا نظام الاحياء** .

وسيبقى المفكرون قطعا من الخشب اليابس في نهر التاريخ . تتكوم في المنعطفات وعلى الضفاف . هي في النهر وخارج النهر . هي على الشاطىء وفي اللجة . لكنها ليست الماء في اي حال . وليست المصب ولا النبع .

***

والانسان العربي **السياسي** ؟ لقد بذر في السنوات الخمسين الاخيرة ثروات تكفي لان تمحو من البلاد العربية الامية والمرض ، وتفتح الطرق الحديثة ، وتؤسس الجامعات والمعاهد التقنية ، وتنشىء مشاريع الانتاج والعمل والتصنيع ، وتجعل من كل قرية نواة تقدم ، ومن كل بيت حصنا علميا .

ان من يريد ان يحكم عليه بصدق لا يستطيع الا ان يصرخ في وجهه : ايها السيد ، انك تغش نفسك ، وتغش بلادك ، وتغش فيها الانسان ، وتغش الارض .

ولا يستطيع ، من ثم ، الا ان يقول له : لقد ضيعت ايها السيد ، خلال ذلك ، **زمن الفرد العربي . جمدته في** مستنقعات القرون الوسطى وما قبلها ، واقمت سدا بينه وبين الحضاره ، بينه وبين شمس المستقبل . ولكن كان ما يزال يتململ وينبض ، في رماده ، بشكل معجز ، فلأنه ، في اساسه ، خميرة قد يندر مثيلها !

ثم يقول له : ايها السيد ، لن نسمح لك بعد اليوم ان تفسد هذه الخميرة .

ذلك ما ينبغي على المفكر العربي ان يوقن به ، ويعلنه ، ويبرهن به وجوده . لكن هذا ليس هينا . **لقد تحالف رجل السياسه مع رجل المال لاباده الفكر** ، ولتحويل المفكر الى موظف . واصبح المفكر يعيش ، بشكل او اخر ، تحت رحمه رجل السياسه او رجل المال . وشيئا فشيئا اخذ يتنازل عن دوره في البحث عن الحقيقه ، واعاده النظر ، وقول الحق ، والتمسك المطلق بالحرية ، ويتبنى منطقهما في البحث عن المفيد المناسب ، وتسويغ كل شيء بحجة الظرف والحالة ، والتغاضي عن الظلم وتجاهل الحق بحجة الهدوء والاستقرار ، والتنازل اخيرا عن الحريه ، لان الحريه في اوضاع فاسدة تبدو ، بالطبع ، فوضى وتهديما وتخريبا ، ويبدو جميع من يمارسونها او يدعون اليها عناصر هدامة ، مخربة .

هكذا تسقط الحياة العربية ومقوماتها وطاقاتها اسيرة في **ايدي ذوي السلطه ، من رجال السياسة والمال** . اما الفكر فيصبح **دمية** . ويصبح رجال الفكر الات تقوم بوظائفها في المجتمع الذي تبنيه السياسة والمال . واما السياسة ، فلا تعود وسيلة ، **وانما تصبح** الغاية المطلقة : تصبح ، جوهريا ، **السيطرة والحكم** . هكذا تنحرف وتنحط . لا تعود حلبة **تتنافس فيها رؤى البناء** والنهوض والعمل لمستقبل انساني **افضل** ، وانما تصبح حلبة مغامرات . ولا **يعود هناك ما يمنع من ان يصبح** الامي مشترعا والجبان قائدا ، والجاهل **الغبي راسما** طريق المستقبل .

ماذا يعني ذلك بالنسبة الى **المفكر العربي الذي يريد** ان يبقى مفكرا ؟ يعني ان عليه **ان يقوم بثورة تعيد للفكر** دوره وللمفكر مكانته ومهمته ، فتقلب **الاسس التي تقوم** عليها الحياة العربية اليوم . ومن **الاعمال المباشرة لهذه** الثورة ان يقف المفكر العربي ، بروح الرجولة والحقيقة ، **فلا يترك للسياسة – هذا الجزء – ان تصبح الكل** ، وان تلتهم كل ما يحول بينها وبين ان تصبح الكل . ان **مهمته** الاولية الملحة هي ان يجعل من السياسة وسيلة لا غاية : هي ان يخضعها للفكر وسلطانه ، اعني الفكر النقي المتجوهر في اتون الالتزام بقضية الانسان . **فالسياسة** العظيمة هي الفكر العظيم . **ويستحيل ان يكون السياسي عظيما اذا لم يكن مفكرا عظيما** .

هناك امارات ثلاث تشهد لتغير الانسان العربي : **الحرية ، الخلق ـ الفعل ، خرق العادة** . هذه الامارات هي ، في الوقت نفسه ، ممارسات ومعانيات داخل الانسان في اعماقه، وخارجه في الحياة والواقع والمجتمع. ثم انها وحدة متكاملة . وهو لا يتغير الا بقدر ما يعانيها ويمارسها ويحياها ويسلك بمقتضاها .

١ ــ ليبدأ ، اذن ، المفكر العربي ، بأن يسترد جوهره الذي سلبته اياه السياسة : **الحرية** . كل ما يقوم به ، اذا لم ينطلق من الحرية ، لا يكون الا شكلا من اشكال الوظيفة ــ العبودية . ان غياب الحرية يجعل الحياة نسيجا هائلا من الكذب والنفاق . وحيث يسود الكذب والنفاق ، لا يعود الانسان الا قناعا . **ان عالم الاقنعة هو عالمنا اليوم** . ان ثمة جسورا منسوفة بين المفكر العربي ونفسه ، بينه وبين الحقيقة ، بينه وبين الحرية : فليبدأ ببناء هذه الجسور . وبقدر ما يصمد في هذا البناء ستتفتح الحياة العربية وتنمو في اتجاه اصيل، جذري ، خلاق . وعليه ، فيما هو يبني ، ان يدرك ان ما حوله يناهضه ، انه بادىء من لا شيء ، ان حياته نفسها قد تكون بعض التضحيات التي يقدمها .

ان عليه ان يبدأ فيكون رائدا لا تابعا . ان عليه ان **يشهد** للحقيقة والحرية حتى **الاستشهاد** .

الحرية التي اعنيها ليست حرية وحيدة الطرف ، حريتي انا وحدي ، او حريته هو وحده ، وحسب . انها ، كذلك ، **حرية الاخر الذي يخالفني او يناقضني** .

الحياة ؟ **ليس لي حياة ان لم يكن لي ما يناقضها** . ارفضها حين تصير سكة عمومية. حين تكون خيطا واحدا بلون واحد ، صوتا واحدا بنبرة واحدة . **ارفض الحياة ان لم يكن فيها ما يعارضني، وينهض في وجهي، ويثيرني، ويكشفني ، ويستحثني** . ارفض الحياة المستنقع، الحياة الزريبة ، الحياة القطيع . **ارفض الحياة ان لم تكن سنفونية اصوات تصل بين الاطراف ، تجمع بين الشيء ونقيضه ، وبين النقيض وما يتجاوزه** .

النقيض يحييني : يتركني في يقظة دائمة ، يدل على اخطائي، يدفعني لكي اكون اكثر كمالا، لكي اتجاوز نفسي. انه ضوئي الاخر ..

حين يجابهني الفكر الضعيف يزداد يقيني بفكري القوي ، وحين يتصدى لي الفكر القوي اكتشف مقدار عجزي واعمل على ان اكون ذا فكر اقوى .

وحين ينهض شخص يعارض اتجاهي وموقفي ، وافكاري ، اعرف كم انا راسخ ، واعرف بالتالي مقدار ما ينبغي علي فعله لكي اكون اكثر رسوخا .

ومثل هذا الشخص ابحث عنه ، وادافع عن وجوده، لانه جزء من وجودي انا ، ولانني بغيره ناقص الوجود . اننا حين نقبل ، لحظة واحدة ، ان يكون هناك شخص واحد لا يحيا الحرية ، وحين لا نثور في وجه من يضيق افق الحرية ، ايا كانت الحجة والمناسبة واللحظة ، وحين نغفل لحظة واحدة عن حراسة الحرية ... حينذاك تصبح الحياة صحراء للشوك والقش واليباس والموت ، ونصبح نحن انفسنا اول من ييبس ويموت .

لكن ، الا سكت جميعنا ، كل يوم ، على انتهاك الحريه ؟ الا يشارك كل منا ، كل يوم ، في خنق الحرية ؟ السنا جميعا نخدم ، الى حد ، ملكا واحدا هو العبودية .. العبوديه لشيء ما ، لمصلحة ما ، لفكرة ما ، لتاريخ ما ، لراي ما ، لموقف ما ... الا يثبت كل منا ، كل يوم ، انه ليس في مستوى الحرية ؟

ثمة ايد سحرية تتسلل بيننا وبين ثيابنا ، تحملنا ، وتمضي بنا انى شاءت . ثمة رياح خفية تعيش معنا، في مكاتبنا ، تحت الوسائد ، وبين الكتب ، وفي الابواب والنوافذ ، وفي الطرق والمقاهي ، ولا نعرف متى تتحرك وتهيج وتبعثر كل شيء . ثمة طوفان دائم التدرج في مختبر المفاجآت ، دائم الاستعداد لكي يشب ويهب ويتخرج . ثمة من يدفعنا خارج بيوتنا ، ومن يحاصرنا ويفرض علينا ان نعيش في مملكة اشباح وظلال .

من يقول اننا نتحرك فوق ارض صلبة ؟ نحن في سفينة . ما تحت اقدامنا لجة ، وما حولنا صخور وراءها صخور وراءها صخور . الارض لنا ، لكنها لغيرنا. وهي تزلج تحت اقدامنا وتنزلق وتهوي .

***

هكذا نحيا كتلة بشرية بلا شكل ، سديما انسانيا اصم ، والعلاقة التي يقيمها احدنا مع الاخر ، لا تنظمها الحرية بل العبودية . فانا لا اقيم علاقة مع الاخر لكي احرره ، بل لكي استعبده . ونحن لا نعبر عن انفسنا وحياتنا الا بالمقننات والمحرمات والمقدسات . **نخاف من تفردنا ، من فرادتنا ، من وجدانيتنا** . كل منا ، هو كذلك، سديم بلا شكل ، وانسان بلا شكل لا يقدر ان يعرف شيئا خارج ذاته ، ولهذا يحيا بعادة التكرار . يتكرر ويكرر حياته والتكرار ليس حياة .

« لو ان هناك في المدينة حرا واحدا لما تهدمت المدينة » ، هذه صرخة قديمة : هذه صرخة جديدة . فالحرية كالحياة حضور دائم ــ ولا تغيب الحرية الا حين تكون الحياة غائبة .

السنا اذن ، ونحن نساوم على الحرية ، قابلين طوعا واختيارا ، بأن ينغلق علينا العالم ، ويأتي من يساوم على وجودنا ، ومن يحتقر هذا الوجود ، ويرفضه، ويقتله؟

السنا ، اذ نقبل تجزيء الحرية وتفتيتها ، نمهد الطريق لمن يجزىء وجودنا ويفتته ؟

***

كأننا لا نحيا حياة ، بل **نحيا موتا يوميا اخرس** .

كأننا لم نعد نستطيع ان نميز بين من يسرقنا ومن يحرسنا ، او بين الخيانة والامانة ، فللسارق سحر يظهر فيه بطلا منقذا ، وللخائن سحر يظهر فيه قائدا عظيما ، وللامين سحر يظهره لصا ، وللحر سحر يظهره عبدا

ب ـ « في البدء كان الكلمة » : **في البدء كان الشعر . الشعر يتقدم الفعل (العمل) . الشعر البرق وما ياتي بعده الفعل** . لكنهما معا وجها العالم .

ولان الشعر بداية ، يجب ان نبدأ اولا **بقتل الشعر ـ النبي الدجال** : الشعر الذي يصف ، الشعر الذي يصنع ويصوغ ويلعب . شعر السرد والتعليم والتخليق والتسييس والتثقيف والتفسير والتحليل والتمذهب والترسل ، ـ ذاكرين انه لن يكون الشاعر العربي شاعر النصف الثاني من القرن العشرين ما لم يكن ، في الوقت ذاته ، على طريقته وبحسب استعداده ، متدينا ، ملحدا ، سياسيا ، عالما ، فيلسوفا ، قائدا ، نبيا ـ ما لم يكن **كونيا** .

نبدأ بقتل النبي الدجال من اجل ان يقوم الشعر ـ البداية ،

شعر الحضور الخلاق المغير ،

الشعر الذي **يتقدم سير الانسان** ،

الشعر الذي **يفجر الفعل ـ يكون فعلا** .

***

ج ـ هذا الشعر ـ البداية لا يخلقه غير الشاعر ـ البداية : الشاعر الذي يكون ، في حدسه وحساسيته ورؤياه ، **انسانا جديدا** .

ومن هو الانسان العربي الجديد ؟ هو الحر ، **الخلاق ، الفاعل ، خارق العادة** : يتجاوز الماضي ، ويعانق الحاضر فيما يقف على عتبة المستقبل . خارق العادة ثائر ، بالطبيعة . الشاعر ثائر بالطبيعة . فليس شاعرا من ليس ثائرا . لا **الثورة ـ النظام** ، التي تأسر الواقع وتحكمه ، بل **الثورة ـ الرؤيا** التي تحرك الواقع وتغيره . ثم **تعود فتحرك ما حركته ، وتغير ما غيرته ، ابديا ، بحيث يصبح الشعر عملا اخر والعمل شعرا اخر** .

وكما ان الشاعر والثائر واحد ، كذلك الشعر والثورة واحد . **الثورة فعل برؤيا ، والشعر رؤيا بفعل . معا يوقظان الحاضر ويقودانه الى عناق ما يأتي** .

***

د ـ ما يأتي ، اي ما يتطلع اليه الشاعر هو انسانية عادلة ، مبدعة ، حرة . هو الانسان الذي يعيد ابتكار كل شيء فيما يمد جذوره في الآتي . والآتي لا نهائي . **فليس شاعرا من ليس لانهائيا** .

وفي هذه البقعة العربية كثير مما يغذي فينا هذه اللانهائية . فهي ، في الاصل ، ارض ولادة ونبوة ، يتحدث ابناؤها مع الله وجها لوجه . فالانسان فيها ، مسكون فطريا بما وراءها ، بالغيب . المعلوم عنده عتبة لغير المعلوم . والنهاية مدخل الى اللانهاية . انه **بطبيعته مرشوق** نحو الابعد الاكثر غيبا ، مشدود الى الجانب الخفي الاخر من هذا العالم . فهو يؤمن ، بالفطرة ، ان حياته الجارية ليست الا جزءا باهتا يسيرا من الحياة .

بهذا تتم الوحدة بين الواقع والممكن ، الزمني وما فوق الزمني ، الشيء والخيال . وبهذا يتم تخطي الثنائيات نحو تركيب وجودي اخر تتوحد فيه حيوية الاشراف او المعرفة ، بحيوية الابداع او العمل .

***

هـ ـ ليس شاعرا ، اذن ، من لا يكون تغيير العالم في اساس حدسه الشعري . فكما ينسلخ الشاعر من نفسه ، لكي يجد نفسه ، كذلك يهيىء للعالم ان ينسلخ من نفسه ، لكي يجد نفسه . فالعالم جسد الشاعر . لا يستطيع الا ان يحركه ، الا ان يغيره . وحين لا يفعل يكون ميتا : فليس شاعرا عربيا من لا يكون ثائرا ـ منغرسا في حياته العربية من اجل ان يغيرها ، ان يتخطى اشكالها الهرمة ، ويحقق لها اشكالا جديدة .

كل شيء في الحياة العربية للموت والقيامة : البيت ، العائلة ، المدرسة ، الكنيسة ، الكتاب ، الحب ، الحرية ، العدالة ، الانسان ، الشعر ، الله ...

ليس شاعرا من لا يعلن هذا الموت ، مبشرا بالقيامة .

لان يبدو ان حياتنا هي من العفن والتحجر بحيث انها لا تستحق نعمة الموت . كانها لم تعرف الحياة . وكيف يموت من لا يحيا ، او كيف يحيا من لا يموت ؟

وكان مرض حياتنا الاعظم هو في انها لا تريد ان تموت ، بل تريد ان تبقى متأرجحة في هذه اللحظة الواقفة بين الحياة والموت . **فليست الحياة عندنا حياة او موتا ، بل عادة** . والعادة تتحول الى مملكة . ولهذه المملكة قوانين ومقاييس ، والزام وجزاء . فيها يلتقي العمق والبعد ، وتنفتح هوة بين النفس والجسد ، الباطن والظاهر ، الانسان والانسان ، الانسان والغيب .

ويتحجر ، معا ، الانسان والله .

لننظر ، مثلا الى تراثنا بما فيه من قيم دينية وغير دينية . نحن في الواقع بعيدون عنه ، فكرا وتطبيقا . كاننا اذن غير مؤمنين به . مع ذلك ، لا نفكر الا به وفيه . نفكر به وفيه كما لو اننا نريد ان نحافظ عليه الى الابد . ثم اننا نعيش حياتنا اليومية كما لو اننا نمقته ونريد ان يزول الى الابد . انه طريق تجاوزناها ، لكننا نسير عليها باستمرار .

ليس شاعرا في حياتنا من لا يعمل على موت حياتنا هذه ، من اجل ان تحيا . ليس شاعرا من لا يموت ، هو كذلك ، من اجل ان يحيا ، فيخلق ، ويهيىء لنا السكنى في مملكة الانبثاق والاشراق ، حيث نتحرك ، ووجهنا الى الغيب ، في مد اشعاع وتوتر .

***

الشعر العربي بامتياز هو ، اليوم ، **شعر التوتر الخارق بين الاطراف** . ففي هذا التوتر علامة الاستقصاء الاغنى والاقصى . وفيه دعوة الى ان **يكون الشعر تجربة كلية تتعانق فيها الشهادة بالموت والشهادة بالنطق: تجربة تتخطى تناقضات الفكر والحياة معا ، وتكون بشارة خلاص من الوضع الانساني الميت ، ـ بشارة بنهاية الانسان القديم من اجل ولادة انسان جديد اخر ، يكون الطبيعة وما وراءها ، الحضور والغيب في آن** .

ادونيس

العرب في المعترك الدولي

بقلم الدكتور ناصر الحاني

لنا قضية خطيرة دون شك، وهي عادلة دون شك، ولكن لا يكفي — في دنيا اليوم — ان يكون لشعب ما قضية، ولا يكفي ان تكون هذه القضية عادلة ليعيها العالم ويقبلها مآلا على انها من الحقائق التي تستحق ان يناصرها ويرعاها . وآية هذا ما الفيناه في الامم المتحدة من تناحر وتنافر حيال موقفها من الاعتداء الاسرائيلي الصارخ على الدول العربية ، ومما صحب القرارات التي نوقشت على اكبر مسرح عرفه الانسان في تاريخه الطويل ، وظلت — هذه القرارات — عرضة للتحوير والتعديل والتبديل حتى اصابها كثير مما طوح بجوهرها ، ولم تلق من التأييد ما هيأ لها الفلاح .

واذا كنا قد هزمنا على الصعيد العسكري بسبب ما عرفه العالم كله وشهده من تواطؤ الاستعمار والصهيونية العالمية مع اسرائيل وغدر اولئك وهؤلاء ومكرهم ، فان انهزامنا على الصعيد الدبلوماسي لم يكن اقل اثرا او تبعة. وليس لنا ان نسهب بهذا الصدد لان الشأن هنا ان نعرض الوضع الذي تعيشه امتنا العربية وما تحتمه طبيعة هذا كله ، لنحاول المضي قدما في معركتنا المصيرية . ولست ادري اذا كنا نعي حقا خطورة هذه المرحلة وعظم المسؤولية التي القيت على كاهل هذا الجيل ، واذا كنا نعي حقا معنى « المصيرية » الذي هو الخيار بين الموت المحتم او الحياة الحرة الكريمة .

لا مراء بأن طبيعة هذه المرحلة تحتم علينا ان نلتفت الى الماضي لنتدارسه تدارسا يرتكز على التقييم الفعال والنقد الذاتي. ولست اريد — كما يريد بعضنا — ان نمعن بالعيش في هذا الماضي والخروج الى شؤون قد لا يكون وراءها طائل اليوم ، وقد لا تخدم قضيتنا خدمة مباشرة، وسنكون حيالها كمن اقبلوا بعضهم على بعض يتلاومون وشغلوا بهذا التلاوم عن عدو يكيد بهم ويعمل على محقهم ، بل يجدر بنا ان نلتفت الى الماضي بقدر ما يعيننا على هذا التقييم المرتقب والنقد المرجو . فلقد وضح لنا جميعا اننا لم نستطع ان نهيىء لقضيتنا الكبرى جوا في المعترك الدولي يرتكز على طبيعة الوسائل التي تواكب عقلية الشعوب المختلفة وما تألف ، وفاتنا ايضا ان نكسب انصارا في اكثر الدول دعوة للتحرر وانطلاقا مع الثورة ، وحسبنا ان نتذكر ان ثلاثا وعشرين دولة لاتينية كنا نظن انها تلتقي معنا في كثير مما نهجنا وعرفنا ، فبدا لنا سوء التقدير واضحا يوم راحت هذه الدول تقف من قضيتنا المصيرية في الامم المتحدة موقفها المعلوم . فلا شك بأن الولايات المتحدة الاميركية قد لعبت دورا فعالا في هذا الموقف الذي نهجته الدول اللاتينية ومارست ضغطا متصلا سواء في العواصم المختلفة او في جنبات الامم المتحدة نفسها ، ولكننا لا نريد بهذا ان نخفف من عظم المسؤولية التي تقع علينا وعلى وسائل اعلامنا وطبيعتها عبر السنين في تلك القارة الواسعة التي تغص بعض دولها بعدد كبير من العرب تهيأت لهم مكانة عالية وتمتعوا بكثير مما يمكننا ان نفيد منه في معتركنا الدعائي الخطير .

والعجيب اننا لم نول التمثيل الدبلوماسي في هذه القارة اهمية تواكب طبيعة الروابط التي ترتبط بها شعوب اميركا اللاتينية بالشعب العربي من التعاون على مكافحة الاستعمار والمستعمرين ، ودعم استقلال الدول النامية ، وتوطيد العلاقات القائمة سلفا بيننا والتآزر على ابراز هذا كله في صعيد الأمم المتحدة .

لقد كان منطق هذه العلاقات تطلب تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الدول اللاتينية وتنسيق هذا التمثيل العربي تنسيقا يسلم الى نتائج بناءة سليمة ، ولكننا في الوقت الذي نجد فيه لاسرائيل بعثات دبلوماسية منبثة في ارجاء تلك القارة لا نجد للدول العربية تمثيلا كافيا ، بل لا نعرف سوى بضع بعثات لبنانية او اردنية او سورية منبثة هنا وهناك ، ونجد بعض البعثات التابعة للجمهورية العربية المتحدة ايضا ، ولكن اثر هذه البعثات مهما حسنت خطاها وعظمت همتها وضوعف جهدها ظل قاصرا . ولقد تهيأ لي ان اقف على ما فرطنا به في خدمة قضايانا عندما اتيح لي ان ازور بعض دول اميركا اللاتينية مرة ، وعندما ندبت لتمثيل العراق باحتفالات تنصيب السيد (فراي) رئيسا لجمهورية (شيلي) اثر انتخابه عام ١٩٦٤ .

واذا التفتنا الى موقف بعض الدول الافريقية في الامم المتحدة فاننا سنصاب بخيبة امل كبيرة ، وقد لا نجد تعليلا شافيا مهما احسنا الظن . فليس يسيرا ان نعلل موقف بعض الدول التي اقامت كيانها اثر ثورة هزت

افريقيا كلها مثل (كينيا) و (الكونغو) او دولة تربطها بنا روابط وطيدة مثل (الحبشة) .

فلا شك بأن موقف هذه الدول سيظل امام العالم كله دليلا على اننا لم نستطع ان نكسب ود اقرب الناس الينا واكثرهم ارتباطا بنا في مجالات كثيرة معلومة.

وحديث التمثيل الدبلوماسي العربي في افريقية يمثل اسوأ مأساة عرفناها ، فلقد انحسر اثرنا عن هذه القارة الكبيرة ووجدنا انفسنا نشرق باوروبا ونغرب،ونكثر من سفاراتنا بارجائها وننسى تلك القارة كلها ، واذا هيأ الله لنا ما يسلم الى اعتماد سفارة في دولة افريقية فان تلك السفارة تظل عزلاء وتقوم على عدد قليل من ممثلبنا لا حول لهم ولا طول .

واذا كان لنا ان نقرر حقيقة ظلت تدور حول الوضع العربي في افريقية او نستذكر ما تهيأ لدبلوماسيتنا هناك، فان كل شيء في هذا الميدان يشير الى عجزنا الظاهر وفشلنا الذي افادت منه اسرائيل والصهيونية واستغلته استغلالا بشعا .

لقد كنا ندعو منذ زمن طويل الى ان تنطلق الدول العربية في تعاونها مع الدول الافريقية النامية في مجال فعال تستطيع ان تقدم فيه كثيرا مما يعود بالنفع على تلك الدول ، واشرنا خاصة الى الميدان الثقافي حيث تستطيع الدول العربية ان تتعاون تعاونا بناء سواء بارسال المعلمين او الكتب المدرسية او اعداد دور للمعلمين او استقدام عدد من الطلبة للدراسة بالجامعات العربية المختلفة ، وكان الرأي ان تجمع الدول العربية كلها ما تستطيع تقديمه في هذا الحقل وتنسقه في الجامعة العربية لتستطيع الهيئة الثقافية فيها ان تتعاون على تطبيقه في الدول الافريقية المختلفة ، فنكون قد حققنا هدفا ساميا وفق خطة موحدة سليمة . ولكننا لم نستطع ان نهيىء هذا او شيئا منه ، واقبلنا على الدول الافريقية فرادى لكل منا خطة ولكل منا هدف ، ولم نكن قادرين على ان نعد شيئا وافيا ، ورأينا بعض الدول العربية التي تتنازع سياسيا في هذا الصعيد او ذاك تنقل هذا كله الى تلك القارة .

لقد استطاعت اسرائيل ان تنسق جهدها في افريقية وتنطلق في الصعيد الثقافي والاقتصادي والعسكري والتكنولوجي ، فرايناها تفيد من اخطائنا وتحاول ان تهدم ما نبني وتقوضه ، واستطاعت — كما اخبرني سفير افريقي مرة — ان تتعايش مع الدول الافريقية على انها ناشئة مثلها ، صغيرة محبة للسلم مثلها ، ولكن هذه الدول العربية ذات العدد الكبير، والعدد الواسعة تريد ان تطوح بها .

***

ويجدر بنا ان نتذكر ان اسرائيل قد حاولت ان تبقي على الصورة التي ظل المستعمرون واعداء العرب منذ مطلع هذا القرن يرسمونها للعربي ويشيعونها في الدنيا كلها سواء في الولايات المتحدة او اوروبا او اميركا اللاتينية او افريقية نفسها . واطار هذه الصورة البشعة وجوهرها ان « العربي فظ غليظ ، وهو هدام اعتدائي ، لا تقوم شخصيته على ثقافة راسخة او عقيدة ثابتة » . وكانت هذه الصورة تدور هنا وهناك ، فعمد الصهاينة اليها وصيروها في كل مجال ركيزة من ركائز دعاياتهم التي بثوها في الصحافة والتلفزيون والسينما . ولقد تصدوا في الاعوام العشرة الاخيرة خاصة للتراث العربي وراحوا يشوهون القيم الحضارية التي ابدعها الفكر العربي ورعاها عبر العصور .

والعجيب اننا في العالم العربي لم نلتفت الى هذه الظاهرة الخطيرة الهدامة التي باشرها الصهاينة واعوانهم في الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا خاصة بعد ان استطاعوا ان يمدوا سيطرتهم على بعض المعاهد التي تعنى بتدريس الحضارة العربية او اللغة العربية نفسها ، وحاول نفر من الذين اندسوا في تلك المعاهد ان يشوهوا حتى الحقائق المقررة عن الحضارة العربية ، ولم تسلم القومية من هذا التشويه البشع .

كما لم يسلم اكبر مصلحين عرفهما عصرنا من تشويه لحقيقة دعوتهما وكنه الاصلاح الذي بشرا به وهما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . لقد كنت اعجب حقا من هذا الفيض الذي لا ينقطع من الكتب التي تعنى بالبلاد العربية والشرق الاوسط والحضارة العربية والتراث الاسلامي في الولايات المتحدة واوروبا ، وادركت ان وراء هذا كله منهجا محكما يرمي الى تغطية كل الحقول التي تخص الامة العربية بكتب كثيرة تنتظمها وجهة موحدة في البحث والنتيجة ، ولا تكاد تقرأ في اكثرها او تسمع خلالها الا ما يردده الصهاينة واشياعهم . وعز في هذا المعترك ما كتبه العرب انفسهم او ما ارتكز على نتائج بحثهم ودراستهم العلمية ، ويكمن في هذا جانب خطير نسي العرب ان يؤدوا رسالتهم فيه — وهي من اهم رسالاتهم — ويحققوا واجبا قوميا هو فوق كل واجباتهم.

واذا كان هناك من عذر لنا في العشرينات او الثلاثينات من هذا القرن بسبب وضعنا العلمي والثقافي وقلة الجامعات في الوطن العربي وندرة الجامعيين الذين تضلعوا من اللغات الاجنبية الحية والثقافة الغربية ، فان هذا كله قد زالت معالمه ، وتهيأ لنا عدد كبير في الميادين العلمية والادبية والاجتماعية ، وكان علينا ان نتقصى هذا الذي جندت له اسرائيل والصهيونية العالمية عددا من اساتذتها فنحاول اعداد الدراسات القائمة على اصول البحث العلمي لتصحيح ما زيفوه والتعريف بحقيقته ، وكان علينا ان نتدارس قضايانا الرئيسية التي تؤثر في

الوضع الدولي وتتأثر بموقف الدول ولا سيما الكبرى منها فنباشر باعداد الراي العام الاجنبي لها بوسائل فعالة مجدية بعيدة عن النهج التلقيدي الذي انتظم كثيرا من نتاجنا في هذا المجال .

لقد كانت اسرائيل فعالة في كل ميدان ، فرأينا لها كتبا لا تحصى عدا ، بينها ما يستهوي كل طبقة من طبقات المجتمع الغربي ، وكنا نحار دوما حول ما نستطيع ان نعده لمن يتساءل في اوروبا واميركا عن مسألة عربية او جانب من جوانب اهم القضايا التي شغلتنا وشغلت العالم كله .

ويلوح لي اننا ظللنا نرى في الصحافة وحدها وسيلة فعالة لدعمنا ، فحاولنا جهدنا للنفاذ اليها وكسب بعضها او اقناعه برأينا والاستماع الينا ، ونسينا ان هناك وسائل في المجتمع الغربي قد تكون اكبر اثرا من الصحافة نفسها ، وقد تكون فعالة حقا في توجيه الرأي العام الذي ننشد ، كالجامعات والمعاهد والجمعيات والمنظمات وما تنشر من بحوث وكتب ، وما تصدر من نشرات دورية ومجلات متعددة . ولعل ما اصابنا من فشل في ميدان الصحافة وما لقينا من عنتها وتعصبها ضدنا هو الذي آل بنا الى الاعتقاد بان عالم الجامعات والمعاهد وغيرها لا يقل صعوبة او درجة في الوقوف ضدنا .

ان كثيرا من المثقفين العرب يرون ان قضيتنا قضية دم . وان معركتنا المصيرية تقررها المعركة العسكرية وحدها ، ونحن لا نرى هذا الراي وان كنا نقر ابتداء ان عماد معركتنا عسكري . ولا شك بان اسرائيل قد استطاعت — على نقيض صنعنا — ان تعد عدتها وتهيء اسباب تقويضنا وفنائنا في كل صعيد ، لا فرق في هذا بين العسكري والدعائي والفكري والصحفي ، فحاولت ان تتغلغل في كل ميدان وتفيد من كل وسيلة ، ولعلي لا اغلو اذا ادعيت انها انفقت على طائراتها ودباباتها ومدافعها بقدر ما انفقت — هي واشياعها الصهاينة — على وسائل دعاياتها لتكسب الرأي العام العالمي وتكسب ابرز ادباء العالم وفنانيه ومفكريه ، وقد كشفت لنا الايام الماضية القريبة صدق ما ذهبنا اليه .

ان النقد الذاتي الذي نريد ان يظل رائدنا يحتم علينا ايضا ان نتجلد في معترك نظنه سيظل محفوفا بمصاعب جمة . ويجدر بنا ان نعترف بان هذا العالم قد صغر وكثرت مشكلاته وتعددت خلافاته ، وان الشعوب الكبيرة تقع تحت وطأة كبيرة من الدعايات المختلفة ، وليس يجدينا ان نخاطب الشعب الاميركي او الفرنسي بطبيعة ما نخاطب به الشعب العربي ، بل انني لاشك شكا كبيرا بجدوى طبيعة وسائلنا التي توسلنا بها مع شعبنا نفسه . واذا كان العرب في كل مكان قد عاشوا اياما نظنها ستظل من انحس ايامهم واشدها بؤسا والما فان ايماننا بانفسنا وبعزيمة امتنا يتطلب منا ان نكون اكثر يقظة وتطلعا الى ان نشق طريقنا الى العالم لنسمع صوتنا — وهو صوت الحق — متذرعين بالوسائل السلمية الصائبة ، مدركين ان الشعوب معنا ، وان ليس من المنطق الصائب او الخطة الحكيمة ان نيأس او نلوذ بمنطق الذين لا يرون في الدنيا الا اسود وابيض ، ويقفون في اقصى هذا الطريق او ذاك ، ويستعدون الشعوب علينا وعلى قضايانا ، ويحاولون ان يصيروا شعبنا العربي معتزلا . لان هذا ما تهدف اليه اسرائيل وما ظلت تعمل الصهيونية العالمية لتحقيقه .

اننا نريد ان نكون واضحين في منطقنا ، مدركين لخطانا التي نخطو ، ونريد ان نتذكر دوما ان الحديث عن الشعوب لا يعني بالضرورة الحديث عن الحكام دوما ، لان الحكام عرض ، وكل عرض زائل ، ولكن الشعوب جوهر ، والجوهر باق .

واذا كانت النكبات تحمل بين طياتها دروسا وعظات لاولئك الذين يتعظون ، فان نكبة امتنا علمتنا درسا راح اصدقاؤنا في العالم كله يرددونه قبلنا ، وفحواه اننا لا نستطيع ان نقنع العالم بعدالة قضايانا اذا لم نحسن المنطق الذي تفهمه الشعوب المختلفة وينتظم دعاوانا نهج مواكب لعقليتها ، وعلمتنا ان العالم يصغي الينا اذا كنا متحدين حقا ، وان هذا الاتحاد سواء العسكري او الاقتصادي او السياسي قوة جبارة يحسب لها العالم كله حسابا ، وتستطيع ان تحتل مكانتها اللائقة بها في كل صعيد .

لقد تحدثنا كثيرا عن الطاقات العربية الضخمة ، سواء البشرية او المدنية او الطبيعية او غير هذه ، وكنا ننسى ان هذه طاقات مبعثرة فقدت اثرها الفعال بسبب بعثرتها وتفرقها ، وسيتهيأ لها هذا الوصف الصادق لو احكمنا ضمها الى بعضها ووحدناها لتكون عربية وتنطلق عربية لا كما هو الشأن الذي عرفه العالم عنها وعنا حتى اليوم .

اذكر ان السفراء العرب في الولايات المتحدة دعوا في العام الماضي الى مهرجان اقامه صديق حميم من اصدقاء العرب في مدينة (هيوستن) الاميركية هو (دوكلاص مارشال) المعروف ، ولما وقف لتحيتهم انهى كلمته بقوله : « ان الامة العربية ستسير الى الهاوية ان هي ظلت متفرقة كما اراها ، وسترقى الى السماء اذا تهيأ لها وحدة تجمع طاقاتها الضخمة » .

واذا كان حدث الوحدة التي يريدها لنا اصدقاؤنا فى العالم ، بله هذا الشعب العربى نفسه ، مؤلما وطويلا ، فان الحديث عن قصتنا مع العالم اطول ، وان تجاربنا فى المعترك الدولى اشد ايلاما وادعى لكثير من التأمل والتدبر ، لنمضي في معركتنا يحدونا ايمان راسخ بانفسنا وعدالة قضايانا ويدعمنا منهج واضح قائم على ركائز وطيدة بعيدة عما الفنا زمنا طويلا ، لنستطيع ان نشق طريقنا الى شعوب العالم كله ، وسنبلغ هذا — اذا احسنا السير — مهما طال الدرب .

بيروت

ناصر الحاني

التربية وطريقنا الجديد الى النصر

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

مدخل :

بعد المعركة ، بعد النكسة ، قد ينقشع البصر وتتفتح الرؤية وتنجلي المواقف .

وقد تزداد الامور ابهاما وخواء وتضايـلا ، وتطوقها سحب جديده من الظلام .

ومهمتنا ان نعمل للاولى لا للثانية . ان ننتشل قدمنا من النكسة عن طريق الوضوح في كل شيء وتبين معالـم المسير .

لقد كان الفكر في بلادنا العربية ، منذ سنوات ليست قصيرة ، في معزل عن دوره الحقيقي . ولـم يستطـع – لاسباب عديدة – ان يضطلع بمهمته الاصيلة ، مهمـة الشرح والتوضيح والتوجيه الواعـي والقيادة الجريئـة العاملة للامور .

لقد كان الفكر – على حد قول برغسون – مسدودا بالعمل . لقد كان معطلا الى حد بعيد بضرب مـن الدوار الذي خلقه عمل سياسي غير ناضج المعالم . وقد كـان تابعا لا قائدا ، مسودا لا سيدا . ذلك ان طرازا من العمل السياسي والاجتماعي اتصف في كثير من الاحيان بظاهر من الجدية والجرأة والفهـم ، استطاع ان يمتص العمـل الفكري وان يبتلعه وان يخضعه الى حد بعيد لارادته بل لارهابه . وكان الفكر – وسط هذا التيار الجارف الذي لا يخلو من مظاهر الخداع الى حد بعيد – يفكر دون ان يفكر ، ولا يعدو في الواقع ان يعكس تيارا لم يشارك في صنعه الا بمقدار يسير .

ولهذا كان العمل يسير على قدم واحدة ويغربل في مشيته . ولهذا كان عاجزا عن أن يبلغ كامل مداه ويعطي عطاء حقيقيا : ولهذا كان الخذلان وكان الضياع الـذي نشهده .

وليس من جديد ان نقول ان العمل بلا نظر يظـل اعمى ، كما ان النظر بلا عمل يظل اجوف .

والمسألة المسألة ان نحقق التوازن بيـن التكامل والاندماج ، بين النظر والعمل ، بين الفكر وحركة الواقع .

المسألة كلها ان ندرك ان الحياة – في اي ميدان من ميادينها ، تستلزم اجتماع العمل ، الثري بالتفكير وتجربة الفكر ، الى الفكر المنبثق من معاناة الواقع الحي والتمرس بالعمـل .

كما لا نقول جديدا اذا قلنا ان العمل – سياسة كان او اجتماعا او اقتصادا او تربية – لا بد ان يكون تجسيدا للفكرة الحية ، لا بد ان يكون هو الفكرة نفسها في حال حركتها وانطلاقها وتحققها وانقلابها الى واقع ، لانها ابنة الواقع ولسانه .

ان مهمة الفكر بعد النكسة الا يعاود سيرته قبلها ، وان يدخل الساحة في جرأة ووضوح ، وان يسعف العمل ويمده بالوقود اللازم ، وان يأبى الا ان يكون لـه دوره الحق ، دور القائد للمعركة ، تلك المعركة التي لا بد ان تكون معركة الفكر والعمل معا ، معركة المفكر والسياسي في آن واحد ، والتي لا بد ان نبرز فيهـا دور القيادة الفكرية بعد طول احتجاب وابعاد .

تلك كلمة اولى لا بد من قولها بين يدي حديثنا عن دور التربية في معركتنا الجديدة . وهي في واقع الامر من قلب الحديث وصميمه ، فالتربية تعني الفكر اولا وتعني تربية هذا الفكر التربية التي تجعل منه نصيـرا للعمل المنتج .

وعندما نمنح التربية دورها – بل دورها الراجح – في معركتنا الجديدة فنحن في واقع الامر نعيد مكرورا من القول ونرجع بدهيات من الامر . فلقد غدا من الامور البينة اليوم – بعد الدراسات المحدثة الكثيرة التي قـام بها رجال التربية ورجال الاقتصاد والاجتماع – توكيـد حقيقة اساسية ، هي ان رأس المال المنتج المثمر في أي بلد ، هو رأس المال الانساني ، نعني الانسان ، وان احسن استثمار وتوظيف لرؤوس الأموال المادية هـو ميدان التربية . فتوظيف الاموال في تربية الناشئة هو الـذي يعود على اي بلد بالتنمية الاقتصادية الحقيقية في شتـى جوانب الحياة الصناعية والزراعية والتجارية وغيرها . ذلك ان التربية – ولا سيما في مفهومها الحديث – تعنـي تكوين القوة العاملة اللازمة لهذه الميادين ، واعداد الخبراء والاخصائيين الذين يستطيعون وحدهم – بفضل خبرتهم الفنية ان يخرجوا من الأرض ثمراتها ومن الطبيعة خيراتها ومن الاقتصاد كله افضل نتاجه وعطائه . وليس المجال مجال الحديث عن الدراسات العديدة التي قامت على قدم وساق منذ نيف وعشر سنوات في شتى انحاء الارض ، لتقيم الدليل تلو الدليل على ان للتربية مردودا اقتصاديا و « عائدات اقتصادية » وان الثمرات المالية التي نجنيها من استثمار الاموال عن طريق التعليم تفوق الثمرات التي نجنيها عن طريق استثمار هذه الاموال في اي مشروع صناعي او زراعي او تجاري . ذلك ان الاصل في انتـاج اي مشروع صناعي او غيره توافر الخبرة الفنية القادرة

على حسن تسيير ذلك المشروع . ولا قيمة للمصانع وسائر المؤسسات اذا لم نوفر لها اليد العاملة الخبيرة في شتى المجالات الفنية والادارية وغيرها . واذا كان انشاء المصانع وبناء الالات او شراؤها امرا سهلا ، فان بناء الانسان اللازم للمصانع واللازم لتسيير الالات هو الصعب وهو الهام .

من هنا كانت العقبة الكأداء التي واجهتها وتواجهها **معظم الدول التي انطلقت حديثا في طريق التنمية — ومن بينها الدول العربية — افتقار الى الطاقة العاملة المهيأة الخبيرة ، القادرة على قيادة عملية التنمية** . وما هي عملية التنمية اولا واخرا ؟ انها الجهد العقلي والخبرة **الفنية والدراية العلمية التي نصبها على موارد الطبيعة من اجل استنباطها على اكمل وجه . انها تسليط اليد الصناع والعقل المبدع على امور التنمية** . ومهمة التربية **اولا واخرا استنباط هذه القدرة المبدعة الخلاقة ، وتزويدها بالمهارة الفنية واعدادها من اجل القيام بدورها الصحيح في دولاب الانتاج الاقتصادي والاجتماعي الكبير** .

ان من حق اقتصادي فرنسي مثل «دومون Dumont» ان ينصح الدول الحديثة ، ولا سيما الدول التي تعزم على السير في طريق اشتراكية — ان تفكر اولا وقبل كل شيء بعملية الاعداد ، اعداد الخبراء والفنيين اللازمين للتحويل الاقتصادي والقادرين على قيادة عملية التنمية السريعة الناجعة . وقد بين اكثر من كاتب اقتصادي ان **العقبة الاساسية التي تقوم في اكثر من دولة تجرب السير في طريق النمو السريع ، هي افتقارها الى الانسان المدرب الخبير ، والى التربية التي تعد كل انسان ليكون الشخص الصالح في المكان الصالح** . ومثال الصين الشعبية من اوضح الامثلة على ما نقول . لقد كانت الصعوبات التي لقيتها في سني عمرها الاولى حاجتها الكبيرة الى الفنيين والاخصائيين ، رغم المساعدات السوفياتية التي قدمت لها عددا كبيرا من الخبراء في بداية الثورة . ولم تستطع ان تتغلب على الكثير من صعوباتها الاقتصادية وتنطلق في طريق التصنيع والتنمية السريعة ، الا عندما غيرت نظامها التربوي وقلبته راسا على عقب ، واخذت بفكرة « تصنيع التعليم العالي » ، ووضعت خطة علمية لاثني عشر عاما (تنتهي هذا العام) هدفها تخريج ١٠٥٠٠ عالم وحوالي مليوني فني . وهكذا استطاعت بفضل هذه السياسة التربوية المرسومة المدروسة ان تخرج عددا من المهندسين يبلغ حوالي ٧٥ بالمئة مما يخرجه بلد كالولايات المتحدة يعد من اكثر البلدان عطاء في هذا الميدان . لقد ادركت الصين ان من اللازم ان تكون التربية — في انطلاقتها الجديدة — اداة لسد حاجات البناء القومي والتنمية الوطنية . ولهذا احدثت ذلك التغيير الجذري في معاهدها ، وعنيت تلك العناية الكبرى بما دعته باسم «الاختصاصات» ، تعني الاتقان الفني في كل ميدان من ميادين التخصص الضيقة . ومهما يؤخذ على مثل هذا النظام افراطه في هذا المجال ، يظل من الصحيح ان هذه السياسة التعليمية الجديدة هي التي استطاعت ان تخرج الصين من تخلف القرون لتنقلها الى مستوى حياة القرن العشرين .

ان هذا كله يعني ان دور التربية هو الدور الحاسم في بناء أي بلد ، وان بناء الانسان ينبغي ان يكون هدف معركتنا الجديدة ، وان اهمال هذا البناء هو احد العوامل الاساسية في تخلفنا وفي نكساتنا .

غير ان هذا يعني في الوقت نفسه ان التربية المرجوة والقمينة بأن يكون لها مثل هذا الدور ليست اي نوع من التربية ، بل لا بد ان تكون تلك التربية المرتبطة ارتباطا وثيقا بحاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والعاملة على اعداد المثقفين اعدادا يلائم حاجات اليد العاملة في الاقتصاد المنشود . صحيح ان التربية كما قلنا منذ البداية افضل استثمار لرؤوس الاموال . ولكن هذا القول لا يصدق الا اذا وضعنا في التربية منذ البداية ما ينبغي ان نضعه فيها ، اي اعداد الخبراء اللازمين للخطة الاقتصادية والاجتماعية التي نرجوها . فنحن لا نستخرج من الاشياء الا ما نضعه فيها اولا . والتربية ليست في حد ذاتها عصا سحرية تغير البلاد والعباد من تلقاء ذاتها ، ولا هي المفتاح الذهبي للنمو في اي حال من الاحوال . انها تكون كذلك اذا اردنا لها ذلك ، اي اذا اردنا ان تكون اداة حقة من ادوات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، تخرج ما تحتاج اليه هذه التنمية ولا تعد مثقفين عاطلين او عاجزين يغدون من اهم عوامل النقمة الاجتماعية والثورة الحاقدة وسائر ادواء البطالة .

من هنا كان لزاما ان نبحث في اهم مقومات التربية المنشودة الجديرة بتحقيق اغراض التنمية والقمينة بشق طريقنا الجديد الى النصر .

ونقول منذ البداية ان التربية التي نعنيها تشمل ميدانين اساسيين : ميدان التربية المدرسية التي تتم في مراحل التعليم المختلفة ، والتربية الخارجة عن نطاق النظام المدرسي الرسمي والتي تتم عن طريق الثقافة الشعبية وسائر وسائل التربية التي نقدمها للكبار .

وبدهي أن تكون الاهداف في كلا الميدانين واحدة في الجملة . غير ان الوسائل لا بد ان تختلف . ورغم اختلاف هذه الوسائل سوف نتحدث عن الجانبين معا ، تيسيرا واقتضابا .

اهداف التربية المنشودة :

ان الخوض في مثل هذه الاهداف قد يتطلب منا مجلدات براسها . وما هذا هدفنا في مثل هذا المقام . فالذي نريد ان نقف عنده هو الاهداف التي تعنينا اكثر من سواها في معركتنا الجديدة وتحقق لنا قبل غيرها ان ننهض من كبوتنا وندرك الطريق الامم الذي يوصلنا الى اهدافنا القومية ويجنبنا محنا اخرى .

وقبل الانطلاق في الحديث عن هذه الاهداف لا بد من كلمة . فقد يقول قائل ان هذه الاهداف التي سنتحدث

عنها تظل – على جلالها وشأنها – اهدافا بعيدة المدى تستلزم زمنا غير قصير من اجل تحقيقها . في حين ان الوقت ليس وقت عمل بطيء وان الامور لا تنتظر وان العمل السريع الدائب هو مطلبنا في ظروفنا القاهرة .

وعند مثل هذا الاعتراض نحب ان نقف وقفة خاصة . انه – على الرغم مما يحمله من صدق النية وبراءة القصد – هو المسؤول دوما وابدا عن تنكبنا الطريق الصحيح وعن تخبطنا الطويل وعن نكساتنا المتكررة . فالطريق الصحيح ليس بالضرورة اقصر بعد بين نقطتين. والطريق الذي يبدو بطيئا ليس بالضرورة طريقا غير ناجع . بل العكس هو الصحيح الى حد بعيد . **فلا بد من البدء من البداية الصحيحة مهما تتطلب من جهد وعرق وزمن** . ولا بد من سلوك « الطريق ولو دارت » على حد قول العرب . ولا بد ان « نسلك الجدد » كي « نأمن العثار » . لقد تقضى ردح من الزمن نحاول فيه كل مرة ان نغذ السير وان نتعجل الامور وان نحرق المراحل ظنا منا ان الاحداث لا تنتظر ، فاذا بنا في كل مرة نقع نتيجة لذلك – في نكسة جديدة او نراوح في مكاننا على احسن تقدير . **ولقد آن لنا ان نغادر ، الى غير رجعة ، العقل النزق ، العقل الذي يريد أن يغير الاشياء بين عشية وضحاها** ، العقل الذي يريد ان يفعل كما تفعل العصا السحرية أو خاتم المارد . آن لنا ان ندرك الظروف الموضوعية والشروط الواقعية وان ندرك ان **الجرأة الحقة هي الجرأة الواعية** التي تدرك هذه الاشياء ادراكا موضوعيا ، وتحاول تغييرها انطلاقا من ذلك الادراك . فللواقع قوانينه ، وللحوادث قوانينها ، وهي لا تغير بجرة قلم أو بارادة لفظية ، بل تغير عن طريق معرفة تلك القوانين من اجل تشكيل الظروف تشكيلا جديدا قادرا على مغالبة تلك القوانين وتوجيهها الوجهة الصحيحة . ان القوة الحقة هي « المعرفة » ، كما قال « اوغست كونت » منذ القدم . وتغيير الطبيعة يكون باطاعتها اي بمعرفة قوانينها كما قال « بيكون » .

لقد اساء اسلوب حرق المراحل الى كثير من الدول السائرة في طريق النمو، الراغبة في تحقيق تغيير جذري في بنيتها الاجتماعية والاقتصادية . وكثيرا ما ادى هذا الاسلوب الى النقيض مما يرجى منه .

والتربية قد تكون عملا يتطلب زمنا ، ولكنها عمل عميق راسخ . والاهداف التي نرسمها لها هي الاهداف الواقعية بل السريعة ، لانها هي القادرة حقا على تغيير الواقع والوصول الى شاطىء السلامة .

لقد طال الجدل بين اصحاب النظر واصحاب العمل. وحسبنا ان نقول ان المسألة زائفة ، وان الامر – كما ذكرنا منذ البداية – امر دمج كامل بين النظر والعمل ، بحيث يتوافر السير على قدمين لا قدم واحدة ، وبحيث يحقق هذا الجمع العضوي بين المطلبين بلوغ اقصى سرعة مجدية وممكنة معا . ووظيفة التربية لا تعدو ذلك . وهي اذ تحفر عميقا في مجرى النفوس تحفر عميقا في مجرى الاحداث . وهي حين تتقن اعداد الانسان وتركض وراء هذا الهدف الاساسي تركض في الواقع وراء سائر الاهداف .

***

والان بعد هذا الاستدراك ، نستطيع ان ننطلق مطمئنين في الحديث عن الاهداف المرجوة للتربية المدرسية في معركتنا الراهنة .

(١) وواضح بعد كل الذي قلناه ان **تربية العقل المبدع الماهر فنيا** المتقن لروح العلم الحديث واساليب التقنية الحديثة يظل هدفا اولا من اهداف التربية المرجوة .

ان العقل في البلدان التي تخلفت عن ركب الزمن وعن ركب العلم الحديث والصناعة الحديثة ما يزال عقلا يعيش في عالم الالفاظ قبل ان يعيش في عالم الاشياء. والروح العقلية بسائر معانيها ما تزال بعيدة عن هذا العقل الى حد بعيد . والتكنيك الحديث خاصة ما يزال غريبا عن فكرنا . اننا نعرفه كشيء مجلوب ونعجب به اعجابنا بالسحر احيانا ، ولكننا لا نحيا ضمنه ولا يكون جزءا من بنياننا الفكري والنفسي . ان عالم التكنيك ما يزال – الى حد كبير – اشبه عندنا بعالم الاشباح ،نسمع عنه ولا نراه ، او نراه ولا نفهمه ، او نفهمه ولا نعانيه . واذا لم نوفق في خلق العقل المبدع التقني لم نوفق في شيء . فالالة التي نستخدمها في المصنع ينبغي ان نألفها ونعرفها ، لا ان تظل مجللة بالضباب كأنما تحركها اعمال الجان . والسلاح الحربي الذي نستخدمه في المعركة ينبغي ان تقوم صحبة وعشرة علمية وفنية بيننا وبينه بحيث نملكه ولا يملكنا ، ونستخدمه حيث نريد وكيف نريد وبحيث نستخرج منه اقصى مداه ، وبحيث نهب له المرونة فنعالجه في رشاقة وبراعة و « نؤنسه » الى حد بعيد ، بدلا من ان يظل وحشا يخيفنا اكثر مما يخيف اعداءنا . ومثل هذا القول يصدق في سائر مجالات الحياة الزراعية والتجارية وغيرها . ففيها جميعها ينبغي ان تقوم بيننا وبين الالة ألفة ومعرفة وصداقة مردها الفهم وحسن الاستخدام وسيطرة الفن على الالة . ان الالة عمل فني لا تسيطر عليه الا دراية فنية .

وهذا يعني في لغة التربية اشياء كثيرة لا يتسع المجال للوقوف عندها ، ونكتفي بالمرور السريع :

انه يعني اولا وقبل كل شيء **العناية بالعمل اليدوي في المدارس منذ نعومة الاظفار وبالثقافة التكنيكية في سائر مراحل التعليم** . انه يعني ان نستبدل بالمناهج القائمة على الالفاظ مناهج قائمة على الاشياء ، على معاناتها ، على تجربتها . انه يعني ان نضع خطة للتربية تجعل من اهم اهدافها تكوين الايدي العاملة الفنية الخبيرة في شتى مجالات النشاط ، ولا سيما في مجالات التكنيك والصناعة . انه يعني أن نربط الانسان العربي بالعمل

والعمل اليدوي والتقني بشكل خاص ، فربطه بالعمل هو الذي يعني ربطه حقا بأخيه ووطنه وامنه . لقد ذكر « بن غوريون » فيما ذكر عند حديثه عما سماه بسنوات النضال في « اسرائيل » عن الدور الذي لعبه ربط المهاجرين الصهاينة بالعمل وبالارض . وبين خاصة ان الرواد الاوائل للصهيونية الذين قدموا فلسطين منذ ايام الحكم العثماني — وكان واحدا منهم — مارسوا العمل اليدوي والفني ، وانه مارس بنفسه العمل في حقول الكرمة وفي صناعة الخمور وساق المحراث في احدى المستعمرات ... وجميع الذين تحدثوا عن تجربة اسرائيل ، تحدثوا خاصة عن التعاونيات المعروفة « بالكيبوتزيم kibboutzim » ذكروا دور العمل الزراعي والصناعي في ربط المهاجرين الجدد بعضهم ببعض وربطهم بالبلد الجديد الذي اغتصبوه . ومما لجأ اليه اعداؤنا في بناء انفسهم وصهر مجموعاتهم الشتيتة وتكوين قوتهم العسكرية العناية بمنظمات الشبيبة التي عرفت باسم منظمات « ناحال » التي تعد الشبان بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر اعدادا عسكريا بالاضافة الى اعدادهم للزراعة والعمل الزراعي . وبهذا تخلق منهم « جنودا مزارعين » و « مزارعين جنودا » .

هكذا يبدو العمل اليدوي والفني اداة مثلى من ادوات تربية جيلنا الجديد . انه يخلق اليد الصناع ، والعقل المبدع ، وروح العصر الحديث . انه يكون ذلك « العقل الذي في اليد » الذي يرى فيه زعيم الهند غاندي نبيئا « يفوق العقل الذي في الرأس » . انه يعلمنا « فضائل استعمال الاصابع الخمس » التي تمنى غاندي ايضا ان ينظم قصيدة عصماء في مزاياها ، لو كان شاعرا. انه يعلم المواطن منذ الصغر ان يعمل مع العمال وان تتسخ يداه وان يحيا حياة العمال .

وراء هذا كله ، ووراء هذا كله ، **الاهتمام بخلق روح الابداع ، روح الابداع التقني العلمي** ، وتعويد الشبيبة على الخلق والابتكار الفني منذ الصغر . أفلا يقرر كبار المربين واحدث المربين اليوم ان الهدف الاساسي من التربية في عصرنا الحديث ينبغي ان يكون خلق القدرة على الابداع Creativity ؟ افلا نجد في بعض المدارس الحديثة في العالم تعويدا للاطفال منذ المرحلة الابتدائية على القيام ببعض المشروعات الصناعية الفنية تحت اشراف مهندسين واخصائيين كبار يتعاونون مع المدرسة؟

وما نرانا في حاجة الى الادلة الكثيرة للبرهان على اهمية تكوين روح الابداع التقني لدى شبيبتنا ، ولا سيما في عصر العلم والصناعة . وحسبنا ان نقول ان تطور العمل في عصرنا — كما تدل الاحصاءات في مختلف بلدان العالم — يظهر بشكل واضح تزايد الحاجة الى الفنيين الذين يعملون بعقولهم وخبرتهم وابداعهم ، وتناقص الحاجة الى العمال اليدويين الذين يعملون بقواهم الجسدية وحدها . فقد ادى دخول الالة الى الصناعة والى الزراعة وغيرهما ، بل دخول « الاوتوماتية » الى الالة ، الى تناقص ضخم في الحاجة الى اليد العاملة الجاهلة وتزايد هائل الى اليد العاملة الفنية .

(٢) واذا كانت هذه التربية القائمة على العمل والدراية الفنية وروح الابداع شعار العصر وضرورة من ضروراته في كل مصر ، فانها في مثل بلادنا السائرة في طريق النمو اعظم شأنا واجدر بالعناية .

ولا نقصد بذلك مجرد تخلفنا التقني الذي يلزمنا بمزيد من الاهتمام بالاعداد الفني والتكوين الصناعي والمهني وخلق الاطر الفنية الخبيرة اللازمة لتسيير عجلة التنمية ، بل نقصد شيئا اخر لعله لا يقل اهمية عما ذكرنا . نقصد تعريف المواطن العربي على حقيقة الكون وتغيير نظرته الى الاشياء • عن طريق فهم هذا الكون وتلك الاشياء فهما علميا • بل عن طريق ملامستها ومعاناتها واللعب بها . نقصد — اذا شئت — **ابعاد الروح السحرية والخرافية والاسطورية بشتى اشكالها وصورها ، واحلال العقل العلمي المصناع محلها ، عقل القرن العشرين .**

فبلادنا — بسبب انتشار الامية وسوء التربية وسيطرة التربية اللفظية على التربية العملية العلمية التقنية — ما تزال الى حد بعيد تعيش في مرحلة شبه سحرية او شبه اسطورية . انها ما زالت كصاحب السحر والرقى يحاول التغلب على الاشياء باساليب لا تمت اليها بصلة ، لانه يجهل تلك الاشياء . انها ما تزال بعيدة في كثير من الاحيان عن ابسط قواعد العلم ، نعني مبدأ السببية والقول بان لكل نتيجة سببا . وما تزال على العكس قريبة من روح « المشاركة » التي يحدثنا عنها عالم الاجتماع « ليفي برول » لدى الاقوام البدائية ، والتي يرى فيها عالم النفس « بياجيه Piaget » بعض سمات نفسية الطفل .

ولا تتجلى رواسب هذه الروح الاسطورية الخرافية عندنا في بعض الميادين فحسب او في ميدان فهم المبدعات والمكتشفات الحديثة • بل تتجلى في سائر الميادين • ومن هنا يأتي خطرها . ففي حياتنا السياسية مثلا ما نزال نعيش الى حد بعيد في مرحلة **الايمان باسطورة البطل** القادر على كل شيء ، المالك لسيف عنترة ، المعصوم عصمة انصاف الالهة • وما نزال نؤمن بضرب من الخيال الذي يجعلنا نعتقد ان روح البطل تحمينا وتطوف حولنا وتبعد عنا الشر كما كانت آلهة الاقوام البدائية و « توانم Totems » الشعوب القديمة تحل في كل مكان وتدفع الاذى والشر وتطرد الارواح الخبيثة . وهكذا نلقي بكل ثقلنا على البطل ، ونجعل من ايماننا به العربون الوحيد على واجبنا حياله وجل مسؤوليتنا نحوه . ومن هنا نقيم بيننا وبين الواقع سدا ، ونعجز عن تحليل هذا الواقع وعن ادراك الاخطاء التي ترتكب او طرق الضلال التي تتبع .

ومثل هذا يصدق على تفكيرنا الاسطوري في ميدان

اخر هو ميدان « الايديولوجيات » . فنحن ههنا ايضا ما نزال ننزع الى ان نؤمن بها والى ان نجعل الناس يؤمنون بها ايمانا سحريا ، كمقدسات غير قابلة للنقد ، وكمحرمات Tabous لا يجوز المساس بها . وهكذا يصل بنا الامر الى **عبادة « الايديولوجيات » من اجل ذاتها** لا من اجل محتواها ونتائجها ، وننكر التنكر لها ولو انحرفت عن مجراها وافرغت من محتواها ومضمونها . وهكذا تغدو الايديولوجية التي هي اساس الثورة وطريقها شيئا فوق الثورة واهم من الثورة ومجمدا للثورة قاتلا لها . وبعبادتنا السحرية للايديولوجية هذه كثيرا ما نجعل منها – على حد قول ماركس – تبريرا وتتويجا رائعا للوحشية والاضطهاد . وبهذا ما تلبث الايديولوجيات ان تتقوقع على ذاتها او ان تغدو في احسن الاحوال راكدة غافية « كالاميرة النائمة » ، في عصر التحرك والتفجر والسرعة .

ان تنصيب الايديولوجيات كمطلق لا يقبل التحويل والنقد ، ضرب من الفكر الاسطوري الذي يحلو له ان يلجأ الى هذا التبسيط العجيب « المزدكي » « المانوي » فيقسم الكون قسمة ثنائية سطحية الى خير وشر لا لقاء بينهما .

ولقد بين الكاتب الماركسي الفرنسي الشهير « روجيه غارودي Roger garaudy » في كتابه الجديد عن « ماركسية القرن العشرين » كيف وقعت الستالينية في هذا التجميد للعقيدة وفي هذه النزعة الاثباتية « الدوغماتية » التي افسدت على الشيوعية ما افسدت. وبين خاصة كيف ان هذه النزعة المؤمنة المطلقة هي التي ادت الى الاضطهاد والى الحكم البوليسي القاسي ايام ستالين . ذلك ان الطرق الدكتاتورية والتسلطية والدموية لا بد ان تولد منذ ان يغادر المرء الموقف العلمي والانساني معا (كعنصرين لا ينفصلان) ، وينطلق نحو اسطورة الايمان بحقيقة مطلقة تعلو على الانسان الذي يخلقها وتجعل نفسها فوق الناس الذين يعيشونها ويبدعونها في كل يوم .

ومن هنا رأينا المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي يبدأ بنقد هذا الاسلوب وينكره . ومن كبريات فضائل هذا المؤتمر انه وضع امام اعين العالم نقدا جريئا للمفهوم وللاساليب التي جعلت نظاما اشتراكيا كنظام ستالين محروما من كل تلك الثروة الفريدة التي تنتج عن مشاركة الملايين من المواطنين والمناضلين ، والتي ادت الى سفك دماء الملايين منهم منتهكا بذلك ديمقراطية الحزب والدولة، بل الى استخدام النظرية « الدوغماتية » الايمانية المطلقة بمثابة عقيدة ايديولوجية تبرر ارتكاب الجرائم في حق الاشتراكية نفسها (1) .

ان تربية الفكر النقدي والعقل العلمي البعيد عن الاساطير ايا كان نوعها ، المؤمن بدور كل انسان في بناء مجتمعه ، مهمة كبرى من مهمات التربية في بلادنا العربية، جديرة بأن تبعد عن هذه البلاد كثيرا من الشرور ونضعها على الطريق الصحيح .

« من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت » .

ان الحقيقة ، ولا سيما في عصرنا ، متغيرة متطورة، تحيا عن طريق التغير والتطور . وهي ليست « كالجوزة القابعة في قشرتها » ، على حد تعبير « وليم جيمس » . وعصرنا عصر « التفجر » السريع في كل شيء ، وهو يستلزم قبل اي شيء اخر تربية من اجل التغير ، من اجل التجديد ، من اجل الحركة . وهذه التربية على التجديد تنال العلوم والفنون كما تنال السياسة والايديولوجيات .

(٣) ومحاربة الروح الاسطورية وتكوين العقل العلمي الذي يزاوج بين الفكر والواقع ، تعني بلغة اخرى هدفا هاما اخر ، هو **تكوين العقل المستقل الحر** .

فالتربية تضل طريقها وتناقض جوهرها وطبيعتها اذا لم تصل بالكائن الى تكوين شخصيته هو لا شخصية غيره . وهدف التربية – كما يقول كثيرون – « ان يكون الانسان من هو » ، اي ان نستخرج منه – ضمن حدود طبيعته الاصلية – اقصى ما يمكن ان يصل اليه. والمربي الناجح ليس المربي الذي يخلق الطفل على صورته هو ، بل هو الذي يكون الطفل من خلال اتجاهات هذا الطفل الذاتية ومقومات وجوده الاصيل ونداءات مصيره وموهبته .

وليس هدفنا ههنا ان نتحدث عن اهمية تكوين العقل المستقل في حد ذاته ، بل هدفنا ان نبين صدى ذلك في معركتنا الراهنة ومستقبلنا الذي نرجوه .

ان تربية العقل المستقل تعني ان يستطيع الكائن الذي نقوم بتربيته ان يكون سيد افكاره وخالق نظرته الى الكون والاشياء ، وان نأخذ بيده الى المرحلة التي لا يحتاج بعدها الا الى جهده الشخصي وعمله الذاتي. انها تعني ان نحول بينه وبين تعويده على الاطعمة الجاهزة ، على الافكار « المعلبة » المحفوظة ، وان نبعده عن الاتباع والانقياد ليكون مبدعا رائدا . انه يعني ان نحترم كيانه الذاتي وان نرفض اغتيال فكره وروحه عن طريق صب ما نشاء فيهما وعن طريق ملئهما بما يحلو لنا من نظرات واهواء . انها تعني ان نجعل من كل مواطن فردا نحترم فيه انسانيته ونحترم في انسانيته فكره الذاتي ، فكره الذي يبني نفسه بجهده الذاتي وينمي وجوده بقواه الذاتية التي اغنيناها واطلقنا شرارتها .

ومعنى ذلك ان المجتمع المنشود ، المجتمع الحي المرجو ، لا بد ان يتكون من حوار العقول المستقلة التي تجد لغة التفاهم المشترك فيما بينها عن طريق نضجها الذاتي وهويتها الذاتية ، والتي تصل الى تحديد اهدافها

(1) جارودي : اشتراكية القرن العشرين . الاصل الفرنسي ،ص ١٨

المشتركة عن طريق تفاعل منتج بين كيانات نفسية وفكرية تعرف أن تلتقي وان تجد ارضا مشتركة لانها عرفت ان تكون كيانات نفسية مستقلة في الاصل تملك ما في الاستقلال من قدرة على العطاء والاتصال والحوار . **فبدون النظره المستقله لا تكون النظرة المشتركه** ، او لا تكون مثل هذه النظرة خصيبا حافلة بالعطاء والقدره على النمو . وبدون العقول التي وعت ذاتها وكونت نظرتها الشخصية الى الكون والوجود لا يقوم لقاء حقيقي ، لان مثل هذا اللقاء لن يكون تفاعلا ونتاجا ، بل سيكون التهاما واغتيالا وافقارا . ان الذات التي استطاعت ان تتفتح وان تكون من هي ، هي الذات التي تستطيع ان تفهم ذوات الاخرين وتتفاعل معهم وتجد واياهم طريق الانسان المشترك واهداف المجتمع المشتركة . اما الذات التي حرمت من الفطره المستقلة ، وعودت الاتباع والخضوع ، فهي عاجزة لا محاله عن ان تقدم للهدف المشترك شيئا ينضاف اليه ويغنيه ، اي انها عاجزه عن ان تعمل بالتالي للهدف المشترك .

ان **الايمان بالهدف** شرط اساسي في نجاح أي معركة ، اجتماعيه كانت او سياسية او عسكرية . والذين يتحدثون عن الرأي العام وتكوينه ووسائل تعبئتهيشيرون اول ما يشيرون الى الايمان بالهدف كوسيلة اساسية من وسائل اعداد الروح المعنوية . غير ان من الواجب ان ندرك ان هذا الايمان بالهدف ينبغي ان يكون ايمانا بالمعنى الحق لهذه الكلمة . وهو لا يكون كذلك اذا لم نحاول ان يكون لدى الافراد **ايمانا منبثقا من اقتناعهم الذاتي ومن ادراكهم وفهمهم الشخصي للامور** . اما الايمان ـ الاتباعي ـ الايمان المحقون عن طريق انتهاك حرمة عقول الاخرين واغتيالهم وتقديم الافكار المبيتة المفروضة عليها ـ فهو ايمان لا يرقى الى ان يعبىء الافراد تعبئة تجعل منهم جنودا يستميتون في سبيل الهدف .

صحيح ان التوجيه امر لازب ، وان الدعاوة عمل ضروري ، لان الناس ليسوا سواسية في حظوظهم من الفهم والادراك . ولكن لا بد من القول ان التوجيه شيء اخر غير الارهاب الفكري ، وان الدعاوة الحقة توضيح وشرح وبيان وليست اغتيالا للاراء بأي اسلوب من الاساليب . لقد يسر انتشار الوسائل التي تدعى شعبية وديمقراطية (من صحافة واذاعة وسينما وغيرها) . طرائق توجيه الناس وتفتيح اعينهم على الحقائق . ولكن ثمة خطرا يداخل هذه الوسائل الديمقراطية ويهددها ان تنقلب ضد الديمقراطية ، وذلك حين تتخذ اساليب لاقتناص العقول والنفوس عن طريق الحرف المثير والعنوان الاحمر الخلاب والصوت المبحوح والصورة الخادعة الاخاذة . وان من اهم واجبات التربية تحرير المواطن من ارهاب الالوان الصارخة والاصوات المسعورة وكل ما وضع من اجل الايقاع به في الفخ الذي نريد ، واصطياده للجعبة التي اعددناها .

ان التربية اذ تعود الافراد على احترام عقول الاخرين وعلى احترام استقلال الاخرين تخلص البشرية وتخلص البلدان المتخلفة خاصة من هذه المحنة الكبرى ، محنة اتخاذ النفوس والعقول اقطاعيات لاشخاص او لجماعات او لاتجاهات ، تباع وتشرى في سوق الدعاية كما يباع العبيد في سوق النخاسة .

ان الايمان الراسخ هو الايمان الصادر عن صاحبه حقا ، والتربيه لا تعدو ان تيسر له يزوغ هذا الايمان ، والتوجيه السليم لا يعدو ان يجعله قادرا على هذا الايمان المؤمن بذاته المنبثق من جهده الخاص . انه الايمان الذي يعرف اين السبيل ويتبين المصير ويدرك الخطوات وتتضح عنده نهايتها وغايتها . **فلا ايمان بهدف لا يتبينه المرء ، ولا ايمان بهدف لم تحدد حطواته ، ولا ايمان بهدف لم تستبن امكانيات تحقيق خطواته** .

ان المتحدثين عن « القياده » في شتى صورها ومجالاتها (في مصنع او مدرسة او مجتمع او حرب) يبينون اكثر ما يبينون ان القيادة الناجحة هي التي تعرف ان تبين الاهداف وان ترسم طريق الوصول اليها وان تدل على الخطوات المختلفة التي قطعت في سبيلها . كما يبينون ان القيادة السليمة هي التي تحرص على رفع الروح المعنوية لدى الافراد ، عن طريق وسائل عديدة ، على راسها اشتراكهم في رسم الهدف وتبنيهم له ، وشعور كل واحد منهم ان له دورا في العمل المطلوب وان دوره اساسي ، وقيام حوار حقيقي يجعل المجموعة تشعر انها تبني اهدافها بنفسها . اما القيادة الفاشلة فهي التي توصف بالتفرد في اتخاذ القرارات والاراء ، والتي تكتفي بأن تضع الخطط وتطلب الى المجموعة انفاذها دون مناقشة بل دون فهم .

ان قوام التربية السديدة احترام الانسان كانسان، واحترام قيمه وشخصه وافكاره ، والابتعاد عن روح القطيع ، عن روح السادة والمسودين . انها تنطلق من منطلق اساسي : وهو **ان لا شيء يعلو على الانسان** . فالنظم من اجله والايديولوجيات في سبيل سعادته ، والتغيير الاقتصادي والاجتماعي من اجل تحريرهواغنائه. واستعباد الانسان ـ استعباده لاي شيء ـ حتى للمثل العليا ـ مرفوض من اساسه . فالمثل العليا التي تفرض فرضا ليست مثلا عليا . والمثل العليا هي التي تخرج من الذات وتمتلىء بها الذات وتغتني وتعطي . وكثيرا ما ننسى ونحن نصنع العقائد المؤدية الى سعادة الانسان ونرسم التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي تحرر الانسان ، ان من غير الجائز ان نغفل عبر الطريق ان الوسيلة لا يجوز ان تنقلب الى غاية ، وان السبيل الت اردناها سعادة للانسانوتحريرا قد تغدو شقاء واضطهادا. كثيرا ما ننسى مثلا ان التنمية الاقتصادية ليست الا جانبا من الجوانب التي تطرح في البلدان المتخلفة خاصة من اجل تقدمها ، وانها بالتالي لا تملأ سائر الجوانب، وان

الى جوارها اهدافا اخرى ينبغي أن تظل لاصقة بهـا مندمجة معها ، نعني التنمية الاجتماعية والتنمية الثقافية وكل ما من شأنه خلق الانسان بالمعنى الكامل الشامل ، لا الانسان الاقتصادي Homo économicus فحسب . ومرد ذلك كله ان ايماننا بالانسان وباحترامه يقف في معظم الاحيان على شفا هاوية ، وانه في كثير من الاحيان معرض للسقوط والانهيار ، حتى بايدي اولئك الذين يظنون انهم يعملون من اجل الانسان ، بل بايديهم خاصة اكثر من سواهم . ان بداية الوهن في العمل لحضارة الانسان ، ان ينصب اي انسان نفسه حكما وحاكما واحدا ووحيدا على الانسان . انها البدء بانكار معنى الحضارة كحوار بين عقول مستقلة وكلقاء بين نفوس تملك سيادتها ونظرتها وحريتها .

قد يقول قائل ان مثل هذه النظرة تنطلق من منزع يغلب الاغراض الفردية على الاغراض الاجتماعية في التربية . ولن ندخل ههنا في مناقشة هذهالمسألة الابدية، **مسألة الاتجاه الفردي والاتجاه الاجتماعي للتربية** . وجل ما نريد ان نقوله ان الاتجاهين في نظرنا متكاملان وينبغي ان يتكاملا ويتحدا ، والا لم تكن التربية تربية حقة . فالاندماج بالمجتمع والاتحاد مع اهدافه ومطالبه شرط اساسي من شروط نمو الانسان وتفتح فرديته ووجوده الشخصي المستقل . وعن طريق تراث المجتمع وقيم المجتمع واهداف المجتمع يزداد الفرد ارتفاعا وارتقاء في مراتب الانسانية . غير أن التربية التي تقف عند حدود دمج الفرد بمجتمعهوخضوعه له وانقيادهلاتجاهاته، تقصر عن مداها وتضر بالفرد والمجتمع معا . اذ لا بد ان يندمج الفرد بالمجتمع وان يجاوزه في آن واحد ، لا بد ان تكون التربية الاجتماعية في النهاية وسيلة لربطه بالمجتمع ولتحريره منه في الوقت نفسه ، ولا بد ان تؤدي الى أن تكون لديه نظرته الشخصية وحكمه المستقل وافكاره النقدية القادرة على تطوير المجتمع نفسه من جديد . وبدون ذلك لا نرجو للفرد تطورا كما لا نرجو للمجتمع تطورا . ان المجتمع السليم يخلق الاداة التي تعمل على تجاوزه من اجل تطويره وتنميته . والقول الفصل في هذا كله — بوجيز العبارة — **ان التربية لا تكون تربية اذا لم تكن اجتماعية واذا لم يكن الاندماج بالمجتمع اداتها ، كما ان التربية لا تكون تربية اذا كانت اجتماعية لا غير واذا لم تجاوز المجتمع .**

من خلال هذه النظرة نتخلص من **اخطاء النظريات المجموعية** (الفاشية او النازية او الستالينية او سواها) التي تؤله المجتمع وتعتبر أن الدولة قبل الفرد وانها كيان شامل له حياته وروحه التي تسيطر على الافراد ، وانها غاية في ذاتها تحدد نشاط الفرد وعلاقاته وما عليه الا ان يبقى في خدمتها وطوع ارادتها .

ومن خلال هذه النظرة نتخلص ايضا من **اخطاء النظرة الفردية الخالصة** التي تفرط في حرية الفرد على حساب المجموع . **ولا بد في هذا كله — في نظرنا — من الجمع الوثيق بين عمل الفرد وعمل المجموع ، بين التباين والوحدة ، بين الحرية والاهداف المشتركة العامة.**
وتلك هي المهمة الشاقة ، ولكنها مهمة جديرة بأن تقتحم، لان فيها المصير الحقيقي للانسان . ان الاخذ بنظرة مجموعية تخضع كل شيء للمجموع وللدولة امر سهل لا يحتاج الى عناء وجهد ، وان يكن منتهاه قتل المجتمع والفرد في نهاية الامر . وان الاخذ بنظرة فردية مطلقة تقدس الفرد لذاته ولا تدرك ارتباطه العميق بالمجتمع وقيمه ولا تعي أن قيم المجتمع جزء من قيم الفرد ، امر يسير ايضا في ظاهره ، ولكنه يقود الى مجتمع الفوضى ان لم نقل الى مجتمع الغابة . والمهمة الجديرة بالجهد والعرق هي الموقف الاصيل الذي يحقق هذا الارتباط العضوي الطبيعي بين الفرد والمجتمع . ومثل هذه المهمة قمينة بأن تنصب عليها جهود الانسانية ، وان يتجهمصير الانسان شطرها .

(٤) وكنتيجة منطقية للمبدأ السابق لا بد ان نجعل من اهداف التربية **تكوين الروح الجماعية وخلق روح العمل المشترك** . لا بد ان نربي الفرد على التعاون مع اقرانه وعلى تنظيم المشاركة معهم . ومثل هذا المطلب يفرض جهدا تربويا نقوم به منذ الصغر في المدرسة وخارجها . ولا يتسع المجال للحديث عن الوسائل العديدة التي تؤدي الى تكوين روح العمل الجماعي . وحسبنا ان نقول موجزين ان الامر يحتاج الى تغيير جذري في الطرائق المتبعة في مدارسنا . فكل ما فيها يدور نحو تنمية « الانا » بالمعنى الضيق للكلمة أي بمعنى الانانية والدوران حول الذات . ومهمتنا ان نقلب المدرسة من بيئة تعنى بتربية « الانا » بهذا المعنى الضيق الى بيئة تعنى بتربية « النحن » . ووسائل ذلك عديدة منها تنظيم العمل التعاوني واقامة تعاونيات صغيرة ضمن المدرسة. ومنها تدريب الناشئة على الحكم الذاتي ، على أن يحكموا انفسهم بانفسهم ويجعلوا من المدارس جمهوريات ديمقراطية صغيرة . ومنها العناية بالنوادي وبالانتاج المشترك كالمجلات المدرسية او المعارض او غيرها . ومنها تبديل وسائل الثواب والعقاب بحيث تغدو جماعية لا فردية ، وبحيث نقارن الطالب بذاته قبل ان نقرنهبلداته.

وغاية هذا كله ان نعد مواطنين قادرين على العمل المشترك وعلى تحقيق اهداف مشتركة . وليس جديدا ان نقول ان آفة الآفات في مجتمعنا العربي وفي كثير من المجتمعات العجز عن تصريف العمل المشترك وطغيان روح الفردية والانانية وعدم التمرس بانجاز المشروعات الجماعية التي يسهم فيها كل فرد بمقدار . ومن هنا يسود انغلاق الافراد بعضهم على بعض وينقطع الاتصال الحي بين قوى افراد المجتمع وطاقاتهم ونفوسهم . ومن هنا ايضا ضروب من الصراع تؤدي في النهاية الى تحطيم المجتمع ، وابعاده عن الاستقرار وانعدام كيانه المتماسك.

وهل نعلو اذا قلنا بأننا ما نزال نعيش — في كثير من ميادين حياتنا — عيشة الشعراء من اجدادنا الذين كانوا يتخذون الفخر فضيلة والتغني بالنفس والتامل المزاوي لها غاية الغايات ؟ افلا نشهد في تضاعيف حياتنا السياسيه والاجتماعية روح عمرو بن كلثوم يردد :

الا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

افلا نرى في عقولنا اصداء قول الشاعر :

وانا اناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين او القبر

افلا نلمس تلك الروح التي جعلت شاعرنا العربي يقاتل اخاه اذا لم يجد من يقاتله :

واحيانا على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا اخانا

ولسنا بعيدين الى حد كبير عن معاني «المواطنية» التي تقضي بخضوع الفرد لمصلحه المجموع واتباعه للنظام الذي تقره الجماعه ؛ أفلا نجد حتى الان من يعتبر الخضوع للنظام من شيم الضعفاء ، ومخالفه المبادىء العامة شيمة الاقوياء . أفلا نضج في مسامعنا اقوال المتنبي .

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلـه لا يظلـم

اننا احوج ما نكون الى التربية على روح العمل المشترك والبناء المشترك والتعاون ، واتقان الخطة المشتركة، وحسن انجاز المهمات التي تتطلب مشاركة جماعية . ان « الانا » البغيض الذي حدثنا عنه « مونتيني Montaigne » ينبغي ان يصبح بغيضا حقا لدينا . فالانانية تعني الموت، والغيرية هي العطاء وهي الحياة .

(٥) ومن الاهداف التي ينبغي ان تهدينا في معركتنا ، **العمل على تربية روح النضال بشتى صورها ومعانيها** . فالمجتمع العربي مجتمع يستيقظ من غفوة طويلة نسي فيها بلاءه وتمرسه بالشدائد ، وكاد يركن الى حياة الدعة . والمجتمع العربي مطوق بالاعداء في الداخل والخارج ، وعلى رأسهم العدو الصهيوني . ولا بد للتربية ان تخلق لدى هذا المجتمع روح المقاومة والعراك والتحدي . لا بد ان يدرك ان تحقيق الاماني لا يأتي سهوا رهوا ، وان بناء مجتمع متقدم لا يكون بدون النصب والشدائد . لا بد ان يعي أن تاريخ الانسانية هو في النهاية تاريخ تغلب الانسان على مصاعب الطبيعة، تاريخ تحدي الطبيعة وجعلها طيعة امام ارادة الانسان وعزمه.

ان النضال بشتى صوره — في مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة والعلم والفن الحديث ينبغي ان يكون ضالة هذا الجيل الذي خلق في هواء المعركة وسيظل يحيا طويلا ضمن اجوائها . والمجتمع المتخلف لا ينمو الا بنضال ابنائه في سبيل القضاء على تخلفه في شتى المجالات .

اما وسائل تكوين روح النضال هذه فعديدة ، لا مجال للحديث عنها . وحسبنا ان نذكر جانبا منها ، هو الذي يتصل بمعركتنا الكبرى ضد العدو ، نعني **التدرب المستمر المتصل على القتال لدى فتياتنا وفتياننا** ، واعداد جيل يفهم الحرب ويدرك ابعادها ولا يرى فيها شبحا او سحرا لا يفقه منه شيئا ويلوذ منه بالفرار . وواضح ان هذا الهدف متصل بالاهداف السابقة . فنحن لا نستطيع ان ننجح في اعداد جيل متمرس بالنضال مقبل عليه ، الا اذا حلفنا الايمان بالهدف ، ولا نستطيع ان نخلق الايمان بالهدف الا اذا دونا الانسان المستقل واحترمنا انسانيته واقمنا حوارا معه حول الاهداف المشتركه . ولا نصل الى ذلك كله ما لم نتقن في الوقت نفسه اساليب العمل الجماعي المشترك ونعمل جميعا بروح الرجل الواحد ، وننسى رواسب الغرور والادعاء والفخار الاجوف ، ونجعل من نضالنا نضالا من اجل هدف واضح المعالم بين الخطة علمي التخطيط . وهكذا تشتبك الاهداف وتتداخل ويخدم احدها الاخر . ومن غير الجائز ان نأخذها فرادى ، فنفقدها معناها وجدواها .

(٦) وبعد ، أي اهداف نذكر واي اهداف نغفل ؟ لقد رغبنا منذ البدايه في الاقتصار على الاهداف ذات الصلة الوثيقة بالمعركة . غير ان هذه الاهداف نفسها عديدة شتيتة تزدحم في صدر المرء فلا يدري ايها يختار .

ولكن اذا كان لا بد ان نذكر شيئا بين اشياء كثيرة متبقية فلنقل كلمة عابرة عن **مكافحة الامية وتعليم الكبار**. ولقد كتب الشيء الكثير عن هذا الموضوع ولكنه في نظرنا ما يزال بكرا ، كما ان ايماننا باهميته ما يزال دون المستوى اللازم .

ان مكافحة الامية الواسعة الانتشار في بلادنا شرط لازم لعملية التنمية ، وعلى راسها التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ولا يتسع المجال للحديث عن الدراسات العديدة التي بينت بالرقم والاحصاء الفرق الهائل بين نتاج العامل الامي ونتاج العامل المتعلم في اي مجال من المجالات . ولا حاجة إلى التذكر بما كشفت عنه الدراسات في جميع البلدان السائرة في طريق النمو حيث بينت ان العقبة الاساسية في طريق التطوير ، تطوير وسائل الزراعة مثلا او سواها ، هو الانسان ، الانسان الجاهل الذي يتأبى على التغيير والتجديد والتكيف مع المواقف الجديدة ، والذي يؤثر دوما عاداته البالية القديمة . وحسبنا ان نقول **ان التعليم يخلق اولا وقبل كل شيء المرونة والقدرة على التجديد والقابلية للتكيف ، وهذه كلها شروط اساسية في سبيل نجاح التقدم والتحويل الاقتصادي والاجتماعي** . أولم يبين مؤرخو الاقتصاد ان زوال الامية في الدانمارك في أواخر القرن التاسع عشر منذ طور مبكر اكثر من سواها من البلدان الاوروبية (وذلك بفضل انتشار الجامعات الشعبية) هو الذي جعل الفلاح الدانماركي — من دون سواه — يتغلب على أزمة القمح التي عمت اوروبا بعد اكتشاف اميركا ، وهو الذي جعله يهجر زراعة القمح الى عمل اخر هو تربية الحيوانات

— التتمة على الصفحة ٩٩ —

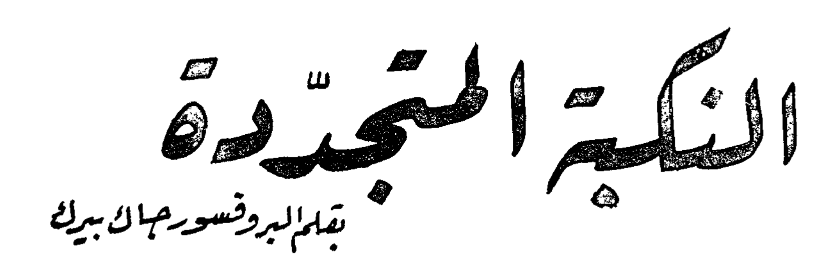
الطرقات الأخيرة

هلا تفتح لي هذا الباب ؟!
وهنت كفي وانا أطرق ، أطرق بابك
انا جئت رحابك استجدي
بعض سكينه
وطمأنينــه
لكن رحابك مغلقة
في وجهي ، غارقة في الصمت
يا رب البيت
مفتوحا كان الباب هنا
والمنزل كان ملاذ الموقر بالاحزان
مفتوحا كان الباب هنا والزيتونه
خضراء ، تسامت فارعة
تحتضن البيت
والزيت يضيء بلا نار
يهدي في الليل خطى الساري
يعطي المسحوق بثقل الارض طمأنينه
ورضي يغمره وسكينه
هل تسمعني يا رب البيت
انا بعد ضياعي في الفلوات
بعيدا عنك اعود اليك
لكن رحابك مغلقة
في وجهي ، غارقة في الصمت
لكن رحابك كاسية
بتراب الموت
ان كنت هنا فافتح لي بابك لا
تحجب وجهك عني
وانظر يتمي وضياعي بين خرائب ـ
عالمي المنهار
وعلى كتفي احزان الارض ـ
واهوال القدر الجبار !

فدوى طوقان

من ديوان « امام الباب المغلق »





النكبة المتجددة

بقلم البروفسور جاك بيرك

كتب رئيس تحرير « الاداب » الى صديقه المستشرق الفرنسي الكبير البروفسور جاك بيرك ، الذي دأب على مناصرة قضايا العرب ، ووقف من قضيتهم الاولى وقفة مشرفة ، ولا سيما في اثناء العدوان ، كتب يعبر له عن تقدير المثقفين العرب لموقفه وفكره الحر المتجرد ، ويطلب منه الادلاء برأيه في نكبتنا الجديدة ، فبعث اليه المستشرق الكبير بهذه المقالة ، مع رسالة يختتمها بقوله : « ليس المطلوب ، حين نكتب في صالح قضية ، ان نقنع انفسنا ، بل المطلوب ان نقنع الخصوم . وهذا لا يتم من غير نقد ذاتي . وتلك هي وجهة نظر المقالة التي ابعث بها اليك » .

وهذه هي ترجمة المقالة :

ان هذه المحنة الجديدة التي تثقل على العالم العربي، وهي الثالثة في عشرين عاما ، تقتضي تعبئة للطاقات وللعقل . ولعل دروب الخلاص لم ترتبط ، كما ترتبط اليوم مثل هذا الارتباط الوثيق ، بالتحليل الذي يترتب على المفكرين العرب ان يكرسوا له كل جهودهم ، والى جانبهم جميع الذين يجهدون ، في العالم ، لاستخلاص حل يقوم على تقدير صحيح للمشكلة .

ان بالامكان مواجهة النزاع العربي الاسرائيلي على ثلاثة مستويات :

اولا ــ بصفته نزاعا تافها شبيها بنزاعات كثيرة تخرب العالم ، ويتدارسه اخصائيو العلوم السياسية وخبراء الحرب ، ان لم يكن تجار المدافع . ووجهة النظر هذه ، التي هي موضوع المساومات الاكثر اثارة للشبهات ، لا تفضي الى شيء . ومن المؤسف ان هذه هي الوجهة التي توقفت عندها ، حتى الان ، منظمة الامم المتحده !

ثانيا ــ مستوى اخر ، اعمق جدا من المستوى الاول ، هو مستوى الصلات الخاصة بين ارض فلسطين واليهود من جهة ، والعرب من جهة اخرى . وهذه الصلات هي نفسها قابلة لان تفسر اما بالرجوع الى الاديان السماوية الثلاثة والى مشاعر التقديس المتصلة بها ، واما بالرجوع الى المواقف التاريخية . ومن المؤكد ان لليهود والعرب مع فلسطين صلات عميقة عكرتها الصهيونية منذ نصف قرن. ولن يعود السلام ، ولن تتحقق امكانات التعايش الا يوم ينتهي هذا التعكير . ان الصهيونية تبدو وكأنها النقل الشاذ للمعطيات الدينية الجوهر الى تطلعات ذات جذر مرتبط بالارض . وهذا صحيح جدا الى حد ان عودة اليهود الفردية والجماعية الى فلسطين لم يسبق لها قط، عبر القرون ، ان وضعت موضع التساؤل او الشك سيادة هذه الارض التي كانت مسلمة ، ولم تطرح مشكلات على اغلبية السكان الذين كانوا عربا . وقد عرفنا ما آل اليه ذلك منذ تصريح بلفور والانتداب البريطاني ..

ثالثا ــ ولكن المستوى الثالث ، الذي يتعلق به المستويان الاولان ، هو الوحيد الذي يتيح مواجهة حاسمة للمشكلة . فحتى لو افترضنا ان الذين يتقابلون في فلسطين هم الهولنديون مثلا والايرانيون ، بدلا من اليهود والعرب ، فان المشكلة ، في جوهرها ، لن تتغير من جراء ذلك . ان هذه القضية لا تختلف في ذاتها عن جميع القضايا التي كان قد طرحها في العالم ، في العهد الامبريالي ، استعمال علاقات القوة وضروب اللامساواة المالية والتكنولوجية بين الشعوب لتوسع بعضها على حساب الاخرى . فاذا اعتبرنا العلاقات الحالية بين اسرائيل والبلاد العربية حالة شبيهة بجميع تلك الحالات التي تواجه فيها الغرب وشعوب آسيا وافريقيا ، في الحقبة المعاصرة ، فان المشكلة تأخذ آنذاك بعدها الحقيقي.

والحال انه اذا ادرك كثير من شعوب العالم الثالث هذا البعد ادراكا صحيحا وعادلا ، سواء اتبعتها في ذلك حكوماتها ام لم تتبعها ، واذا كانت الاشتراكية من جراء ذلك تدعم القضية العربية ، لا كقضية عربية وانما لانها تتصل بالصراع العالمي بين المستغلين والمستذلين وبين الوفرة والفنى ، فان اشد التناقضات والتداخلات تظل قائمة ، وهي تستغل على الفور للابقاء على مواقف القوة . من ذلك مثلا ان اسرائيل تمثل نفسها عن رضى كشعب

صغير تحاصره قوى هائلة تحسده على عمه وعلى نجاحه. والحق ان المؤرخ العادل اذا لم يكن عليه ان يغبن الجهود التي يبذلها الاستعمار الصهيوني لاستثمار البلاد، فان بوسعه ان يدلي بالادعاء نفسه عن استعمار فرنسا للجزائر. ان هذه الجهود، في الحالتين كلتيهما، ما كان لها ان تفضي الى شيء لولا ضغط الاجنبي ولولا مساعدة خارجية هائلة تجيء من جهة واحدة. ثم ان اسرائيل تتحدث كذلك عن الالام التي عاناها اليهود في اوروبا ايام هتلر. والحق ان هذه الالام كانت مريعة، وهي تستحق التعويض من قبل المسؤولين عنها، ولكن هؤلاء المسؤولين لم يكونوا في حال من الاحوال هم العرب. بل العكس الان هو الصحيح: فان العرب في فلسطين، في عام ١٩٦٧ كما في عام ١٩٤٨، هم الذين احتلت بلادهم، وانتزعت منهم اراضيهم واموالهم، ونفوا. وقد اشرت من قبل الى الخلط المؤذي الذي يكمن في تحويل مشاعر دينية تستحق الاحترام او عواطف حنين تجاه ارض موعودة الى مطامع توسعية والى سياسة قوة، باسم الصهيونية.

ان خلطا من هذا النوع هو الذي دفع قسما من المثقفين الفرنسيين، على رأسهم سارتر، الى الاعتقاد بان من واجبهم، في بدء النزاع، ان يقدموا دعما غير مشروط لاسرائيل، هم الذين مثلوا دورا واعيا في حرب الجزائر. ولكن قسما اخر من مثقفينا كانوا من حسن الحظ اكثر تبصرا وادراكا. فقد ذهبوا، وهم الذين يرفضون الامر الواقع لعام ١٩٤٨، الى انه لن يكون ثمة حل، ولو باحتلال الارض، الا لقاء تسوية جذرية، وان هذه التسوية لا يمكن ان تتم الا شريطة الاعتراف المسبق ببعض المبادىء. واحد هذه المبادىء دفع التعويضات المتوجبة للمنفيين عام ١٩٤٨، وهو اليوم اكثر الحاحا واقلاقا بالنسبة لمنفيي ١٩٦٧. وثمة مبدأ اخر هو مبدأ وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين. فان اي سلام لن يكون ممكنا ما ظلت اسرائيل تعرض نفسها كوطن يستقبل جميع عناصر اليهودية العالمية، وما بقيت كذلك رأس جسر للمصالح العالمية على الشاطىء الاسيوي. فليس بوسع اسرائيل اذن ان تتطلب ان يقبلها جيرانها على انها بلد شبيه بسائر البلاد، ما دامت تقوم على هذا التناقض المزدوج.

ولكن اذا كان هذا هو تناقض اسرائيل الداخلي، وايا ما كانت ضروب التواطؤ او اشكال العطف التي افادت منها طوال تاريخها القصير، ولا سيما في النزاع الاخير، فان على العرب ان يقتنعوا بان مصير الصراع وحل المشكلة يتوقفان على ما يفعلونه هم انفسهم. ولا يعنيني هنا ان اقترح عليهم اعمالا ينبغي على أي حال ان تكون مستوحاة من تحليل صحيح للاوضاع، وانما يهمني ان الفت انتباههم الى ضرورة حل تناقضاتهم الخاصة. لقد كشفت الاحداث الاخيرة الوانا من الضعف كان المفروض بالمحن السابقة ان تحول دون عودتها. لقد تم الخلط، مرة اخرى، بين الواقع والحلم. ولقد فكروا بان عدالة قضية ما تكفي لكي تفرض بذاتها نجاح هذه القضية، في حين ان العدالة والظلم لا يمكن، في عالم التاريخ، ان يفرضا نفسهما بغير اللجوء الى سلاح الواقع. ولقد تكلموا بلغتهم الخاصة، من غير اهتمام بأن يفهم هذه اللغة الاخرون. وهكذا تركوا الميدان خاليا لدعايات الخصم. لقد استهانوا بصعوبة المشكلة، ومع ذلك فان هذه العالمية هي التي تشكل، في رايي، الميزة الرئيسية للقضية العربية، وهي التي ستجعلها تنتصر في اخر المطاف.

ان ثورة مشروعة ضد الوان الظلم التي مورست، وان ارتدادا مشروعا على الذات قد قادا عددا كبيرا من العرب الى اهمال هذا الفهم للشعوب الاخرى التي كانت قد انتصرت لهم، في عهودهم المجيده، على قيصر وكسرى. والحال انه اذا كان صحيحا ان ليس ثمه « تعصير » ممكن الا ان يكون قائما على « اصالة » (١)، فان هذه الاصالة التي تجعلك تجد حقيقة نفسك تجعلك تعترف كذلك بحقيقة العالم الذي يعيش حولك. ان المرء لا يستطيع اليوم ان يكون ذاته برغم الاخرين، بل هو ذاته بالاخرين. والعكس كذلك صحيح.

ربما بدا خيالا واهما ربط منظورات للعمل، تتطلبها نكبة من اشد النكبات الحاحا، بمراجعات اساسية. ولكن اليس ذلك هو الشرط الاول لمواجهه ثورية لا والحق انه ان كان ثمة ما تعلمه كاتب هذه الاسطر من اصدقائه العرب، فهو انه ليس ثمة من عمل صحيح لا يرتكز على « اصول » (٢).

واذن، فان العرب، بفضل نقد لذواتهم لا هوادة فيه، وبفضل امانة متزايدة لانفسهم وللقيم الكونية في وقت واحد، سوف يستطيعون ان يجدوا العلاج لنكبتهم التي لا يستحقونها.

جاك بيرك

باريس

(١) و (٢) وردتا بالنص العربي في الاصل الفرنسي.

نحو دولة عربية واحدة

بقلم الدكتور حسن صعب

اظهرت ثلاث حروب خاضتها الدول العربية مع اسرائيل ما بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، اي في اقل من ربع قرن ، بأن استراتيجية النصر الاسرائيلية تقوم على التفرد بكل دولة عربية على حدة ، سواء اكان ذلك في الميدان العسكري اثناء القتال ، او في الميدان الدبلوماسي بعد وقف القتال .

ولعل الملاحظ لسير القتال اثناء عام ١٩٤٨ يذكر ان الفترة الاولى منه ، التي هاجمت فيها الدول العربية متضامنة ولو بعض التضامن ، كانت فترة تراجع للقوات الاسرائيلية . وان تقدم هذه القوات جاء في الفترة الثانية ، التي استطاعت فيها اسرائيل ان تهاجم فيها جبهة عربية بعد الاخرى .

وتكرر الامر عام ١٩٥٦ حين انصب العدوان الثلاثي على مصر وحدها ، على امل قلب نظام الحكم فيها ،وعزلها عزلا نهائيا عن الدول العربية . وظهرت خطة الاستفراد في الحرب الاخيرة في الضربة الحاسمة ، التي وجهت اولا لطيران الجمهورية العربية المتحدة ، وفي حشد اكبر قوة من الجيش الاسرائيلي في غزة وسيناء للقضاء اولا على الجيش المصري قضاء تاما ، والانصباب بعد ذلك على الجبهة الاردنية ، فالجبهة السورية ، سعيا وراء التفرد بكل جيش عربي على حدة وابادة جميع قواته بلا شفقة ولا رحمة .

وقد حققت استراتيجية الاستفراد هذه النتائج المنشودة منها ، وحان للعرب بعد ان حملت لهم ثلاث هزائم في فترة اقل من حياة جيل واحد ان يستخلصوا منها **سلوكيا وعمليا** لا **مبدئيا ونظريا** او **عاطفيا** العبر الواجبة . ولعل هذه العبر تصبح اكثر وضوحا اذا ما بينا ان هذا الاستفراد الاسرائيلي للدول العربية هو جزء لا يتجزأ من سياسة اسرائيلية مخططة في سبيل الانتصار على العرب والسيطرة عليهم . ويمكننا الاستشهاد على هذه السياسة بجميع افعال اسرائيل واقوال زعمائها وبمراجع كثيرة نكتفي بأن نذكر منها هنا الكتيب الذي نشر فيه الكاتب الهندي كارانجيا الخطة الاستراتيجية للجيش الاسرائيلي لعام ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ، والذي يعرف تحت عنوان : « خنجر اسرائيل » . وقد جاء في ص ٤٦ من هذا الكتيب ما يلي :

« **لا تستطيع الدول العربية ان تجابه اسرائيل بمقاومة كبرى ، الا اذا كانت متحدة** ، وطالما ليس ثمة قطر عربي اقوى من اسرائيل وحده ، وبالتالي طالما لا يستطيع اي قطر عربي أن يشن بمفرده حربا على اسرائيل ، **فان الوحدة العربية في الحرب هي جوهرية** ..

ولهذا يرتدي اعظم الاهمية بالنسبة لنجاح عملياتنا الحربية ذلك العمل السياسي التمهيدي الذي يجب ان نقوم به في الدول العربية بمساعدة الدول الغربية . **ان هذا العمل السياسي التمهيدي الذي يجب ان نقوم به في الاقطار العربية يرمي الى زرع بذور الشقاق بين الدول العربية وتقوية القوى المعادية لمصر في الاقطار العربية** » .

ان الوحدة العربية جوهرية في وقت الحرب ، ولكنها لا تقوم اثناء الحرب الا اذا كانت موجودة في وقت السلم ، ولذلك فان العرب لن يستطيعوا الانتصار على اسرائيل ، الا اذا تحققت الوحدة العربية في زمني السلم والحرب ، **اي ان الاختيار الحقيقي الذي يواجهه العرب الان هو اما الدولة العربية الواحدة واما اسرائيل.**

ونحن هنا امام مفهوم جديد للوحدة العربية من حيث غاية هذه الوحدة فنحن منذ بداية القرن التاسع عشر نتحدث عن الوحدة العربية كوسيلة لمقاومة التعسف العثماني او لتحقيق نهضة عربية او لبعث المجد العربي الغابر او لمجابهة الاستعمار الغربي ، ولكننا نحتاجها اليوم كضرورة استراتيجية للانتصار على اسرائيل ، اي للبقاء كأمة ذات حق في الحياة ، او الزوال تجاه خطر الابادة من قبل اسرائيل والاستعمار الذي يظاهرها .

ونحن ايضا تجاه مفهوم جديد للوحدة العربية من حيث شكل هذه الوحدة . فالتضامن العربي داخل الجامعة العربية ، والضمان الجماعي العربي ، والتعاون الاقتصادي والثقافي والتآزر في الدعاية الخارجية ، كل هذه اشكال للوحدة افلست في ثلاث حروب خضناها مع اسرائيل ، لانها لم تكن اكثر من تغطية خادعة لحقيقة التجزئة الغالبة علينا . وكل العواطف التي أطلقناها ، والمواقف المشتركة التي اتخذناها في الاسابيع الثلاثة التي سبقت الحرب

وفي اسبوع الحرب لا تعوض عن التجزئة الفعلية التي ما نزال نعيشها منذ عام ١٩٤٨ ، والتي ما تزال سلاح اسرائيل الرئيسي لبلوغ اهدافها الدبلوماسية بعد ان حققت انتصاراتها العسكرية . ويكفي ان نذكر هنا ان رئيس حكومة اسرائيل يرسل التصريح تلو الاخر ، بانه يعرف الدولة العربية الثانية والثالثة التي ستعقد الصلح مع اسرائيل ، ولكنه ما يزال يفتش عن الدولة الاولى ، اي تلك التي ستفتح طريق تصالح الدول العربية مع اسرائيل واحدة بعد الاخرى . انـه الامل بنجاح الاستفراد الدبلوماسي بعد ان نجح الاستفراد العسكري .

ويعني هذا ان علينا ان نتجاوز الوحدة التضامنية الخادعة الى الوحدة التلاحمية الواثقة ، التي ينبثق منها وجود عربي جديد ، وتشرق منها دولة عربية واحدة ذات دستور واحد ، ومواطنية واحدة ، وسياسة خارجية واحدة ، وتمثيل دبلوماسي واحد ، وجيش عربي واحد، وخطة دفاعية واحدة ، واقتصاد عربي واحد ، وخطة عربية اقتصادية تصنيعية واحدة ، فيكون لها بذلك خطة استراتيجية واحدة تجاه اسرائيل ، تطبق في السلم والحرب .

ان هذه الدولة العربية الموحدة دستوريا وخارجيا ودفاعيا واقتصاديا هي وحدها التي تستطيع ان تحول استراتيجية الهزيمة التي فرضتها علينا التجزئة في ثلاث حروب الى استراتيجية النصر . وهي وحدها التي تستطيع أن تقلب استراتيجية انتصار الاسرائيلية الى استراتيجية اندحار . بل انها بما ستمثل من وجود عربي جديد في الميدانين الاقليمي والدولي قد تجعل الحرب بيننا وبين اسرائيل غير ذات موضوع ، لانها تكفل لنا بلوغ اهدافنا التحررية في فلسطين بدون قتال .

ونحن ندرك تمام الادراك الصعوبات التي تقوم الان في وجه هذه الوحدة ، ونقدر حق التقدير انها لا يمكن ان تشمل ولا يجوز لها ان تشمل جميع دول الجامعة ، لما بين هذه الدول من اختلافات في الانظمة والمستويات، ولما بينها من منافسات زعامية . **ولكننا ندرك ان بامكان ان تنطلق على الفور من اربع دول عربية هي مصر والاردن وسوريا والعراق** . وهي الدول التي تحملت وستظل تتحمل العبء الاكبر في حروبنا مع اسرائيل . ولن تستطيع هذه الدول ان تتحمل هذا العبء تحملا **انتصاريا** الا اذا اصبحت دولة واحدة . واذا لم تحقق هذه الدول الوحدة فورا، فانها تسير وتقود معها سائر الدول العربية، لا في طريق الانتصار بل في طريق الانتحار .

ويتطلب هذا الامر من القيادات السياسية والعسكرية والاقتصادية في هذه الدول الاربع ان تستبدل مرقف التربص الذي اتخذته تجاه بعضها البعض بموقف الثقة . ولعل ما حل بنا في هذه النكسة الاخيرة كاف لاقناعنا بأن اسرائيل تجاوزت الان مرحلة اغتصاب فلسطين الى مرحلة السيطره على المقدرات السياسية والاقتصادية والدفاعية للمشرق العربي ، ومرحلة اعادة تنظيم خريطة الشرق الاوسط كما تحب وتهوى . ويعني هذا انه اذا لم تنشأ الدولة العربية الواحدة ، فلن تكون هناك قيادات عربية في المشرق العربي ، بل ستكون هناك قيادة اسرائيلية تظاهرها الصهيونية الدولية ، وتؤيدها القوى الاستعمارية ، وتكون هناك زعامات عربية تأتمر بأمرها .

ويتطلب هذا ايضا من دول الجامعة التي لا تريد الوحدة ان لا تعوق عمل دول الجامعة التي تريدها وتستطيع تحقيقها . ولا يضير العمل العربي ان يجري على مستويين ، مستوى التضامن بين الدول التي لا تقبل الوحدة ، ومستوى الوحدة بين الدول التي تستطيع ان تتجاوز التضامن الى ما هو اقوى واوثق واعمق منه. ولا بد هنا ايضا من درجة اوفى من الثقة بين قادة جميع الدول العربية ، لتعتبر الوحدة لخير الجميع ، لا كخير للبعض وكشر للبعض الاخر .

لقد كان علي ان اكتب لهذا العدد مقالة عن « نهج دبلوماسي عربي جديد » . واعتقد انني لبيت الطلب . لان النهج الدبلوماسي الجديد متوقف على نهج وجودي جديد . فالنهج الدبلوماسي هو اداة للنهج الوجودي ، ولا يمكن ان يتغير الاول الا اذا تغير الثاني . ولذلك فضلت تناول الاساس على تناول الفرع ، فلنبادر فورا لتغيير الاساس ، ليأتي التغيير الفرعي في الحقل الدبلوماسي وغيره نتيجة حتمية للتغيير الاساسي .

حسن صعب

الوحدة : الدرس الأول والدرس الأخير !

بقلم أحمد عثمان

— ١ —

الدرس الاول والدرس الاخير الذي يلح على الانسان العربي — حين يقتلع ذاته من لجج هذه المأساة الغامرة ويرتفع بذاته عن الالم الى الصبر ، وعن العبرة الى الاعتبار ، وعن الصور الرهيبة للواقع الذي ينزف الدم ويغص بالجثث ويطارد العرب نحو الصحراء ، الى الصورة البهيجة للمستقبل الفرح الذي لا بد منه — الدرس الاول والاخير الذي يتراءى له على اي نحو اتجه ، وفي اي سبيل سار ، وايا كان المستوى الفكري الذي يعيش فيه هو الوحدة : الوحدة كلها ، لا قدر منها ولا شكل من اشكالها ، الوحدة بكل ما تعنيه ، وما تصل اليه وما تملك ان تتمثله ... لانها قدره الذي يستطيع ان يغالب به كل قدر مصنوع .. قدره الالهي والانساني في آن واحد ، على حين لا تخرج الاقدار الاخرى التي يغالبها عن ان تكون نوعا من الاصطناع او التمويه .

— ٢ —

ان هذا الدرس لا يتحدث عنه في هذه الايام التي رافقت اسبوع الآلام « ٥ — ١٢ حزيران » هؤلاء الذين يبدون متميزين او كالمتميزين .. لا يتحدث عنه هؤلاء الذين يجلسون على الكراسي المريحة . دوائر الدولة او قاعات الجامعة او غرف الادارات والمؤسسات ، وانما كان يتحدث به ، — حديث الحرب او حديث النداء — كل انسان عربي .. من اولئك الذين كانت ايديهم على الزناد في الجبهة ، وآذانهم الى « الترانزستور » يستمعون فلا يكادون يصدقون .. من اولئك الذين كانوا يرقصون رقصة الشهادة في لهب المعركة ثم يودعون دنياهم الى اخراهم .. كل اولئك الذين كانوا يتيهون في الجبال والبراري وقد تورمت اقدامهم وزرعوا الطريق بين مواقعهم القديمة ومواقعهم الجديدة دماء من دماء قلوبهم ..

ان هذا الدرس لم يكن يتحدث به هؤلاء الذين يتحلون بالمعرفة ، وانما كان يتحدث به اولئك الذين نعتز بهم من ذوي الحس السليم والقلب الطاهر والنفس المؤمنة التي لم تفسدها عقد الافكار والانظار والحزبيات والمصالح .

لم يتحدث به الكبار والمجربون والذين عاشوا مأساة ١٩٤٨ السابقة وانما تحدث به ، في براءة وعفوية وصدق ، هؤلاء الذين في سن براعم الورد .. سمعته من الصغيرة التي لا تكاد تدرك تسأل اباها : وماذا عن هذه الجبهة ، وماذا عن تلك .. ماذا فعل اولئك ، وماذا فعل هؤلاء ؟. وكانت تصوغه سؤالا ساذجا حينا وسؤالا منكرا حينا اخر : اهؤلاء ، يا بابا ، معنا ؟ فعلوا فعلنا ؟.. دخلوا المعركة ؟ وصلوا اليها ؟.. وكان يقوله الصغير الفتى في ختام دراسته الابتدائية او قريبا منها حين ينشر عينيه على خريطة الوطن العربي المثبتة في حائط الغرفة في كل الصيغ التي كانت تتيحها له الاخبار والاحداث ويتيحها له القلق والتساؤل ، ويبعث عليها الحس السليم المستقيم .

لم يتحدث به الكبار القعدة الذين رمت بهم شيخوختهم في احضان البكاء لا يملكون غيره .. ولا القواعد اللواتي كن يغالبن الرعب وعيونهن الى السماء وآذانهن الى اجهزة الاستماع .. وانما تحدث به العامل العائد من مصنعه حين كان يعود ، والذاهب الى عمله حين يذهب . كانوا جميعا يقيسون بالاقلام والمساخر وعقد الاصابع والسنتمترات المسافة بين طولكرم والساحل ، وبين رام الله وتل ابيب ، وبين طرف قطاع غزة وشرم الشيخ ويسألون منذ الساعات الاولى كيف لا تقترب المعركة من نهايتها ؟.. أهي بعيدة عن هذه النهاية ؟.. وما دروا جميعا ان عنصرا اساسيا في المعركة كان لا بد له ان يكون ، ولكنه لم يتوفر على النحو الذي كان يجب ان يتوفر ..

— ٣ —

هذا الدرس ليس جديدا ولا محدثا .. ليس بدعا من هذا البدع الكثير الذي يملأون به الذهن العربي على حاجته اليه حينا وعلى غير حاجته اليه في اغلب الاحايين .. ليس عصارة من عصارات هذا الفكر الحديث المجلوب يحاول ، بطريقة واخرى ، ان يطمس صفاء الذهن العربي او يحول به عن محاوره الاساسية الى محاور موهومة .. ويمضي به ، احيانا ، في المتاهات .. انه ليس معادلة عويصة لا يقدر عليها الا الذين تمتلىء عقولهم باسماء الكتب والمفكرين والمذاهب ، ويميزون في ادراج مكاتبهم بين الالوان والاتجاهات .. ليس كشفا من هذه الكشوف التي تتصل باسرار الطبيعة او خفايا الحياة .. انه ليس شيئا من ذلك ابدا .. وانما هو هذه البدهية الاولى التي ملأت الوجود العربي دائما ، على مراحل الحياة كلها ، وانغمست في الضمير العربي السليم على مدى العصور

كلها ، وكانت تجري من الحياة العربية مجرى النفس من الكائن الحي .. حقيقة ليس قبلها في الوجود الفعلي والوجود الذهني ، وليس بعدها .. لانها الغلاف الحيوي الذي تنشأ ، ويجب ان تنشأ ، في داخله كل الحقائق الاخرى .. ودرس من هذه الدروس الاولى التي تتقدم ، او يجب ان تتقدم ، التفكير العربي ، لانها جوهر الوجود العربي ، والتي يجب ان تحتاط الفكر العربي لانها وعاء التفكير العربي ، والتي يجب ان تتفاعل مع كل جزيئة من جزئيات هذا التفكير وان تصبغه لانها شرط سلامته ومادة صبغه .

ـ ٤ ـ

ولم يكن هذا الدرس آنيا ، وما كان له ان يرتبط بآن .. انه ليس علاج الحياة العربية الحاضرة ، ولا دواء النكسة الماثلة ، ولا البلسم الذي يلقي على جرح اسبوع الاحزان .. ولكنه الدرس الذي يرافق سير الحياة العربية بالعرب .. لا يرافقها فليست هذه هي الكلمة التي اريد ان اقولها ، وانما يصوغها .. يخلقها خلقا سويا حين يكون فيها ، وتكون خلقا مشوها حين يغيب عنها .. وعلى قدر ما يكون من تمثله فيها يكون تحقيقها لخيرها واقترابها من غاياتها .. وما احسب ان حقيقة اخرى تصدق ، في نطاق الفكر وفي نطاق الواقع على السواء ، كما تصدق هذه الحقيقة، وتصدق في الماضي البعيد والماضي القريب كما تصدق في الحاضر الماثل والمستقبل المأمول .. وتصدق في أحداث المشرق العربي كما تصدق في احداث المغرب العربي .. هذه الحقيقة هي الارتباط بين المجد العربي وبين الوحدة العربية .

ـ ٥ ـ

ان هذا الدرس البدهي يجب ان لا يكون شعارا .. ان وضعه موضع الشعارات في القول والقذف به الى غياهب العدم في التطبيق ــ ان التقرب به الى نفوس الجماهير والتباعد به عن دنيا الواقع ، الاحتماء وراءه في كل مرة تكون فيها الضربة قريبة او كالقريبة والتخلي عنه حين يرتفع الشبح المصلت ــ الحديث عنه في اغاني الاذاعة تبعاً لآنية التفكير او مصالح الساعة الطارئة وسحقه في غير ذلك ــ بان استخدامه مخدرا للجماهير او وسيلة من وسائل الالهاء او حجة نظرية او جوازا من جوازات المرور .. ان ذلك كله كان جريمة من اضخم الجرائم التي يرتكبها العرب في حق انفسهم .. ويخربون بيوتهم بأيديهم .. انه الحاد فكري ، وجريمة حياتية ، ووأد للمستقبل العربي .

ـ ٦ ـ

هذا الدرس يجب ان يخرج من منطقة ان يكون شعارا او وسيلة الى منطق ان يكون منطلقا وان يكون واقعا .. آن له ذلك لا في حساب الحقيقة العربية فهو من الحقيقة العربية نواتها وصيفها وجوهرها .. بل في حساب العمل العربي الذي يضل الطريق بين حين واخر كلما ضل عن هذه الحقيقة او غفل عنها .

ان ايام اسبوع الاحزان هذه يجبان تحرق او يجب ان تكون قد احرقت كل ما كان يحيط بهذه الوحدة من اشواك وعراقيل على الصعيد النفسي وعلى الصعيد المادي ، لا في نطاق الجماهير البريئة بل في نطاق الجماعات والاحزاب والهيئات المسؤولة .

أ ــ فاما الاشواك التي كانت كالابر المسمومة على الصعيد النفسي للاحزاب والحكومات والعروش فقد آن لها ان تحصد وان تقتلع جذورها .. ان الذين بكروا ــ جميعا أيا كانوا في ايام الاحزان ، في اواسطها او اواخرها، جديرون ان تترك هذه الدموع قرحةعلى وجوههم كقرحة قنابل « النابالم » على وجوه الجنود العرب .

اما الذين استعصوا على البكاء فجديرون ان تفقأ الدموع التي اختزنوها : كبرا او تكبرا ، تساميا او تجبرا ، استعصاء او تبلدا ــ ان تفقأ بياض اعينهم ، حتى يظل اولئك وهؤلاء يذكرون الام الجماهير ساعة يناقشون في الصيغ والعبارات ويختلفون في الازمنة والامكنة .. وحتى يعرفوا معرفة مطلقة ، مطلقة في الزمان من الازل الى الابد ، ومطلقة في المكان من حبات الرمل المنجرفة مع الموج على شاطىء الدار البيضاء واغادير ، الى حبات الرمل على شاطىء الخليج ، ان وجودهم كله ــ في غير الوحدة ، وجود كاذب ، أو خاطىء ، وانه ما لم يكن بالعمل للوحدة وبالوحدة فهو وجود تائه او منهار .. وانه ليس هنالك عاصم من امر الاستعمار الآثم الا هذه الوحدة .

ان هؤلاء الذين رأوا الموت يحصد مواكب الشباب العربي في كل جبهة جديرون ان يذكروا ان الموت قريب منهم .. ان لم يكن بأيدي اعدائهم فهو بأيدي شعوبهم .. ولذلك فان كل تضحية اخرى في سبيل الوحدة انما هي لمصالحهم قبل ان تكون استنقاذاً لكراماتهم .

ب ـ واما الاشواك والعقبات على الصعيد المادي .. تلك التي كان يتحدث بهـا المغرورون والمخدوعـون ، المضللون والمضللون على السواء في اعقاب نكسة الوحـدة « ايلول ١٩٦١ » واولئـك الذيـن اشبعونـا الى حـد الاكتظاظ والقيء احاديث عن الصعوبات والعقبات، والذين تجلببوا بالعقل ، كذبا او غفلـة ، فحدثونا عـن الاخطاء والتوجيهات .. والذين نفضوا كـل عقولهـم ليرصدوا الفروق بيـن المستويات الاقتصـادية والفكـرية و .. وليتحدثوا عن الاعمال التمهيدية التـي يجب ان تسبـق الوحدة ، عن تنسيق المصالح ، رعاية المصالح المحلية ، عن الاف الامتار من الاقمشة اين تباع ، عـن اسعار الجنيه والليرة والدينار كيف يمكن ان تتناسق .. عن الاف من المساحات ـ لا تعدل عشر الذي ضاع اليوم ـ هـل تزرع قمحا مثلا ام ذرة ام قطنا ؟ عن عشرات مـن الناس جاءوا من قطر الى قطر فأخلوا بالتوازن .. عن هذه او تلك مـن القضايا الجزئية التي ليست شيئا في حياة الشعوب .. الى هؤلاء واولئك فليذكروا اليوم مـا كانوا يقولون .. وليفتنوا في ترتيب قوائم الربح والخسارة ، وليتحدثـوا ان استطاعوا عن الكرامة او عن التوازن ، وعـن الفروق النفسية ، وعن الموظف الذي جاء من هنا ولم يذهب بديل له من هناك .. ليتحدثوا عن الحزب الذي قبل ان يذوب والحزب الذي لم يقبل .. الذي تظاهر والذي لم يتظاهر .. وعن المؤسسة التي قامت مبتدئة مـن الاعلى ، مـن القيادة او التي قامت مبتدئة من القاعدة .. ليتحدثوا عن ذلك على انه انحراف كبير لا بـد من تجاوزه في هـذه المرحلة .

لم يعد اذن على الصعيد المادي اية مجالات لحساب وتحفظات .. لان الانسان العاقل لا يضحي بالبعير ومـا يحمله من اجل ان يحتفظ بالقشة العالقة في ذنب البعير .

ـ ٧ ـ

درس الوحدة هذا ليس في حاجة اذن الى دراسات من مثل هذا اللون .. وهو كذلك ليس فـي حاجة الـى برامج ومخططات تقنية قبل ان تحققه ، وتقضي عليه قبل ان تنشئه .. ان القوائم الطويلة من المصطلحات يجب ان تزول ، ان تحرق في لهب مدفع متفجر من مدافعنا التي تركت في الجبهات .. ان الاف الجنود الذيـن كانـوا يحطمون « الترانزستور » بحجارة ارض الوطن في ساعات المعارك كانوا يبصقون على كل هذه المصطلحات والقوائم : الدراسات ، والتمهيدات ، والوحد ةالمنشودة ، والوحـدة المرتقبة ، والوحدة الكبرى ، والوحدة الصغرى ، والوحدة المدروسة ، والمرحلية ، والتدرجية .. كانـوا يلعنـون التعقلية ، والمصلحية ، والبيئية ، والاقليمية .. كانوا من اعماقهم يشتمون الذين يتحدثون عن كل هذه الاشياء على سبيل التثبيط والتفتيت .. لانهـم راوا ـ فـي لهب المعركة ـ ان كل الفروق كانت فروقا كاذبة .. كل المراحل كانت مراحل اضعاف .. كل التدرج كان تدرجا كاذبا لم يغير الوضع عن محوره الاساسي .. ان حـرارة اللهب اذابت كل هذه الاشياء في اعينهم وفـي اعيـن الناس وراءهم .. وان الذي تم في خلال اسبوع الاحزان يجب ان يظل هو المسيطر بعد ذلك في اسابيع الوقفة الجديدة.

ـ ٨ ـ

ان هذا الدرس ، درس الوحدة ، يجب ان يكـون هو وحده هو الذي يسمع ، وهو وحده الذي يرى ، وهو وحده الذي يعيش وهو وحده الذي يبقى .. انه يجب ان يكون كذلك مقياس كل تفكير ، ومقياس كل عمل ، وميزان كل سلوك .. ان مدى ما يكون من الانصياع له ، وتطبيقه، والنفاذ به الى اعماق الواقع العربي، هو الذي يهم جماهير العرب .وهو الذي يملؤها .

ولن تخدع الجماهير بما دون ذلك من مظاهر والوان وتراتيب .. ولن تخدر « بتعاطي » التمثيـل السياسي وتبادل السفراء ، وتناقل الرسائل الشفوية والتحريرية ، ومؤتمرات الصحافة ، واحاديث الاذاعة ، وتزاور الوفود وقفزات الرؤساء من بلد الى بلد ومن عاصمة الى عاصمة والبرقيات المتبادلة في اعقاب هذه القفزات من الارض او من الجو ، ولا بالمؤتمرات والمهرجانات وفـرق التمثيـل الشعبي والغنائي ، لان هذه كلها قشور لا بد لها من حقيقة اصيلة قبلها .

ـ ٩ ـ

ان هذا الدرس الذي تستخلصه الجماهير مـرة اخرى ، هو الذي تهمس به حين لا تستطيع الحديث عنه، وتجأر به كلما وجدت الى الجأر السبيل .. انه ليس اثرا من اثار هذا الغليان العاطفي ، وليس هذا الحشد الـذي يكثرون من الاشارة اليه .. فنحن يجب ان نكون ابعد مـا نكون من الحشد الذي لا يلبث ان يتفرق ، والجمع الـذي لا يلبث ان يتبدد ، والعاطفة التي لا تلبث ان تنسى .. ان هذا الدرس ينشد الحشد في عمل منظم ، والجمع فـي غاية موحدة ، والتذكر الدائب الذي لا ينسى الجـرح ولا توبة الجرح ، ولا تغيب عنه جزئية صغيرة مـن جزئيات المأساة حتى يظل دائما منطلقه منها .

ان هذا الدرس ليس امنية ، ولا تخيلا ، ولا مثـلا اعلى .. ولكنه وجود ، وواقع .. وليس وراءه ولا قبلـه ولا يوازيه وجود اخر .

انه وحده هو الذي يحـول بيننا وبيـن ان نعيش مقوسي الظهر منحنين على الخنجر الذي في صدورنا .. وحده الذي ينتزع هذا الخنجر المغموس ويرد الينا وقفتنا الكريمة .. يعيد الينا استواءنا ويطلق قوانا نحو الهدف.

احمد عثمان

الى شاعرة عربية

يا صاحبة العينين الطيبتين
والشعر المتقع المحزون الشطرين
والايام الخزفية في قلب الريح الغضبى
والصوت المملوء الاخضر
بزهور الليمون
بغصون الزيتون
ببقايا شيء ليس يهون
بسنابل حزن في الهدبين
بنجوم بعد نجوم مالت في الخدين
كسرت في الخدين
.. كيف الكلمات تجيء اليك ؟ واين

✱✱✱

من ازمان يا أخت النكبه
كانت تدعونا مائدتك
فنمد الايدي نحو الدمع النيىء
ونصيب من الآلام الحبة بعد الحبه
ومن الزقوم النابت في إقصى القلب
نتقاسم خبز الغضبه
ومن الكلمات الرائقة الخجلى
نتحسس جسم الغربه
والآن نمد اليك الكفين
ونمد اليك مع الهدب الدمعين !

✱✱✱

قولي أشياء تبكينا في هذا العصر القائظ
في هذى الايام المثقوبه
فلقد أصبحنا جثثا .. اموات
غصت بالقتلى البيارات
شربت دمنا من بعد جفاف كل الصحراوات
وغدا تعطينا .. يا لعطاء السنوات ؟
فهنا حقل لا يعطي الا الاعين
وهنا كثبان لا تعطي الا الأرجل
وهنا أوراق في طول الآهات
وهنا ثمر ملفوف مثل الهامات
.. فابكي موتانا بالصوت الواحد
وابكي احياء الموتى بالصوتين
ابكيهم .. بالحزنين !!

✱✱✱

من أيام جاءتني منك رساله
فيها أشياء عن بيت مسحور
حرسته أزهار في جنب السور
وغناء من عصفور
وفؤاد في « نابلس » مكسور !
فيها شيء عن ديوان قادم
سموه « امام الباب المغلق »
فيها شيء محزون مطرق !
.. يا خوفي ان حفر البيت كخندق
ان غطى باللون الازرق
ان حول انسان ما .. في يوم ما
تلك الكلمات لفندق !!

.....

ما عنوانك يا أختاه ؟
ما عنوان العربي التائه ؟
في هذا العصر المهزول الشائه
في أرض شقت في الماضي نصفين
والآن يضيع النصف الباقي من بين الجفنين

.....

ويدور غراب البين
ويحط غراب البين !!

القاهرة

عبده بدوي

طريقنا... الى «تغيير الانسان العربي»!

بقلم حسين مروّة

التجربة العربية الجديدة في مواجهة التحالف العدواني الطبيعي للامبريالية والصهيونية العالمية ووليدهما اسرائيل، كانت تجربة عنيفة عميقة قاسية لم تقتصر آثارها في حياتنا القومية على كونها فتحت جراح المأساة التي اثخنت بها الامة العربية عام ١٩٤٨، أو كونها زادت هذه الجراح نزفا وايلاما وعمقا، بل جاوزت ذلك الى كونها أحدثت بعض الاهتزاز في كثير من القيم والمفهومات والمناهج الفكرية وغير الفكرية التي كانت، قبل الخامس من حزيران الماضي، تؤلف عددا من المنطلقات الشائعة عند الكثيرين منا في فهم قضايانا العربية الراهنة، وفي تحليل الاحداث المتصلة بها، وفي تحديد المواقف الايجابية او السلبية حيالها..

لقد فتحت هذه التجربة الدامية أبوابا عريضة للشك أو التشكيك بتلك القيم والمفهومات والمناهج، ولاعادة النظر بها في ضوء ما سمي بالنكسة او الهزيمة التي انحسرت عنها التجربة، او في ضوء ما خيل لهذا وذاك من الكتاب والمثقفين ولهذه الفئة وتلك من سائر المواطنين انه السبب الظاهر او الخفي وراء النكسة او الهزيمة..

وقد نال قيم الثقافة العربية قديمها وحديثها، وقيم الادب العربي ماضيه وحاضره، ومواقف المثقفين والادباء العرب حيال المعركة المصيرية كلها، وحيال الجولة الاخيرة منها بالخصوص، نصيب وافر من الشك والتشكيك معا..

ثم نال الانسان العربي، بنوعيته، مثل هذا النصيب من الشك والتشكيك.. فقالوا انه انسان يعيش خارج الزمان، متخلف، مملوك.. وقالوا ان خسارة العرب الحرب التي واجهوا بها العدوان الاستعماري الاسرائيلي الاخير نشأت عن كونهم متخلفين حضاريا، مع قولهم ان التخلف الحضاري هو «تأخر العقل والروح والخيال والنفس والجسد».. ومعنى ذلك ان الانسان العربي متأخر عقلا وروحا وخيالا ونفسا وجسدا.. وبناء على هذا الراي بالانسان العربي فسروا النكسة الحربية بعد الخامس من حزيران الماضي بأنها «هزيمة حضارية لا عسكرية»..

لقد قيل وكتب الشيء الكثير من امثال هذا الكلام اثناء الغمرة الانفعالية الغامرة التي اعقبت النكسة، ولا يزال هذا يتردد على الالسنة والاقلام، دون التفكير بالحلول العملية الايجابية، ودون النظر الى ان الامعان في مثل هذا الموقف السلبي المطلق هو بذاته موقف غير حضاري، وهو بذاته ارتماء في «الهزيمة الحضارية» التي يرمون بها الانسان العربي..

وفي هذه الموجة الطاغية من الشك والتشكيك بالقيم العربية وبالانسان العربي يتحدثون عن التغيير الجذري لهذه القيم ولهذا الانسان..

ان الحديث عن ضرورة التغيير في القيم العربية او في الانسان العربي، بعد تجربة المواجهة الاخيرة للعدوان، حديث سليم بذاته يدفعنا اليه عنف التجربة دفعا قويا يوقظ فينا من الاعماق جملة من الحوافز الوطنية والثورية لرؤية كل شيء في حياتنا العربية رؤية جديدة ذات اضواء جديدة..

فليس من خلاف، اذن، على ضرورة التغيير، لانه لا خلاف على ان كثيرا من القيم التي كانت مرتكزا للعرب في معركتهم الدائرة منذ حقب عدة بينهم وبين اعداء قضاياهم المصيرية، لم يكن معظمها بالقيم الصالحة لهذا الإرتكاز اما لنقص في الرؤية اليها، واما لميوعة في حدودها ومقوماتها، واما لاعتمادها مفاهيم ومنطلقات غريبة عن حقائق قضاياهم تلك وعن اهداف نضالهم الموصول في طلب الحلول العملية الايجابية لهذه القضايا، وفي صلبها قضية فلسطين..

وليس من خلاف كذلك على ان حركة التغيير يجب أن تتناول الانسان العربي بقدر ما تتناول قيم حياته ومعركته، لانه ليس من خلاف هنا ايضا على ان الانسان العربي كان يواجه قضايا مصيره الكبرى، احيانا، بنوع من المواقف لا يرقى الى مستوى التحديات الملتهبة أمامه في كل جبهة من جبهات المعركة، معركة المصير..

ولكن الخلاف قائم على تحديد طريقنا الجديدة الى هذا التغيير المطلوب.. فلماذا الخلاف هنا؟ ما مصدره؟

ان الخلاف مع أمثال هؤلاء المشككين، يصدر عن الامور الاتية:

اولا — ان الشك او التشكيك عندهم يقع، اما عن قصد او غير قصد، في سلبية تبلغ، باتباعها الطرق المسدودة، حدود الهدم الى غير قرار يصاح — بعد — للبناء.. وهذا، فضلا عن كونه مناقضا كل المناقضة للروح الحضارية التي يدعونها لانفسهم، يلقي بالانسان العربي — وهم يزعمون الاشفاق على مصيره — في مهاوي اليأس القاتل والانهزامية المميتة.. ويبدو ان بعضهم يرى في ذلك طريقا الى النجاة من المأساة، بدليل قوله ان المطلوب للعرب انما «نطلبه من اليائسين الغاضبين المشمئزين الهاربين التائهين المصلوبين».. وهذا رأي

يبقى معلقا في الهواء لانه لا يجد الارض التي يستطيع الوقوف عليها ..

ثانيا — ان الغضب الذي يطلبونه للعرب من العرب انفسهم موجود بالفعل .. فان غضب الشبان والجماهير العربية اشفاقا من النكسة التي حدثت ومن عواملها واثارها السلبية ، بالغ حد الغليان والتوتر الروحي الشديدين ، ولكنه الغضب المنبعث من روح الكفاحية التي لا تحتاج الا الى رسم الطريق الواضح امامها للخروج من السلبية الى الايجابية في سبيل معركة التغيير ، ثم لا تحتاج — بعد — الا الى تنظيم طاقاتها الغضبية الثورية المكبوتة ، والى اعتماد القيادات الموجهة المنظمة على هذه الطاقات وثقتها بها في حمل اعباء المعركة ..

ان غضب الجماهير العربية من النوع البناء الذي لا يعني اليأس ولا الهروب ولا التيهان والضياع حتى الصلب .. فهو غضب ليس بالهدام ، وهو بجوهره يحمل مضمونا ايجابيا وان كان سلبيا في ظاهره ..

ثالثا — ان تغيير الانسان العربي ، او تغيير قيم الفكر العربي والثقافة العربية ، له طريقان : طريق يعتمد المنهج المثالي الذي يعني ان نترك المعركة القائمة الملتهبة أمامنا ، الشديدة الالحاح علينا بأن نخوضها دون تردد ولا انتظار ولا تسويف .. نتركها لنفرغ الى معالجة النفس العربية في عالمها الداخلي وحده ، انطلاقا من المفهوم الميتافيزيقي بأن العالم الداخلي هذا هو الاصل والمنبع ..

والطريق الثاني ، هو الطريق الواقعي الذي يعني ان نضع اقدامنا في ارض المعركة ، وان ندخل في لهب الكفاح المشتعل بالفعل دون انتظار ، لان هذا الموقف هو الذي يصهر النفس العربية ويمتحن طاقاتها ويضعها في قلب التجربة حتى يستخرج أصلب معادنها ويبلور أفضل عناصرها .. وبهذا الطريق يحدث التغيير المطلوب بالممارسة الواقعية العملية ، أي ان الممارسة هذه تؤدي بطبيعتها الى تغيير جذري في القيم ذاتها وفي الكينونة الروحية والفكرية للانسان العربي ، انطلاقا من أن كينونة العالم الداخلي نتيجة لا سبب ، فهي نتيجة لانواع العلاقات التي يمارسها الانسان عمليا في مختلف مجالات النشاط الانساني ضمن المجتمع ..

والذين يدعون للتغيير في القيم وفي الانسان ذاته ، اثناء ظروف التوتر الانفعالي بعد انتكاسة المواجهة العربية العسكرية للعدوان الاخير ، يبدو انهم يختارون الطريق الاول للتغيير ، لانهم يفسرون الانتكاسة هذه بالتخلف الحضاري ، ويفسرون هذا التخلف بأنه « تأخر العقل والروح والخيال والنفس والجسد » .. فعلينا ، اذن ، ان نترك المعركة الان حتى نحقق المطلوب من « تغيير الانسان العربي » ، اي حتى نقضي على تخلفه الحضاري ، اي حتى نربي منه العقل والروح والخيال والنفس والجسد تربية جديدة تقتلع من داخله جذور التأخر .. ولكن ، كيف تكون هذه التربية لكي يحدث التغيير المطلوب ، وما منهجها ، ما وسائلها ، ما أساليبها ؟.. ليس عندهم من جواب عن هذه الاسئلة اطلاقا ، لانهم لا يعرفون الجواب ، او لانهم — واعني بعضهم فقط — لا يقصدون من طلب التغيير الا اثارة الشك بالانسان العربي والحكم عليه ، اعتباطا ، بأنه فاقد ميزة الحضور الانساني في كونه وعصره وتاريخه وآفاق مستقبله .. وهم يعنون بهذا الفقدان تخلفه الحضاري ..

رابعا — اننا نجادل في أصل هذا الشك ومنبعه .. فمن اين ينطلقون به حقيقة ؟..

هناك من يقول ان العرب لو كانوا متقدمين حضاريا وخسروا الحرب ، لما كانوا خسروها بهذا الشكل .. وهناك من يقول ان « تاريخنا مليء بالكوارث . كانت الواحدة تأتي اثر الثانية ، منذ سقوط الخلافة العباسية ، مرورا بالعهد العثماني ، وبالاستعمار الذي يستمر او يتجدد حتى اليوم . لكن هذه الكوارث لم توقظنا ، لم تغير في عقليتنا ونفسيتنا شيئا » ..

اننا نجادل في هذه المنطلقات ذاتها .. وينبغي أن أوضح ، قبل الدخول في المجادلة ، انني اضع المسألة ، هنا ، على صعيد الحوار الفكري بدافع البحث عن الحقيقة والاخلاص لها ولهدف معرفة الطريق الصحيح الموصل الى تغيير الانسان العربي ، دون أي قصد الى التجريح او ما يشبه التجريح بأصحاب هذه المنطلقات، في حين انني على يقين بأن بعضهم انما يصدر في أحكامه عن اخلاص عميق وعن مرارة روحية وتمزق نفسي نبيل جدا ..

***

وبعد ، فان أمامنا دعويين : دعوى تقول بان الشكل الذي خسر به العرب الحرب الاخيرة هو الذي يكشف أن الخسارة ناشئة عن فقدانهم للتقدم الحضاري .. ودعوى تقول بان كوارثنا التاريخية منذ سقوط الخلافة العباسية الى اليوم لم توقظنا ولم تغير في عقليتنا ونفسيتنا شيئا ..

يبدو لي أن مضمون كل من الدعويين ينتهي الى مضمون الاخرى .. فان عدم قدرة الكوارث المتلاحقة ، في المدى التاريخي ، على احداث تغيير ما في عقلية شعب ونفسيته ، هو بذاته فقدان هذا الشعب قدرة التقدم الحضاري .. لذلك يحسن وضع المسالة ، في هذا الحوار ، كاملة دون تجزيء ..

ولكن لا بد من دخول المسالة ، اولا ، بهذا السؤال :

— ما طبيعة الشكل الذي كانت به خسارة العرب لهذه الحرب ، وكانت به الدلالة على نفي تقدمهم حضاريا ؟ ..

لعل المقصود تلك الهزيمة التي اصابت الجيوش العربية او بعضها بسرعة ، عند التصدي للعدوان ، دون ان تطول المعركة وقتا يصح فيه ان تسمى معركة حقا ..

لا خلاف في أن العنصر البشري كان العامل الاظهر في هذه الهزيمة .. ولكن العنصر البشري في الحرب ليس هو الجندي وحده ، ولا هو الضابط الصغير الذي يقود الجندي مباشرة ويشارك في القتال مباشرة .. فهناك ، فوق هذا وذاك ، القائد الآمر والمخطط بمستوياتهما الهرمية المعروفة ، وهناك فوق هذين كليهما ووراءهما العنصر السياسي، فليست الحرب ، مهما كان نوعها ، عملية عسكرية خالصة ..

يوم يتاح لنا أن نقرأ تاريخ هذه التجربة القاسيـــة بتفاصيلها وخطائها سنعرف أن هذه الجيوش لم تنهزم لنقص في شجاعة جنودها وضباطها ، او في روحهم المعنوية ، او فـــي حرارة حماستهم للقضية التي يدافعون عنها ، أو في رسوخ روح المسؤولية فيهم أمام معركة المصير التي يخوضونها .. سنعرف أن شيئا اخر غير كل ذلك يكمن وراء الهزيمة بالشكل الذي حدثت به الهزيمة .. ومن العسير أن يتضح لنا هذا « الشيء الاخر » اذا لم نرجع الى طبيعة القضية نفسها التي تدور عليها معركتنا العربية في الاساس ، وليست قضية فلسطين ذاتها جزءا منها ..

***

ان القضية بأساسها وجوهرها قضية صراع كان لا بد من حدوثه في ظروف نمو الحركة العربية التحررية التي نشأت بذورها الاولـى منذ أواسط القرن التاسع عشر ، ثم أخذت طريقها الى التجذر فـــي الارض العربية قبيل الحرب الكونية الاولى وبعدها ، ثم بدأت تخـرج طلائعها الى النور بشكل انتفاضات جماهيرية شعبية أو ثورات مسلحة منذ العشرينات في هذا القرن لمكافحة الاشكال القائمة في هذا البلـد العربي وذلك من التسلط الاستعماري ، احتلالا كان بقوة الفتح والغزو أم انتدابا من عصبة الامم يستتر وجه الاحتلال .. وفـــي الاربعينات استفحل نمو الحركة العربية التحررية في ظروف نشوء حركة التحـرر الافريقية الاسيوية بعد الحرب الكونية الثانية وانتصـــار الحلف الديمقراطي الدولي ضد الحلف النازي الفاشي المندحر ، وكان استقلال لبنان وسورية احدى الثمرات الاولى لحركة التحرر العربية في تلـك الظروف نفسها التي ظهر فيها المعسكر الاشتراكي كنظـام عالمي .. واستمرت الحركة العربية التحررية في نموها وتأصلها منذ بـداءة الخمسينات اذ ظهرت فيها اولى العوامل الممهدة لتحولها الى حركةثورية اخل فيها مرحلتا التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي ، أو الثـورة الوطنية والثورة الاجتماعية التقدمية .. ومن هذه العوامل التمهيدية قيام ثورة ٢٣ يوليه (تموز) عام ١٩٥٢ في مصر ، ثم تأميم قناةالسويس، ثم انحسار اثار العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ الذي تحقق به الجلاء العسكري الاجنبي التام عن الارض المصرية بكاملها واستكمال حقيقـة الاستقلال الوطني لمصر ، ثم قيام الوحدة المصرية ـ السورية كنـواة للوحدة العربية ١٩٥٨ ، مع قيام ثورة ١٤ تموز العراقية فـي العام نفســه ..

ان كل هذه العوامل ، بالاضافة الى عوامل أخرى من نضالات القوى الوطنية والتقدمية والشعبية في كثير من الاقطار العربية ، ومن بروز التلاحم بين قوى الثورة الاشتراكية والثورة التحررية الافرو اسيوية في الكفاح المشترك ضد الامبريالية العالمية ـ نقول : ان كل هذه العوامل قد عبدت الطريق بالفعل لتحول الثورة العربية الـى ثورة اجتماعية تقدمية حققت مضمونا جديداً للقومية العربية ذاتهـا وهيأت الظروف المؤاتية لاستقرار هذا المضمون في مفهوم الوحدةالعربية التي كانت تنضج ، خلال ذلك كله ، ظروف تحقيقها كهدف كبير لشعوب الامة العربية .. وقد ظهرت بين طلائع هذا التحول تدابير التأميـم التي احدثها حكم الوحدة المصرية ـ السورية عام ١٩٦١ .. ثم توالت هذه الطلائع في الجمهورية العربية المتحدة ، ثم في سورية بعد ثـورة ٢٣ شباط ١٩٦٣ ، وفي الجزائر بعد انتصار ثورتها الوطنية ، وفـي اليمن بعد نجاح الثورة التي نفضت عن صدر الشعب اليمني كـابوس الحكم الملكي الاقطاعي المتخلف ، وحتى في ثورةعدن وجنوب اليمن المحتل القائمة الان ، لانها ثورة تحمل مضموني الثورة الوطنية والاجتماعيةمعا..

***

قصدت من هذا العرض الاجمالي أن أصف الحدود البارزة لارض الحركة العربية التي يدور عليها الصراع البالغ في هـذه الايام اقصى مدى التوتر والاحتدام ..

يبقى أن نحدد طرفي هذا الصراع حتى نصل الى جوهر القضية..

انه الصراع بين قوى الثورة العربية للتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي الحضاري وبين قوى الثورة المضادة لها .. وهذه الاخيـرة تستوعب ، في معسكرها الناهض للثورة العربية ، قوى الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية ووليدها اسرائيل ، وقوى الرجعية المحلية المرتبطة مصالحها ، عضويا ، بمصالح الاستعمار والصهيونية .. ولا تجزيء في الواقع بين الاستعمار والصهيونية وقاعدتهما ، بل الترسانة العسكرية لهما : اسرائيل ..

اذا رجعنا الى الثورة العربية هذه نستعرض مراحل نموهـــا وتطورها وتحولاتها ، بهتتنا حقيقة ذات شان كبير في جلاء موضوعنا.. هذه الحقيقة هي أنه كلما بدا لمعسكر الثورة المضادة أن الثورة العربية، خلال مسيرتها الطويلة ، توشك أن يشتد ساعدها ، أو أن ترسـخ جذورها أكثر فاكثر في أرض العرب ، أو أن تتعمق مفاهيمها التحررية والتقدمية في نفسية الجماهير العربية ، اشتد هذا المعسكر الاستعماري الصهيوني الرجعي في مقاومتها والتآمر عليها وتأليب مختلف وسـائل المقاومة والتآمر لسحقها من الاصول .. حتى اذا وجدها ، في مرحلتها الحاضرة ، قد ازدادت تأصلا ورسوخا وامتدادا ، ووجدها ازدادت تلاحما مع قوى الثورة العالمية بمختلف فصائلها الاشتراكية والتحررية والعمالية ، رفع يديه عليها شاهرا خنجره الاثيم الذي اسمه اسرائيل ليسدده الى مكان المقتل من صدرها .. وكان المقتل الذي قصد اليه ، أول ما قصد ، نظام الحكم التقدمي في كل من الجمهورية العربيـة المتحدة والجمهورية العربية السورية ، والبقية تأتي ! ...

***

مراقبـــة

مراقبـــة

مراقبـــه

مراقبـــة

***

هنا ينهض امامنا سؤال يلد عدة اسئلة

هل من شعب متقدم حضاريا خلت صفوفه من امثال ذوي «الاقنعة» هؤلاء ؟ .. وهل من شعب مني بأمثال هؤلاء قد استطاع تجنب نكسـة أو هزيمة كمثل النكسة أو الهزيمة التي أصابت العرب أخيرا ؟ .. بل نقول للمشككين بالانسان العربي في بلادنا : ان شعوبا أوروبية يثقون هم كل الثقة بتقدمها حضاريا الى مدى بعيد في التقدم ، قد أصيبت بافدح وافجع مما اصاب العرب من هذه الهزيمة ، وكـان « الطابـور الخامس » من أبنائها يد طولى في هزيمتها .. فهل خطـر لهـم أن يتخذوا ذلك شاهدا ودليلا على تخلف هذه الشعوب الاوروبية التـي يعرفونها جيدا ، وربما يحبونها جيدا ، في المجال الحضاري ؟ ..فلماذا ـ اذن ـ يمعنون تشكيكا بالانسان العربي الى هذا الحد ، لان هزيمـة عسكرية نزلت به لاسباب لا يتحمل تبعاتها سوى افراد قلة لا تربطهـم بالانسان العربي النوع غير رابطة النسب وحدها ؟

هذا أولا .. وأما ثانيا فان الهزيمة تقاس بمدى الهدف الـذي

قصد اليه العدو حين دبر عدوانه ونفذه .. وهل كان الهدف الاول والاهم للعدوان الاستعماري الاسرائيلي الاخير غير اسقاط نظام الحكم التقدمي في الجمهورية العربية المتحدة وسورية ؟ .. فهل حقق العدوان هدفه هذا ، وهل حصلت الهزيمة العربية فعلا بالنسبة لهذا الهدف؟..

وأما ثالثا فان الهزيمة العسكرية هذه نفسها قد أثبتت حضارية الانسان العربي على وجه كان ينبغي أن يراه بعض هؤلاء المشككين ، وأن يكبروا شأنه ، ونحن نعلم اخلاص هذا البعض ونعلم قدرته على الرؤية .. وذلك ان الانسان العربي ـ أعني الشعوب العربية كلها وفي مقدمتها شعب الجمهورية العربية المتحدة بالذات ـ سرعان ما وضع يده على جراح الهزيمة في نفسه يكبت نزفها ليثب وثبته العظيمة ليل ٩ حزيران الماضي واليوم التالي له ، كي يمنع الكيد الخفي الذي أحس ، بصدق فراسته الحضارية ، أنه يكاد يحقق الهدف الاول للعدوان ، وهو اسقاط عبد الناصر عن مكان القيادة للثورة التقدمية ، تمهيدا لاسقاط الثورة نفسها .. وقد استطاع الانسان العربي منع هذا الكيد بالفعل ، فحقق بذلك ثورة جديدة نبعت من قلب الشعب وضميره ، ومن القيمة الحضارية التي يأخذ بها قلبه وضميره ، أعني قيمة الحرية : حرية الانسان ..

***

ان شعبنا يؤمن بقيم الحرية ، ويجعل أرضه كلها ميدانا لمعركة طويلة تمتد أكثر من مئة عام من تاريخه الحديث للكفاح في سبيل هذه القيم ، وفي سبيل أن تتجسد هذه القيم في حياته مجتمعا حرا متحررا من قيود العبوديات والتبعيات وأنواع التسلط الخارجي والداخلي ـ نقول : أن شعبا بهذه المنزلة من الاستمساك بقيم الحرية والدأب الطويل الصامد الصابر في الكفاح من أجلها ، ليس الا من باب الظلم والتجني الغريب عليه أن يتهم بأنه متخلف حضاريا ، وليس يصح لمفكر وشاعر كبير مخلص من أبنائه أن يدعي عليه بأن الكوارث المتلاحقة في تاريخه لم تغير من عقليته ونفسيته شيئا ، في حين أنه يخوض معركة الحرية منذ عشرات السنين ، ويقدم التضحيات لها بسخاء ، ويموت في ميادينها الالوف من أبنائه ، ولا يزال الذين يرغبون في الموت من أجل قضية الحرية أكثر من أن يحصيهم العد ..

أليست الحرية قيمة عظيمة من القيم الحضارية ؟ ..

ألم يخرج الانسان العربي من ظلمات القرون الغابرة ومن كهوف الاستبداد السحيقة ، فجأة ، وهو مثقل بتراث هائل من الكوارث التاريخية الرهيبة ، فاذا هو يحدث الانتفاضة تلو الانتفاضة والثورة بعد الثورة ، في هذا البلد العربي وذاك ، وفي هذه الحقبة وتلك ، كفاحا متواصلا لكي يدفع هذا الاحتلال وذاك عن وطنه ، ولكي يجلي هذا المستعمر وذاك عن أرضه وتراثه وخيرات بلاده ، ولكي يحقق الحرية لجماهير شعبه ؟ ..

لقد استطاعت المعركة معركة الحرية والمصير ، في بلاد العرب ، ولقي فيها الانسان العربي الهزائم بعد الهزائم ، وما يئس واستسلم ، ولا نفد صبره وأخلى ميدان المعركة ، حتى بدأ يذوق طعم الانتصار منذ نحو ربع قرن تخللته بعض الهزائم .. والا فمن أين نبعت هذه الثورة العربية التي يحقد عليها الاستعمار هذا الحقد الهائج ويتآمر عليها هذا التآمر اللئيم ؟ .. والا فلماذا يحقد الاستعمار هذا الحقد ويتآمر هذا التآمر ؟ .. والا فكيف بقيت هذه الثورة تزداد عمقا واتساعا واشتعالا مع الزمن لولا أنها ليست من صنع أفراد نخبة ، بل من معدن الشعب الاصيل ذاته ؟

هل يصح القول في الانسان العربي ان الكوارث لم تغير من عقليته ونفسيته شيئا وهذه عقليته ونفسيته تتململان هذه الايام على جمرات الالم من عمق ما حفرته المأساة الطارئة في قرارة ذاته ؟ ..

أليس الالم بذاته لمثل هذه المأساة علامة الحياة المستوفزة في قلب المأساة ، ودليل الحضور الانساني المتوهج في الكون الحضاري وفي طريق المستقبل ؟ ...

***

ان طريقنا الى تغيير الانسان العربي طريق معبد وواضح ، هو الطريق الذي شقها هذا الانسان نفسه بيده منذ بدأ معركته ، معركة الحرية والمصير ..

وما دام الانسان العربي صامدا في معركته هذه ، وهو صامد بالفعل ، فان المعركة ذاتها ، بتحولاتها المتلاحقة ، كفيلة بابداع أسباب التغيير الدائم في كينونته الحضارية ..

ان تغيير الانسان ، وتغيير قيمه الانسانية والاجتماعية والفكرية انما يأتيان من ممارسته الحياة ، ومن تعميقه الصلات ما بينه وبين الحركة الجوهرية للحياة ..

أما التشكيك اليائس الهارب التائه فهو وحده الطريق المسدود الذي ينتهي بصاحبه وبمن يتأثر خطاه الى شيء اخر ليس هو التغيير الحضاري على كل حال ..

وأما الانسان العربي ، فهو واضع قدميه على طريق التغيير التقدمي ما دام لهب المعركة ، معركة الحرية والمصير الحر ، يتأجج في وعيه وضميره ووجدانه ، وهو متأجج حقا وواقعا وان لم يره الشاكون والمشككون ، المخلصون منهم وغير المخلصين ..

حسين مروة

كبش الفداء

قصة بقلم ديزي الأمير

ــ أيهما أصعب : انتظار المصيبة أم حدوثها ؟

ــ ولكننا لم نفكر في حدوث مصيبة ، وعلى أساس هذا لم نكن ننتظرها .

وعادت الى الامس ، الامس القريب ، حين لم تفكر ولا لحظة واحدة في امكانية الفشل . « النصر كان معنا نشد عليه بايدينا ونحن نسمع رعد الاناشيد الوطنية والنشرات المتوالية تذكر عدد الطائرات التي اسقطناها وعدد الاسرى الذي قبلنا » .

وعادت الى سمعها اسماء الات القتال الحربية . كانت اسماء جديدة تثيره لم تسمع بها من قبل ، ولكن جرسها كان يؤكد معنى القوة والبطش والتحطيم .

وعاد الصوت ينادي :

« اضرب لاجل الربيع
اضرب لاجل الجميع
اضرب لاجل الحياه
ولاجل عشاق الحياة »

لقد ضربنا بالات من كل الاحجام والانواع وضربنا بجيشنا الكبير الموحد وضربنا بمعنوياتنا القوية وضربنا بالايدي والاسنان .

فأين هي الحياة ؟ وأين هم عشاقها ؟ ومظاهر الربيع ؟ وضربنا ، كم طال ؟ وكم صمد ؟ ومتى سنعاوده لاجل عودة الربيع وعودة الحياة ؟

والتقت عيناها بعينيه ، وقرأ كل منهما في نظرات الاخر الحديث الذي يعملان بكل قوتهما للبوح به والذي يسعيان بكل قوتهما لاسكاته .

سمعته : ــ عمال مرفأ في ايطاليا يرفضون شحن باخرة تتوجه الى اسرائيل . الصومال تريد ارسال متطوعين . هذه العواطف المتفرقة أسكرتنا فظننا ان الراي العام العالمي معنا . لم تجهر دولة واحدة بوقوفها مع اسرائيل فصدقناهم ... ومع كل هذا ، فكيف حدث ما حدث ؟؟

معنوياتنا ؟ لم يكن أقوى منها . استعدادنا الحربي ؟ نعد له منذ خمس عشرة سنة . حكوماتنا تتجاوب مع الشعب العربي . الاخلاص ، الحماسة ، الشعور بالمسؤولية ... كل شيء كان فينا فماذا جرى لنا ؟

كانت عيناه تلمعان بحماسة غريبة وتتطلعان الى لا شيء ، فلم تدر الى من يوجه حديثه . فهو لم يحدثها أحاديثهما اليومية الطويلة منذ ابتداء الحرب . أصبح يكتفي بالسؤال عن صحتها ويسألها ان كانت تحتاج شيئا وتكتفي هي بشكره ثم ينقطع الحديث .

لم تجبه . وفتشت عن رعشة الحنان في نظراته وطال تطلعها قبل ان تقول : « لم أعهد عينيك قاسيتين هكذا . لا أدري لم تخنق الحنان فيها ولا تترك لفيضه حق الانسكاب » .

فهز رأسه وأدار وجهه : « يجب أن ننسى الحنان. يجب ان نتعود القسوة والبطش والعنف عمليا ، لم يعد للرحمة مكان عندنا ولا للعواطف » .

ــ أتدري انك تحدثني أنا ؟

ــ نعم ، أدري هذا جيدا ، ولاجله لم احدثك طويلا في الايام الماضية . الحديث اليك يريحني وانا لا اريد الارتياح .

حدقت الى نظرته فلم تستطع الالتقاء بها ، ودارت ببصرها الى ما حولها . كانت الاشياء هي نفسها ولم تكن نفسها . كلها تتحدث بصمت عميق عميق . على الزجاج بعض الاوراق الزرقاء باقية من ليالي التعتيم مدت يدها تمزقها . سمعت صوته يعتب : « لم تزيلين الاوراق الزرقاء ؟ أحسبت ان القتال انتهى وان هذه هي نهاية القضية ؟ » .

أجابت : ــ لم أعد أدري ما يصح قوله وما يصح عمله ...

فسأل بضحكة لم تدر مداها : ــ هل ستزيلين الصبغ الازرق عن مصابيح السيارة ؟

فلم تجب مع الف رغبة في نفسها الى الحديث . عادت اذناها تمتلئان برعد الاناشيد الوطنية يصلها من الف مذياع وبالبلاغات الحربية المتوالية وبساعات الصمت الطويلة ، فترة منع التجول وخنق الاضواء ، وبثواني انتظار فترة الاخبار التالية ، ثم احست فجأة بالغثيان يغشى اذنيها وعينيها ، ولم تعد تدري الا انها تريد ان تصفع احدا .

ويبدو انه كان يحدثها لان يده كانت تهزها ، فلم تتحرك ولم تجب ولم تصغ ، ولكنها لا تدري كيف طاوعته وسارت معه خارجا . اجلسها بجواره وجلس هو خلف مقود السيارة وبدون ارادة منها مدت كفها تدير المذياع فلمست كفه يدها . تطلعت اليه . كانت شفتاه تتحركان لا تدري منذ متى ولكنها سمعته يقول : « تحدثنا من اذاعاتنا عن القوة والبطش وعن الانتقام ، وخيل لمن يسمعنا

انّنا اكثر أهل الارض وحشية ، وكانت اذاعة اسرائيل طوال الوقت تتحدث عن معاملتها للعرب بالرفق وعن التزامها لحقوق الفرد أية كانت قوميته . اما الحقيقة المحجله فهي اننا لم نكن وحوشا . ما قام به اليهود في الاراضي العربيه من بربريه لم يمر عليها التاريخ ولم تعرفها البشريه ولا في شريعه الغاب .

« زعقنا وصرخنا وأعلنا اننا سنبطش ونحرق ونهدم ونغرق ، فأهدرنا قوانا ، وظننا انا بتصريفنا لطاقات الحنق بالكلام قد ادينا واجبنا ، وهذا عكس ما فعله العدو ، فكسب الجوله والراي العالمي العام وخسرنا » .

لم تسمع في صوته قوه وغضبا كالذي سمعته حينذاك وتمثلت لها عيون العرب وهم يطردون من أراضيهم لا يسمح لهم بحمل غير ما عليهم من ثياب ، وعيون الشباب المثقف وهم مصطفون أمام الحائط يحصدهم رشاش العدو ، وعيون المرضى والجرحى في المستشفيات وهي ترى القنابل المحرقة تسقط عليهم وعلما الصليب والهلال الاحمرين يرفرفان مطمئنين ، وعيون المطرودين يحاولون عبور النهر والجسر غير قادر على تحمل هذا العدد الهائل من الناس ، وعيون سكان القدس وهم مجبرون على القتال بسكاكين المطبخ دفاعا عن بيوتهم وشرفهم . لو تجمع حقد هذه العيون كلها وانصب الات قاتله ، صواريخ وقنابل وطائرات ، أما كنا أبدنا العدو وأحرقناه ؟

كانت السياره قد توقفت منذ مدة وهو جالس بجوارها لا تدري أينتظرها لتنزل أم انها هي التي تنتظره . الذي تدريه انها نزلت ولحق هو بها وتوجه كلاهما الى مقهى شبه فارغ ، ولكنها فكرت بالتراجع حين رأت مائدة يحتلها عدد من الشبان أمامهم قناني وكؤوس الخمر مختلطه بضحكاتهم العالية .

سمعته يقول : « هذه حقيقة يجب مواجهتها فلا تهربي » . وجلسا متقابلين وكل منهما ينظر الى كل شيء عدا من أمامه . كانت الصخور تتدحرج على طرفي نهر جاف والاشجار مهملة تحتها كوم من الحشائش تتنفس بينها بعض الزهور اذا استطاعت اختراق الحصار . أكداس من الاوراق اليابسة تغطي الارض الا ما طيرته الريح فتكوم فوق الكوم الاخرى . لم يكن على الارض بادرة من مظاهر الربيع ، ومع هذا فقد ارتاحت للطبيعة الاصيلة غير المزيفة . زاد الجو اصالة حين انتبهت الى صوت نقيق الضفادع . منذ مدة وهي تشتاق سماع صوت صادق ينسيها الضجيج المفتعل . وطربت لما تسمع ... ولكن الصوت الذي تسمعه لم يكن نقيقا . لقد اختلط معه صوت جديد . امتلأت أذناها بثغاء الماعز . كان حولها قطيع وصل قسم منه الى المقهى فاندس في اكوام الحشائش ، وظل الاخر يتسلق الصخور من النهر الجاف . وكان الراعي يلاحق ماعزه يحاول بكل ما في وسع الاصوات المتفاهم عليها بينهما ثنيها عن الوصول الى فوق .

ثم رأت عددا من الرجال يندسون بين الماعز . أما المائده العامرة فقد قل عدد رجالها .

سمعت صوت الراعي يقول بتخاذل : « نعم أنا فلسطيني » . وطرقت كلمة فلسطيني سمعها ، فأدارت وجهها لترى رجلا يواجه الراعي الفلسطيني بكل صلافة ويسأله ان يريه هويه اقامته ، والاخر يتهاوى ويرفع ذراعيه يحمي وجهه من صفعة ينتظرها وهو ينفي وجود هويه لديه .

أحست غضب الكرة الارضية يتجمع في رأسها ونهضت مسرعة وفمها مشحون بألف شتيمه . كان الرجل يصرخ : « بأي حق تسطو أنت وماعزك على أملاك الغير ؟ لقد خربت الحديقه وهشمت الزهور وأنت لا تحمل حتى هويه اقامة على هذه الاراضي ! لو أردت لسلمتك الى الشرطة ... خذ ماعزك وامض من هنا » .

اختنقت الشتائم في فمها وشلت قدماها وهي ترى الراعي ينادي ماعزه ويهرع معها هابطا يخترق الصخور والاشواك ، والهلع مرتسم على وجهه المسحوق . وكان الرجل يبتسم ، وهو يتأملهم يهربون .

صرخت فيه : « أية حديقة هذه التي تخاف عليها وتزعم ان الماعز هشم زهورها ، واية حرمة تدعيها انتهكت ؟ اما خجلت من تهديد الفلسطيني بتسليمه للشرطة ونحن كلنا سبب بلائه ؟ » .

ووصل رفيقها فطلب منها العودة الى مكانها قائلا : « لا تساعديهم على اخراج التمثيلية اخراجا ناجحا » .

ذهلت مما تسمع ، وكادت تصرخ : « حتى انت ؟ »

وحين قال : « هل رأيت كل المشاهد ؟ » .

أجابت بغضب : « نعم رأيتها ، رأيتها كلها ، وكان يجب ان أبدأ الكلام قبل الان ، ولا ادري كيف جمدت

الكلمات وبصعوبة أذبتها » .

قاطعها : « هل رأيت الجدي الصغير وكيف سرق؟ »

ــ جدي صغير ؟ سرق ؟ كيف ؟ ومن فعل هذا ؟

ارتسمت بسمة حنان على عينيــــه وهو يقول : « اهدأي واصغي الي . حين كنت تستمعين الى ما يدور بين الرجل والراعي وتستعدين متحمسة للحديث ، كـان رجل اخر يسرق جديا صغيرا ويهرب به الى خلف المقهى»

ــ ولم سكت أنت ؟ لم لم تقل شيئا ؟؟

ــ انشغالك بالتمثيلية عن الحقيقة المسروقة أسكت وجودي ورؤيتي وما عملت .

ــ لم لم يصرخ الجدي ؟ لم يستنجد ؟

ــ الاستنجاد وطلب الحق يحتاجان فما طليقا . كان السارق يطبق بيده على فم الجدي .

وقبل أن تستفهم عن بقية التفاصيل وقف رفيقها وصاح بأعلى صوته ينادي صاحب القطيع الذي لم يكن قد ابتعد كثيرا .

ارتفعت أصوات من المائدة العامرة وركض واحد : « انا صاحب المكان ، ماذا تأمر ؟ هــل أعجبك الطعـام ؟ وكيف تريد القهوة ؟ » .

ــ ارجع الجدي الصغير الى صاحبه .

فتظاهر صاحب المقهى بالغباء وأقسم انه رجـــل شريف لا يسمح بحدوث أمر كهذا في ملكه ..

اجاب رفيقها : لا أعرف من السارق ، ولكنك انت المسؤول عما حدث في مقهاك . وها هو صاحب القطيع على وشك الوصول .

فذهب صاحب المقهى وهو يردد عبارات القســـم الشتى مؤكدا جهله بالموضوع .

وصل رجل بدوي دلها التساؤل في عينيه انــه صاحب الماعز . طلب منــه رفيقها إن يذهب الــى القسم الخلفي من المقهى لعله يجد الضائع .

وقامت هي علها تساعد البدوي فـــي تفتيشه ، فناداها رفيقها ان تجلس وتترك الامور تعالج برويـــة مذكرا اياها بنتائج الاندفاع الاهوج .

عاد البدوي ومر بهم محييا . كان الحمل الصغير يتطلع بعينيه الوادعتين واذناه مسترخيتان برضى .

ولحقت بالبدوي تتأمل الجدي في حضن صاحبه. وحين عادت الى مكانها رات رفيقها واقفا ينتظرهـــا . تأمل ما حوله ونظر الى الافق البعيد قائلا :

ــ هكذا خسرنا الحرب . تمثيلية اليوم الصغيرة نموذج للتمثيلية الكبيرة التي عشناها . هل تريدينني أن نوزع أدوارها مقارنة بأشخاص تمثيلية اليوم ؟

فهزت رأسها نفيا .

قال : ــ أما الفصل التالي الذي أقرأ الرضا عنــه في عينيك فدوره آت ونحن في انتظاره على أن نكـون صامتين بحكمة وحذر .

ديزي الامير

ننتظر من سارتر "موقفاً" واضحاً!

وقف المفكر الفرنسي جان بول سارتر من أزمة الشرق الاوسط موقفاً نستطيع أن نصفه بأنه ، على أقل تقدير ، « محير » ...

وغاية هذا المقال أن يستعرض مظاهر هذا الموقف وتطوراته ، التماساً لموقف نريد نحن ، باسم كثير من القراء والمثقفين العرب ، أن يتخذه من سارتر بالذات .

ويعنينا أن نولي هذا المفكر اهتماماً خاصاً لامور كثيرة ليس أقلها أهمية حرصنا السابق والحالي والمقبل على أن نكسبه لقضية العرب الكبرى : حقهم في فلسطين . فلقد كان سارتر ، في مواقفه السابقة كلها ، قوة فكرية كبيرة الى جانب قضايا الشعوب المضطهدة ، وحرباً على قوى الاستعمار بمختلف أشكاله . ولا نستطيع ، نحن العرب ، أن ننسى موقفه المشرف من حرب التحرير الجزائرية ، في وجه دولته وممثليها العسكريين . ولم تكن دعوة سارتر ، منذ أشهر ، لزيارة الجمهورية العربية المتحدة ، الا مستوحاة من هذا الحرص وتلك الرغبة في أن نكتسب الى جانبنا مفكراً كبيراً يستطيع بموقفه أن يخفف من أهمية كثير من المفكرين الاخرين الذين جندتهم الصهيونية لخدمتها .

وأنا شخصياً أشد اهتماماً بسارتر من سواي لاني بذلت في ترجمة اثاره ونشرها جهوداً كبيرة تمكنت من اجتذاب كثير من القراء العرب للاقبال على ما في هذه الاثار من بذور التفكير العميق الملتزم ، واتجاه التحرر الفكري والسياسي والاجتماعي الذي نحتاجه في حياتنا الجديدة .

ولذلك ، فلم يكن عجيباً أن نصاب جميعاً بخيبة شديدة حين أطلعنا على « بيان المثقفين الفرنسيين » الذي أصدره في باريس زهاء خمسين مثقفاً يوم ٢٨ ايار (مايو) الماضي ووقعه جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار ، وفيه تأييد لاسرائيل ودفاع عنها وانحياز لجانبها ، ودعم لحقها في خليج العقبة واستنكار لما دعوه بتهديد سلامتها من قبل الدول العربية ...

وبتاريخ ٢٩ أيار ، أي في اليوم التالي مباشرة ، بادرت الى ارسال برقية عاجلة الى سارتر نشرتها الصحف اللبنانية ، الصادرة بالعربية والفرنسية ، وبعض المجلات المصرية ، هذا نصها :

« جان بول سارتر » مجلة « تان مودرن » باريس .

« نستنكر بيان بعض المثقفين الفرنسيين الذي وقعتموه مع سيمون دو بوفوار بتأييد اسرائيل . ويؤسفنا نحن المثقفين العرب أن تكونوا في موقف العجز عن التوحيد بين الامبريالية الاميركية التي تدينونها ، واسرائيل ، وليدة هذه الامبريالية . موقفكم الحالي في تأييد دولة اغتصبت أرضاً وشردت شعباً يخون مواقفكم السابقة في تأييد نضال شعوب الجزائر وكوبا وافريقيا وسواها لاسترداد حريتها والدفاع عن حقوقها . المثقفون العرب ، وفيهم أصدقاء كثيرون لكم ، آسفون لسقوطكم انتم أيضاً ضحية التضليل الصهيوني . أعاني شخصياً ندماً عميقاً لترجمة كثير من كتبك وتقديمها للقارىء العربي . فقدان المثقفين العرب ثقتهم بكم لن يزيدهم الا ايماناً برسالتهم في الدفاع عن الحق العربي في فلسطين » .

أرسلت هذه البرقية الى سارتر وأنا واثق من ان لهجتها قد تكون أقسى من اللهجة التي يخاطب بها كاتب كاتباً سبق أن لقيه مرات ، وكادت تنعقد بينهما أواصر صداقة . وزاد استغرابي لهذا الموقف يتخذه سارتر بعد أن قضى عشرين يوماً في الجمهورية العربية المتحدة أدلى فيها بتصريحات مختلفة كلها تعبير عن اعجابه بنهضتها وتقديره لرئيسها ودفاع عن حق اللاجئين بعودتهم الى بلادهم . ولقد كنت أقرأ في عيني سارتر ، حين لقيته في القاهرة بعض اللقاءات القصيرة ، تفهماً لقضيتنا لن يلبث طويلاً ، على ما كنت أرجو ، حتى يعبر عنه بما يدعم الحق العربي في فلسطين . وبالرغم من انني لم أكن مرتاحاً لمرافقة كلود لانزمان (١) له ، ومن اني عبرت عن استغرابي امام المسؤولين لدعوته مع سارتر ، فقد كنت واثقاً من ان صاحب « دروب الحرية » و « الاستعمار الجديد » سيكون من استقلال الشخصية وحرية الرأي بحيث يطرح عنه كل تأثير خارجي لا ينبع من قناعته وضميره .

وشككت ذات لحظة ، حتى بعد أن أرسلت البرقية ، أن يكون سارتر قد وقع حقاً بيان المثقفين الفرنسيين . وانتظرت أياماً أن يصدر تكذيب منه ، فذهب انتظاري عبثاً ، وغمرني الحزن لان يذهب هذا المفكر الكبير فريسة سهلة للدعاية الصهيونية .

وحين قرأت نبأ منع كتب سارتر وسيمون دو بوفوار

(١) كاتب يهودي فرنسي من أشد المتحمسين لاسرائيل والصهيونية، وهو عضو هيئة تحرير مجلة « تان مودرن » .

في العراق ، سارعت أبرق لوزير الثقافة والارشـــاد مؤيدا هذا التدبير ، موقنا بأن أقل ما يمكن أن نواجه به هذا الكاتب نزع الثقة بما يكتب ، ما دام يبدو متناقضا في مواقفه .

وعدت الى بيان المثقفين الفرنسيين أدرسه وأراجع الحجج التي تدرعوا بها للانحياز الى اسرائيل . وقد حز في نفسي ان أرى سارتر ينضم الى بعض الكتاب المعروفين بانهم من محترفي مناهضة السامية ، ومن العنصريين المعادين للعرب ، ومن المتطرفين الذين كانوا يدعون الى جزائر فرنسية ويؤيدون « منظمة الجيش السرية » ومن ذوي الاتجاه اليميني الواضح . ولعل سارتر ، دفعا للظن بأنه متضامن معهم الى أبعد الحدود ، هو الذي أقنعهم بادراج عباره يعلنون فيها تأييدهم لنضال الشعوب العربيه ومعارضتها للامبرياليه الاميركيه .

والحق اننا سنخرج عن جادة الصواب والعـــدل اذا اعتبرنا الدوافع التي دفعت سارتر لتوقيع البيـــان مماثله للتي اتخذها شخص ك « كزافييه فالات » كـان مفوضا لشؤون اليهود في عهد هتلر ، ثم أعلن توبتـــه وانضمامه لمؤيدي الصهيونية ، وصرح بأنه يرى في النزاع الصهيوني العربي معركه بين « الغرب » و « الشرق » او بين الامبرياليه وحركه تحرر الشعوب ...

ومع ذلك ، فما هي الحجج التي وردت في بيـان المثقفين ، ووقع عليها سارتر ؟

لقد جاء في البيان « ان دوله اسرائيل تبرهن على رغبة واضحة في السلام وضبط النفس » وانها « البلد الوحيد الذي يوضع وجودها بالذات موضع التساؤل . في حين أن الشروط الضروريه للسلام هي امن اسرائيل وسيادتها ، بما في ذلك الملاحة الحرة في المياهالدولية » وانه « من غير المفهوم ان يكون ثمة قسم من الرأي العام (والمقصود هنا الشيوعيون) يقر ان اسرائيل منحـازة للمعسكر الامبريالي العدواني ، وان البلاد العربية منحازه للمعسكر الاشتراكي الداعي للسلام » .

ويبدو واضحا هنا ان سارتر قد اتخذ « موقفا » ، وتخلى عن موقف « الحياد » أو « الغياب » الذي كـان قد أعلنه قبل يومين او ثلاثة من صدور البيان في العدد الخاص من مجلة « تان مودرن » .

لقد جاء في المقدمة التي كتبها سارتر لهذا العدد الذي حرره كتـــاب عرب واسرائيليون قوله بالحـرف الواحـــد :

« ان الحياد (في النزاع العربي الاسرائيلي) لا يمكن أن يصدر الا عن اللامبالاة . وأعترف ان هذا موقف سهل ما دام صاحبه باقيا في أوروبا . اما اذا قام برحلة، كما فعلت ، ورأى حول غزه الموت البطيء بين صفـوف اللاجئين الفلسطينيين ، والاطفال المنقعين الناقصـــي التغذية ، ابناء أبوين ناقصي التغذية ، بعيونهم المظلمة المنطفئة ، واذا راى ، في الجهة الاخرى ، في «الكيبوتز» القائمة على الحدود ، الرجال يعملون في الحقول تحت التهديد المستمر ، والملاجىء المحفورة في كل مكان بين البيوت ، واذا تحدث الى ابنائهم الذين أصابوا غـــذاء جيدا . ولكنهم يحتفظون في اعماق عيونهم بقلق لا استطيع وصفه ــ فانه لا يمكنه أن يظل محايدا ، ذلك انه سيعيش الصراع بهوس ، ولا يستطيع ان يعيشه من غير تململ وتبرم مستمرين ، ومن غير أن يقلبه بحثا على جميـــع جوانبه ، ويلتمس له حلا ، فيما هو واثق من ان هـــذه المساعي لا طائل تحتها ، وان الامر سينتهي على النحو الذي يقرره الاسرائيليون والعرب . ولهذا أحتفظ لنفسي بحق ان انشر ، هنا بالذات ، في الخريف أو الشتـــاء القادم ــ بعض التاملات التي اوحت لي بها رحلتي (...) واذن ، فلسنا هنا «حياديين» ، بل نحن «غائبون» » .

في هذا الكلام « لا موقف » واضح ، بالرغم من ان سارتر قال في جزء اخر من المقـــدمه ، كتبه بعد تازم الموقف ، وقبل وقوع العدوان : « اننا ندين مقدمـــا العدوان من حيث اتى ، كما ندين الاستفزاز الذي يجعل الحرب امرا لا مفر منه » . ولكن سارتر لا يوضح هنـا أي استفزاز يقصد : اهو استفزاز اسرائيل حين هـدد اشكول بالزحف على دمشق وقلب نظام الحكم فيهـا ، أم انه يعتبر اغلاق مضايق تيران استفزازا ؟

واذن ، يبقى سارتر في مقدمة مجلته «محايدا» أو «غائبا» . أما في بيان المثقفين فقد تخلى عن الحيـاد واصبح «حاضرا» ووقف بجانب اسرائيل حين وافق على انها « تبرهن على رغبة واضحة فـــي السلام وضبط النفس » وان « وجودها موضع تساؤل وشك » وان من الضروري حفظ سلامتها وسيادتها ، وانها ليست ، على اقل تقدير ، منحازة « للمعسكر الامبريالي العدواني » .

لقد قال في مقدمة المجلة : « نحن ممزقون ، ولا نستطيع أن نفعل شيئا » .

أما في بيان المثقفين ، فقد قال شيئا ، وعلـــل موقفـــه .

يبقى ان البيان والمقدمة قد صدرا قبل العدوان.. ويجب أن نعرف موقف سارتر بعد العدوان . ألا يزال سارتر يعتقد بأن اسرائيل قد برهنت على « رغبةواضحة في السلام » ؟ ألديه بعد شك في انها هي التي قامت بالعدوان ؟ واذا كان يقصد بالاستفزاز اغلاق تيـران ، فلماذا ينسى ان التهديد باحتلال دمشق هو الاستفـزاز الاكبر والاخطر الذي لم يكن اغلاق المضايق الا جوابـــا بسيطا له ؟

***

لقيت الصديق الاستاذ لطفي الخولي في القاهرة ، بعد العدوان ، فحدثني عن لقائه بسارتر في باريس بعـد وقف القتال ، وروى لي طرفا من حديثه معه ، وانتهى الى القول بأن سارتر قد غير الان موقفه ، وانـه يديـن العدوان الاسرائيلي ، ويعتبر دايان مجرم حرب ، ويعتبر

اسرائيل كلب حراسة للامبريالية الاميركية ...

وابلغني الاستاذ الخولي انه سينشر حديث سارتر كله في « الاهرام » ، ولكنني قلت له :

ــ اذا كان هذا هو موقف سارتر الجديد ، فان المثقفين العرب ينتظرون ان يصدر بيانا جديدا يعبر فيه عن رأيه ، وانهم لا يكتفون بهذا الذي قاله لك شخصيا ، مع كامل تقديرهم واحترامهم ... انهم ينتظرون ان يذيع بيانا ينشره على الراي العام الفرنسي والعالمي ، في صحف باريس ...

واستطردت أقول :

ــ ... اذا كان هناك بعد صحف فرنسية لم تشترها الدعاية الصهيونية !

فابتسم لطفي الخولي وأجاب بأن سارتر قد وعد بنشر بيان عما قريب .

وقرأنا بعد ذلك الحوار الكامل الذي دار بين سارتر ولطفي الخولي ، وقد نشرته « الاهرام » على جزئين (١) .

ولا ريب في ان قارىء هذا الحديث سيقف دهشا متعجبا !

ان سارتر قد غير موقفه ، بل قلبه راسا على عقب، بالرغم من اصراره على القول بأنه قد أسيء فهم موقفه في البيان ، وبالرغم من ان له بعض وجهات النظر التي لا نوافقه عليها والتي يبدو انها قائمة اصلا على عدم فهم لبعض جوانب القضية الفلسطينية .

انه في حديثه يؤكد انه لم يقف ضد العرب في بيان المثقفين الفرنسيين ، بل وقف ضد الحرب . وانه كان وما زال وسيظل دائما حليفا للشعوب العربية وصديقا لها ، وان اسرائيل هي التي بدأت العدوان وكانت متأهبة للهجوم فعلا ، وان القوى العسكرية والدينية المتعصبة والرجعية هي القوى المسيطرة في اسرائيل في هذه الظروف ، وان اسرائيل لا تشكل حلا للمشكلة اليهودية ، وان توسيع حدود اسرائيل على حساب العرب لاستيعاب المهاجرين على الدوام هو اتجاه خطير لا ينبغي التسليم به .

وقد أقر سارتر كذلك وجهة النظر العربية بأنه قد حدث في ١٩٥٦ و ١٩٦٧ تواطؤ بين الاستعمار واسرائيل ، وان الحرب التي اشعلتها اسرائيل أخيرا لا يمكن الا ان تخدم المصالح الاميركية . وصرح سارتر بانه لا يعتبر اسرائيل بلدا تقدميا لان تطورها لا يجري في اتجاه تقدمي ، وان تطور القطاع الخاص فيها قد قضى تماما على كل المعطيات التقدمية . ووصف نضال الشعب الفلسطيني بأنه حرب تحريرية مشروعة ، وان عودة الفلسطينيين الى أراضيهم هي القضية الاساسية ، في حين ان مشكلة الدولة الاسرائيلية مشكلة ثانوية ، واعترف بأن وضع الفلسطينيين في الارض المحتلة هو وضع مواطنين من الدرجة الثانية .

وقد انهى سارتر حواره مع لطفي الخولي بالعبارة التالية :

« أرجو ان تنقل للشعب المصري وجميع الشعوب العربية تضامني معها في هذه المرحلة . انني أفهم جيدا جراحها وأشاركها مشاعرها واتمنى لها الاستمرار في نضالها . كما اتمنى للرئيس جمال عبد الناصر ان يلقى دائما ما تأكد أخيرا من تأييد الجماهير الشعبية له ليواصل نضاله وانجازاته » .

كل هذا جاء في حديث سارتر « للاهرام » . وهو كما يرى القارىء لا يمكن أن يتفق مع موقف المثقفين الفرنسيين في بيانهم ، وليست القضية ، كما يدعي سارتر ، سوء فهم لموقفه ، بل انها تغيير كامل لهذا الموقف ...

وليس امامنا مجال للشك في أمانة الاستاذ لطفي الخولي ، وأمانة جريدة « الاهرام » في نقل هذا الحديث ونشره . فكل هذا الذي يقوله سارتر منسجم أصلا مع تفكيره ومواقفه السابقة وفلسفته السياسية كلها . وكان العجب أن يتخذ الموقف الذي ظهر في بيان المثقفين ، لا هذا الموقف الذي عبرت عنه « الاهرام » ...

ومع ذلك ، فقد انقضى الان اكثر من شهر على نشر هذا الحوار ، ولم يصدر في الصحف الفرنسية ، على ما نعلم ، اي حديث لسارتر يؤكد فيه هذا الراي الذي توجه به الى الشعب العربي ...

وبالرغم من ان المثقف العربي يسعده أن يرى هذا الموقف من سارتر ، سواء أكان موقفا جديدا فرضه تطور الظروف بين بيانه السابق والعدوان الاسرائيلي ، أم كان توضيحا وتفسيرا لذلك الموقف كما يريدنا سارتر ان نصدق ، فان هذا المثقف العربي حريص على أن يصدر سارتر بيانا جديدا واضحا يضمنه هذه الاراء ويحدد فيه موقفا نهائيا من هذا الصراع العربي الاسرائيلي .

ونحن الذين سارعنا الى استنكار بيان المثقفين الفرنسيين ، واتهمنا سارتر بالسقوط في أحضان الصهيونية ، نرى ، بعد حديث المفكر الفرنسي الى « الاهرام » ، ان نتريث في انتظار البيان الموعود ، أو في انتظار الدراسة التي وعد سارتر بنشرها في الخريف او الشتاء القادم . ولا شك في اننا سنظفر انذاك براي واضح نتخذ على اثره موقفا حاسما من سارتر .

وهذا لا يمنعنا من التعبير عن أملنا في أن نكتسب ــ من جديد ــ هذا المفكر الكبير الى صفوفنا .

سهيل ادريس

(١) اقرأ نص الحديث في مكان اخر من هذا العدد .

لكي لا يبتلعنا التيار !

بقلم الدكتور ميشال سليمان

لعله كان في مثل حالنا ذلك الشاعر الذي قال :

« غصنا في ابحر ثلاثة
وتقلينا في قدور ثلاثة
وانغمسنا في دماء ثلاثة
فنحن بين الطاهرين طهارى » .

وهل ثمة مطهر للشعوب ، تلقي فيه بادرانها ، فتطهر من وهنها وضعفها ، انظف من ابحر ثلاثة ، تغوص في لججها ، تصارع حيتانها ، وتطفو على تبجها شماء الانوف ، ووجهتها شاطيء الامان ؟

وهل ثمة حومة للشعوب ، تتبارى في دوامتها مع قوى البغي والعدوان ، اقدر على الخلاص من قدور ثلاثة ، تتقلى بزيتها اللهاب ، وتعاول فقاقيع غليانها ، حتى تخرج من قلب السعير وكأنها سعير بألف رجل وساعد من نار ؟

وهل ثمة اوفر في البذل حظا من الدماء ، تريقها الشعوب على ثراها الجديب ، فتتململ في ثناياه البذور الهاجعة ، وتتفتق ارحامه عن خصب وعطاء جديد ؟

تلك اطوار الاقدار في حكم مسيرتنا المصيرية ، جبهنا بكل ما في اكفها من عسف وجبروت ، فجبهنا لها طرح العزيمة ، واشرعنا في وجهها درق الزيف المصدور . ولما جاء دور تصنيف المغانم والمغارم ، انبرت لنا الاصابع الهزيلة المسلولة ، اياها ، تخط شعارات البلاسم العجفاء ، وترفعها في وجوهنا سترا لعار لحق بنا فمحق ، واخفاء لحفنة من خمير يتململ في العجين الكبير ، ولن يلبث حتى يطلع علينا ، برغم كل الاحزمة ، بالخبز المريء .

فمهما قيل في الحدث الذي حصل في عالمنا العربي ، لبضعة اسابيع خلت ، لن يبدل من واقع كوننا عشنا من عمرنا المديد ، لحظة بدعا كانت ، وايم الحق ، نقطة سوداء في صفحة تاريخنا الضخم ، حكومات ، وشعوبا ، وغالبية قادة وزعماء .

واليوم ، والغلة لما تزل ملقاة على اكثر من بيدر ، يجدر بنا ان نقيم الميزان ، لنعرف مدى ما جنينا خلال مرحلة من الزمن امتدت حتى بلغت ربع قرن ، او تكاد . ولكي يستقيم لنا المعيار ، لا بد لنا من القاء نظرة عجلى على ما طوينا من حواشي طريقنا الطويل ، لعلنا نرى في غضونه ومنعرجاته ما يكشف لنا بعض العرج الذي اصابنا ، وبعض الهزال الذي تمكن منا ، وبعض النفاق الذي حمل في احايين ، وفي مقدمة الركب ، لافتات الشعارات المضللة ، ايهاما للجماهير العربية المناضلة من اجل غد افضل ، انها سائرة الى اهدافها بيقين وعزيمة لا تني .

ولعل افدح ما يراود الاذهان اليوم ، الاعتقاد بان العدوان الاسرائيلي الذي استشرى على البلدان العربية في الخامس من حزيران الماضي ، هو ابن يومه ، او بعض عمره في ابعد تقدير . فالعدوان الاسرائيلي على شعوبنا العربية ظهرت بوادره يوم اخذت الدول الاستعمارية في مستهل هذا القرن تمهد للاستيلاء على ثرواتنا البترولية ، والتمركز في منطقتنا بوصفها موقعا استراتيجيا هاما في منعطف ضخم من كل القارات .

وقد اخذ هذا النهم الاستعماري يتضخم ويرتدي في كل طور رداء جديدا ، حتى كان وعد بلفور المشئوم ، الذي دفع بالقضية الصهيونية الى صعيد التحرك العملي ، بعدما عاشت مدة طويلة تخطط للجريمة المبيتة بحق شعب كل مصيبته انه كان ضحية فقر مادي ومعنوي ، وقربان خيانة سوداء تأنف ان تنعت بها اقذر قملة .

والواقع ان الدول الاستعمارية ظلت تنطلق بالقضية الصهيونية صعدا الى ان وجدت لها تعبيرا عمليا في دولة اسرائيل ، في اللحظة التي كانت فيها الحكومات العربية غارقة في مستنقع التبعية يتأكلها الجهل والعمى السياسي ، وتنخر في اصلابها ديدان الرجعية ، ويسوق فيها الطغيان قوافل الاحرار بعصا الاجنبي الدخيل ، والمواطن العميل .

وعندئذ لم يكن بد من قيام تحول في خريطة الاتجاه السياسي العربي لما لوحظ من استشراء الدول الاستعمارية ، التي انبرت تحيك المشاريع والاحلاف العدوانية لتحول بواسطتها دون تقدم الشعوب العربية ، ولتجعلها بشكل دائم ضمن مناطق النفوذ . وكان من سخاء مرحلة قصيرة من التطور السياسي في عالمنا العربي ، ان حصلت النتائج الثانية :

- انخلعت الملكية في مصر ، وقامت جمهورية تنادي بالسلام والحياد .
- كثرت مشاريع الاحلاف الاستعمارية .
- قامت المظاهرات الجماهيرية الضخمة في كل
- بدات الانقلابات العسكرية في سوريا .

العواصم العربية تنادي بعدم الانحياز .

● شقت الدول العربية المتحررة ـ مصر وسوريا ـ طوق الاستعمار واخذت السلاح من الدول الاشتراكية .
● نشبت الثورة اللبنانية ضد مبدأ الانحياز .
● تهدمت الملكية في العراق وقام الحكم الجمهوري .
● قامت الجمهورية اليمنية .
● اممت قناة السويس .
● حصل العدوان الثلاثي على مصر ، ثم انحسر بفضل الاتحاد السوفياتي .
● قامت الوحدة بين مصر وسوريا .
● نكب الشيوعيون العرب على يد القادة العرب .
● طلعت جبهات سياسية عربية اطلق عليها اسم « اليسار » .
● نشبت خلافات على صعيد الحكومات العربية .
● انفكت الوحدة بين مصر وسوريا .
● استمرت الخلافات العربية ، وما زالت حتى اليوم ، واغلب الظن انها لن تتوقف بغير انتصار قوى التقدم على الرجعية .

والحق ان هذه الاحداث كانت من الخطورة بحيث لم يبق مواطن عربي بمعزل عن مجرياتها . وعبر دوامة هذه الاحداث المتكدسة على صعيد الواقع العربي ، كانت الدول الاستعمارية ، وفي طليعتها الولايات المتحدة الاميركية ، تمعن في توطيد كيان اسرائيل كوجود لها مصغر ، تنطلق منه للايقاع بالدول العربية ، وجعلها ضعيفة متخلفة ، غير مستقرة ، وفريسة الاحتكارات الاميركية والانكليزية والالمانية .

وهنا تجدر الملاحظة أن الدول العربية ، والمتحررة منها بنوع خاص ، كانت حتى عشية العدوان الاسرائيلي ، تفرق بين هذا الوجود المصغر للاستعمار الذي اسمه اسرائيل ، وبين اسرائيل ذاتها ، فتحاول تارة بالاساليب السياسية المألوفة ، وتارة بالجهل النشيط ، ان تكسب شيئا من عطف الولايات المتحدة الاميركية عن طريق التصريحات الباسمة والكلمات المزهرة ، بحيث فاجأها العدوان وهي تكاد تكون في غفلة من امره وامرها ايضا ، فقامت في غفلة النوم السياسي تنادي بعظائم الامور . وقد ابصرت ، بالتالي ، بكل حواسها ان الولايات المتحدة الاميركية ، وحلفاءها ، قد امدت اسرائيل بجميع المساعدات القمينة بتحقيق النصر على العرب ، بغية فرض شروط الصلح فيما بعد ، وتوطيد كيان القاعدة الاستعمارية ـ اسرائيل ـ ، كما انها ابصرت بالمقابل ، ان ليس لها من حليف او صديق يدعمها بالسلاح وفي المحافل الدولية سوى الاتحاد السوفياتي وجميع البلدان الاشتراكية الاخرى .

وهنا لا بد لنا من ان نطرح السؤال التالي :

« لماذا منيت الدول العربية ، والمتحررة منها بوجه خاص ، بهذه « النكسة » الشنعاء التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الهزائم ؟ » .

الجواب على هذا السؤال يستلزم بالضرورة الصراحة التي ترادف الحقيقة . وهذا لعمري مما لم يتعود الدارسون اعلانه في عصرنا هذا لاسباب منها معلوم ، ومنها مجهول بالنسبة لفئة كبيرة من المواطنين العرب .

اننا منذ عدة سنوات نقول بوجوب احداث تبديلات في القيادات العربية ، على صعيد الحكومات والهيئات والاحزاب ، لانها على ما يبدو ، استنفدت الغايات التي جاءت من اجلها ، او كادت ، واصبحت متخلفة بالقياس للواجبات والمتطلبات التي تفرضها روح المرحلة التاريخية التي تجتازها الشعوب العربية المناضلة من اجل غد افضل .

وهذا لا يعني ان القيادات تلك القت راية النضال الوطني ، وتشبثت بأوهامها القيادية وحسب ، بل ان ثمة طبقة جديدة نشأت في العشرينات الاخيرة من هذه المرحلة التاريخية ، وتبلورت على صعيد النضال الوطني ، واكتسبت من انفعالها بمحك العمل التجريبي انها بحاجة الى قيادات جديدة نابعة من ذاتها ، تأخذ مصالحها بعين الاعتبار ، وتتفاعل واياها بوصفها حلقة من حلقات النضال ضد الاستعمار بجميع اشكاله ، وان كل انتصار تحرزه انما هو انتصار على الاستعمار ذاته ، وان كل هزيمة او نكسة تمنى بها تشكل انتصارا للاستعمار على الصعيد العالمي ، لا على الصعيد المحلي وحسب .

ترى ، هل حصل شيء من هذا ؟

هل قامت في احد البلدان العربية المتحررة حركة تطالب برفع النضال الوطني في الداخل الى مستوى النضال الامي ضد الاستعمار ؟

وهل وفقت بالمقابل ، بين نضالها الاممي وبين نضالها الوطني ؟ الا في الندرة النادرة من المواقف التي كانت تفرضها الشروط الذاتية للمعارك النضالية .

وان قامت مثل هذه الحركة ، فهل افسح لها مجال التعبير عن مقاصدها واهدافها ، ام وئدت في مهدها مخافة « الفضيحة » التي ستخلفها ، على نحو ما كان اجدادنا العرب يئدون بناتهم مخافة جلب العار ؟

ان شيئا من هذا لم يحدث ، وان حدث فلكي يظهر موسميا ويذوي في مطلع الموسم الذي يلي ، لتحل محله العبارات الثورية الطنانة التي تفقد معناها منذ ما تبين استحالة وضعها على محك العمل التجريبي والتنظيمي .

وقد كان هم الحكومات العربية المتحررة ، يدور حول البناء الاشتراكي ، والعمل الاشتراكي ، والتدابير الاشتراكية ، كل ذلك بمعزل عن الاشتراكيين الحقيقيين الذين كانوا وما زالوا يناضلون لذات الاهداف التي تناضل من اجلها الحكومات العربية ، اياها ، وبكل ما ملكت ايديهم من وسائل .

وكانت الحكومات العربية تنادي بالبناء السياسي والفكري والاجتماعي المتحرر ، والاشتراكي في اغلب الاحيان ، وليس لديها اي منهج علمي ليستقطب السياسة والفكر والاجتماع جميعا .

وكانت الحكومات العربية ، اياها ، تقول بالتطور الاقتصادي الاشتراكي ، ولم يكن لديها اي تصميم علمي يخرجها من دوامة اخر معطيات الانظمة الفردية المتمثلة براسمالية الدولة وبعض التأميمات التي تفرضها مراحل نمو القطاع العام الذي بين يديها .

وكانت الحكومات العربية تجاهر بتعبئة الجماهير وتنظيمها لكي تضعها في مكانها من معركة البناء الاجتماعي ، ولكنها بالمقابل تسلم قيادها الى عناصر مشبوهة رضعت لبان كراهية الجماهير والديموقراطية والحرية .

وبكلمة اخرى ، كانت الجماهير العربية اكثر ثورية من حكامها وقادتها في احايين ، بحيث كنا نرى هذه القيادات تبذل قصاراها للجم الجموح الشعبي دون محاولة توجيهه وتعبئته لكي يقوم بدوره التاريخي في تحويل المجتمع .

ولهذا ، كانت النكبة الحالية الناجمة عن العدوان الاسرائيلي فادحة وعميقة حتى العظم . وقد تكشفت عن اشياء في اعلى درجات الخطورة ، نوجزها بما يلي :

١ ـ الدول العربية مجموعة متنافرة الاهداف .

٢ ـ لا وجود لمثل اعلى واحد تناضل من اجله مجتمعة .

٣ ـ تفتقر الى التعبئة والقيادة البعيدة النظر .

٤ ـ معظم القوى المحاربة اظهرت انها عاجزة ، يتآكلها سوس الانتهازية ويشلها عفن العفوية .

٥ ـ ظهر من خلال جلسات مجلس الامن وجمعيته العمومية ان لا قيمة لما يسمى بالحياد الايجابي ، وعدم الانحياز .

٦ ـ ظهرت الدول الاشتراكية على انها هي وحدها الملاذ الوحيد الذي يمكن للدول العربية ان تلوذ به ، وتفزع اليه ، وتعتصم بحبل قوته كلما هبت عليها رياح الاستعمار .

٧ ـ كشفت اطوار النكبة عن زيف المقالات الطوال، والتقارير الرسمية ، كما كشفت ايضا خنوع وانتهازية العديد من الجهات التي وضعت نفسها في موضع القيادة والتنظيم ، متخلية بذلك عن دورها النضالي التاريخي ، توجيها ، ونقدا بناء ، ووقوفا في خط النار دونما تبعية وبغير استسلام .

٨ ـ ان العرب عاجزين عن ان يستخدموا كل طاقاتهم المادية والمعنوية في الدفاع عن حقهم في الحياة والمصير .

٩ ـ ان الحرب تفرض وجوب التمرس باستخدام السلاح واتقان اساليبه الحديثة .

١٠ ـ ان اكثرية الادباء ، وقادة الفكر ـ وخاصة في لبنان ، وقد ظهر ذلك خلال الاجتماعات والمؤتمرات التي نظمناها وعقدناها في بيروت ـ كانوا على هامش القضية منذ نشوئها حتى اليوم . ولما انفجرت في وجوههم ، وقفوا منها موقف الخائر المصعوق .

ورب قائل يقول : هذه حقائق فيها من الواقع ما فيها من بوادر الاعجاز في حله . واجيب : بأن المكاشفة والصراحة اخلص ما نعتصم به في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ تطورنا العام . وان من كتم علته ، قتلته . فلا حياء في العلم .

ان هيئات ثورية بحجم المصير لا يمكن بناؤها وحصحصة أسسها الا على صعيد الانتقاد البناء . اما اولئك الذين قضوا ردحا من الزمن يسودون الصحائف بالمقالات الثورية الراعدة ، ويتبعقون على وجوه الجرائد ، هنا وهناك ، بالنصائح تارة ، وبالوعظ البليد تارة اخرى ، فحري بهم الان ان يتواروا عن مسرح الاحداث ، لانها تخطتهم ، فهم منها في مثل ما يكون الغريق من تقلب التيار .

اما نحن ـ حكومات اولا ، وشعوبا ـ فأمامنا الفرصة الكبرى لمسح وعثاء النكبة عن جباهنا ، والنهوض من الكبوة لاستئناف مسيرتنا الطويلة . ولهذا ، نحن بأمس الحاجة الى قيادات تكون من زمننا ولزمننا ، لا متخلفة بمعنى الجاهلة ، ولا مستقبلية بمعنى الطوباوية ، ترتفع بالقضية الى مستواها التاريخي ، على انها ليست معركة بين دول عربية وبين اسرائيل ، وانما هي معركة بين الشعوب العربية وبين الاستعمار ، وانها جزء من المعركة الكبرى التي تخوضها الشعوب اليوم من اجل حريتها واستقلالها الوطني . وان كل انتصار يحرزه الاستعمار

ـ التتمة على الصفحة ٩٨ ـ



قال لي وهو يتاملني مليا ، وصوته يفيض بالاشفاق والعطف :

ـ ما الذي جاء بك الى هنا ؟ انت ما تزال صغيرا !

فقلت ، وانا ما ازال انظر حولي مندهشا مما كنت اراه في تلك الغرفة الصغيرة العجيبة :

ـ انها قصة طويلة .

فقال :

ـ لا باس في ذلك . اظن ان ما بقي من الوقت يسمح لنا بان نروي بعض القصص . فالعدد كبير اليوم ، وسيتطلب الامر وقتا طويلا. ومن يدري فقد لا يحل دورنا الا بعد ان يموت الجميع !

فنظرت اليه بحيرة وقلت :

ـ ماذا تعني ؟

الا انه اهمل سؤالي وقال باصرار :

ـ اخبرني بقصتك ، وساخبرك بما اعنيه فيما بعد . كيف جئت الى هنا قبل الاوان ؟

فقلت له وانا انصرف اليه تماما ، لاروي له ما حدث لي ، ولابعد عيني عن المناظر المفزعة التي كنت اراها حولي في الغرفة ، من الآلة الغامضة الرهيبة ، الى الرؤوس المقطوعة ، والدماء النازفة والسيقان المرتجفة الرافسة ، والرجال المحتشدين :

ـ لا استطيع ان اتذكر الان كيف بدأ الامر كله ، ولكنني استطيع فقط ان اتذكر ذلك المكان الغريب الذي اكتشفت نفسي فيه مع المئات من امثالي . كنا نحتشد في ساحة واسعة مسورة ارضيتها طينية رطبة مكتظة بالاقذار ، تحيط بها جدران عالية فيها نوافذ واسعة ينفذ منها بين حين واخر ضوء باهر ما ان يتسلل عبر اجفاني المطبقة الحالمة حتى افتح عيني واشعر بخوفي يتبدد وبمرح غامر يملأ جوانحي ورغبة عارمة في القفز واللعب وتناول الطعام ولكن ذلك النور لم يكن يستمر دائما ، وانما كان يختفي بعد فترة من ظهوره في كل مرة ، وسرعان ما تغرق تلك القاعة العجيبة في ظلام مخيف مرعب يفزعني فاغمض عيني واخفي نفسي بين الحشد حتى يبزغ النور من جديد .

وكان هنالك رجل يحضر مع ظهور النور في كل مرة وهو يحمل وعاء كبيرا يغترف منه الطعام ويكومه على مقربة منا فنهرع فرحين قافزين متنافسين على الاماكن القريبة من الاوعية ناكل وناكل حتى تصيبنا التخمة ثم نشرب الماء العذب الذي يحمله الينا فيما بعد ويملأ به اوعية اخرى يضعها قرب اوعية الطعام .

وكنت استيقظ قبل الاخرين كلما شعرت بظهور النور وبدغدغته الحلوة لاجفاني المطبقة فاقفز على الحواجز الخشبية العالية واصرخ باعلى صوتي وانا اكاد اطير من الغبطة ، واوقظ الاخرين واتغنى لهم بما احس به من نشوة واستمتاع بذلك الشعاع الرائع . ولكنهم لم يكونوا ليكترثوا لشيء غير الطعام والشراب . وكأنهم لا يرون الشعاع ولا يحسون بذلك الشعور البديع المثير . فيتكاكاون قرب الحاجز الخشبي في انتظار الرجل واوعيته .

وكنت اصغي لاصوات اخرى تصدر من مكان قريب ، اصوات اقوى من اصواتنا واخشن ، واسال الاخرين عنها ، ولكنهم كانوا يقولون لي انهم لا يسمعون شيئا وانني لا بد ان اكون حالما .

وتكرر ظهور النور واختفاؤه مرات ومرات لا استطيع الان ان اتذكر عددها بالضبط . وبدأت الاحظ شيئا فشيئا انني كنت اكتسب قوة جديدة ، ولم اعد اتعثر كلما قفزت على الحواجز الخشبية ، بل انني كنت انمو باستمرار وكان الاخرون يكبرون مثلي ايضا . وفي مرة من المرات ظهر النور وتبدد الظلام وتجمع الاخرون عند الحاجز الخشبي بانتظار الطعام ، واذا بالرجل يحضر على غير عادته . فلم يكن يحمل طعاما وانما كان يحمل عصا طويلة راح يمدها بيننا ويخيفنا بها ، وكان الاخرون يهربون في الاتجاه البعيد عن العصا . وكنت انا ارقب ذلك كله من مكاني فوق الحاجز الخشبي واستطعت ان ادرك ما كان الرجل يفعله . كان يقود الاخرين نحو باب واسع يتدفق النور منه رائعا مغدقا . وحين اكتشفت ذلك هرعت بدوري واجتزت اولئك الذين سبقوني وانا اترنم فرحا ، ووقفت عند الباب بضع لحظات ، مبهورا بذلك القرص الساطع الهائل الذي كان يحملق في عيني من بعيد ، وحين اعتاد بصري عليه واستطعت ان افتح عيني وانظر حولي ، اكتشفت دنيا جديدة لم اكن لاحلم بها من قبل . كانت هنالك حرية شاسعة واسعة فوقي وحولي ، وفضاء ازرق العمق ضاعت فيه عيناي الصغيرتان ، وكانت الارض تمتد في كل اتجاه ، هائلة الاتساع ، خضراء نظيفة ، يتلالأ فيها العشب تحت وهج ذلك القرص العظيم . وكان الهواء منعشا معطرا ، يملأ صدري بنشوة غريبة . وبلغ بي الذهول والمتعة مبلغهما ، فطفقت اقفز واهتف باعلى صوتي دون ان ادرك انني كنت ابتعد عن زملائي الذين كانوا ما يزالون واقفين عند الباب يبحثون في الارض عن الطعام . وعجبت من امرهم . فلم اكن لافكر في تلك اللحظة بطعام او شراب ، وانما كنت استمتع بما كان حولي من الروعة والجمال والسحر ، ولم اكترث لهم ، كما انهم لم يكترثوا لهتافي ، ومضيت اقفز هنا وهنالك فرحا منتشيا مغتبطا .

كانت تلك لحظة رائعة عرفت خلالها اشياء كثيرة اهمها انني كنت حرا ، وانني كنت ادرك حريتي تلك . ومرت فترة ، ثم رأيت الرجل يغادر الباب بعد ان قاد زملائي جميعا امامه وسار وراءهم وهو يستحثهم بعصاه نحو باب اخر قريب ، وما هي الا لحظات حتى اختفى الجميع في الداخل ، ووقفت انا في مكاني البعيد ذاك حائرا لا اعرف ماذا اصنع . فلم اكن لاستسيغ السجن من جديد بعد ان ذقت طعم الحرية، ولم يطب لي ان اغادر ذلك الاتساع الهائل حولي . وبعد قليل ، خرج الرجل وحده من الباب واغلقه مخلفا زملائي وراءه ثم سار نحو باب اخر وفتحه ودخل ، ومرت فترة اخرى ثم خرج حشد من الصغار ، الذين يشبهونني حين كنت صغيرا ، وكان الرجل يسير خلفهم وهو يستحثهم بعصاه ايضا ، وادخلهم الى القاعة التي خرجت منها انا وزملائي ثم خرج واغلق الباب خلفه وسار مبتعدا حتى غاب عن بصري . الان اسقط في يدي . فلم يعد في وسعي ان اعود الى الاخرين حتى لو رغبت في ذلك ، وانذاك هاجمتني مشاعر مختلفة محيرة اذ شعرت بوحشة معذبة ، وانعصر قلبي خوفا ولهفة ، ثم ان الجوع بدأ ينهش في امعائي ، واحترق بلعومي من العطش ، ورحت ابحث في الارض عن شيء من الطعام ، واشد ما اسعدني انني وجدت بعض الطعام هنا وهناك ، ومضيت التهم ما كنت اعثر عليه من اشياء كانت جديدة علي ، لذيذة ، غريبة المذاق . وبينما كنت اتجول على العشب الاخضر الندي عثرت على بركة صغيرة مملوءة بماء اسود ليس كالماء الصافي الذي كان الرجل

يأتي به الينا . ولم اجد بداً من الاكتفاء بذلك الماء فشربت حتى ارتويت، ووقفت بعد ذلك انظر حولي لاستكشف المكان بعد ان مللت الطعام والشراب .

كانت هنالك ابنية كثيرة شاهقة تنتظم في صفوف على طول طريق تتوسطها وتتجه نحو افق مجهول . وكنت اسمع اصواتا كثيرة خلف الجدران . لا بد ان هنالك الالاف من امثالي خلفها ولكن الابواب كانت مغلقة ، ولم يكن في وسعي أن امر الى داخلها . وبينما كنت اتامل في كل ذلك لاحظت ان قرص النور الهائل كان يضعف ويهبط بعيداً وراء الارض ، فادركت بفزع شديد ان الظلام سيحل بعد قليل ، الظلام المرعب المخيف . فماذا سأصنع وحدي ؟ ورحت اندب حظي والوم نفسي على طيشي وتسرعي . وكان القرص المنير الهائل ما يزال يسرع في الهبوط خلف الارض ويكاد يختفي شيئا فشيئا ، وفي الناحية الاخرى كان الظلام يسير بخطى وئيدة ثقيلة ، سوداء ، مغلفا كل شيء بوشاح هائل من الرعب والحيرة . وبلغ بي الفزع مبلغه وطفقت اقفز يمينا ويسارا باحثا عن زاوية اختفي فيها ، وحاولت مرات ومرات ان اجد لي منفذا عبر الابواب والنوافذ لاعود الى زملائي ولكنني لم اوفق في محاولاتي ، واخيراً لمحت صفيحة قذرة سوداء منكفئة على جانبها فهرعت نحوها والظلام يطبق شيئاً فشيئا على كل شيء حولي ودخلت فيها وحشرت جسمي في قعرها ملتصقا بجدرانها وزواياها وانا ارتعد خوفا ، ولم استطع ان اغمض عيني في الظلام ، وانما كنت احملق فيه وكأنني كنت استشعر خطراً قريبا او كارثة اكيدة . وتصورت في حالتي تلك ان زمن الغبطة والمرح قد انتهى وان النور لن يظهر مرة اخرى ابدا وان حريتي كانت عبئا ثقيلا هائلا لم يكن في وسعي احتماله ، ورحت افكر في ذلك الاطمئنان الذي كنت اشعر به الى جانب زملائي ، حين كنت ادفن نفسي في دفء اجسامهم الملتصقة المتقاربة ، وزاد من يأسي وكآبتي شعوري بان الظلام قد ظل وقتا طويلا ، دهراً كاملا بلا نهاية ، وبينما كنت اتوقع الشر بين حين واخر ، وانتظر ان يهجم علي ذلك الشيء المجهول الذي كنت افزع منه ، استولى علي النعاس وشل اطرافي التعب والترقب فاغمضت عيني اخيراً ، مستسلما يائسا ، ثم انتبهت فجاة ، وادركت ان النور كان يداعب اجفاني من جديد ، وتمهلت قليلا غير مصدق ، ثم تشجعت وفتحت عيني ، ولشد ما كانت غبطتي عظيمة حين ادركت ان النور قد عاد حقا ، وان الحرية لم تكن سيئة الى ذلك الحد ، وان كل شيء ما يزال جميلا ، رائعا . ومددت قدمي بحذر وتردد وقلق ، وخرجت من الصفيحة الى الدنيا من جديد ، وغمرني الشعاع بدفئه وسطوعه ، وكان القرص الواسع المضيء يتالق مرة اخرى ، ويغمر العشب حولي بلالائه .

وانطلقت ابحث في العشب عن شيء آكله ، وكنت موفقا في بحثي . اذ عثرت على الكثير من الطعام الشهي الغريب الذي لم اكن اجده في اوعية الرجل ، وحين شبعت انطلقت نحو بركة الماء وشربت منها حتى ارتويت ، ثم سرت على مهل بين صفوف الابنية وانا اصغي للاصوات المبهمة الغامضة التي تصدر من داخلها ، وراء الابواب المغلقة ، وكان المكان خاليا ، ولم يكن هنالك أي اثر للرجل . مساكين زملائي ، فلا بد انه لم يحضر لهم الطعام بعد ، وبينما يتكأكأون الان عند الحواجز الخشبية ينتظرون الاوعية بفارغ الصبر ، حبيسي الجدران المعتمة ، والارضية القذرة الحافلة بالفضلات والنتن والعفونة ، استمتع انا بالحرية ، وبالنور ، وبكل ما اريده من طعام وشراب . صحيح انني دفعت الثمن غاليا في ذلك الظلام الرهيب ، ولكن خوفي تبدد الان ، ولم تبق غير نشوتي بحريتي ، مع انها تمتزج في اعماقي بحنين غامض الى رؤية زملائي قليلا ، والقفز والمرح والعبث معهم في مستقرهم الجديد .

وبينما كنت اسير على المر ، لاحظت انني كنت اقترب من نهاية صفي الابنية ، وفي تلك النهاية رأيت الباب الاخير مفتوحا . وسرني ذلك سرورا عظيما . فسيكون في وسعي اخيراً ان احقق رغبتي في رؤية بعض زملائي واعود للاستمتاع بحريتي في نفس الوقت . واقتربت من الباب بحذر ، وسمعت اصواتا خشنة غير مألوفة الوقع في اذني ، تصدر من الداخل ، ومددت رأسي ونظرت ، وكانت عيناي ما تزالان مبهورتين بالنور ، فلم ار شيئا في اول الامر ، وما هي الا لحظات حتى اعتدت على جو القاعة المظلم ، ورأيت الحواجز الخشبية ذاتها ، ولكنني لم اجد زملائي خلفها ، وانما وجدت اخرين ، اضخم مني بكثير ، ينهمكون في تناول الطعام بشراهة ، ويتشاجرون فيما بينهم بعنف وشراسة . ومع ذلك اقتربت منهم ، ولاحظت ان الحواجز مسورة بشباك لا يستطيعون ان يمروا منه ، فوقفت انظر اليهم ذاهلا ، ولم يكن احد منهم يبدي اي اهتمام بي ، وانما كانوا منصرفين الى الطعام والشراب والشجار فيما بينهم ، وكانوا يفعلون بعض الامور المخجلة ايضاً .

وفجاة دخل الرجل وكان يحمل بيده عصاه التي كان في نهايتها قوس عجيب ، وحين رآني لاحت عليه الدهشة والانفعال ، وسمعته وهو يصرخ بكلام لم افهم معناه ، واقترب مني ، ففزعت وانطلقت هاربا ، ولكن عصاه امتدت نحوي فجاة ، واذا بالقوس الذي في نهايتها يلتف حول ساقي ، وما هي الا لحظات حتى امسكت قبضة الرجل القوية بساقي ، فصرخت عاليا ، ولكنه لم يكترث لصراخي ، وراح يمد عصاه بين الاخرين الذين كانوا ما يزالون يتشاجرون ويتنافسون على الطعام واجتمع معي في قبضته عدد منهم لم استطع ان اميزه ، فقد كانت سيقاننا محتشدة بين اصابعه الضخمة المتقبضة عليها بعنف مؤلم . ثم سار الرجل ونحن نتدلى من يده ونصرخ صراخا عاليا ثاقبا ، ودخل بنا الى غرفة ضيقة اجتمع فيها عدد من الرجال حول لوحة خشبية ممدودة ، وبراميل فيها حفر عميقة ، وشيء رهيب يدور بسرعة ، وكانت هنالك زاوية صغيرة مسورة القى بنا فيها .

وما ان تحررنا من قبضته حتى انطلق زملائي الجدد يقفزون ويبحثون في الارضية عن الطعام ، ينهش بعضهم بعضا ، بينما وقفت انا في الزاوية انظر الى ما كان يجري حولي ، حين اقتربت انت مني . والان ، تلك قصتي ، فاخبرني بالله ماذا يجري في هذه الغرفة المخيفة، وما الذي كنت تعنيه حين قلت ان الوقت يسمح لنا بتبادل القصص وان دورنا سيحل بعد أن يموت الجميع ؟

فقال لي زميلي الكبير ، وهو ينظر حوله في الغرفة :

ـ لا ادري اذا كان الوقت يسمح لي بان اخبرك بشيء حقا . انظر ! انه قادم .

ونظرت ، ورأيت الرجل يقترب منا ويمد يده ويقبض على زميل اخير من زملائي الجدد الذين كانوا ما يزالون منهمكين في تناول الطعام والقفز واللعب والشجار ، ثم يسير به نحو برميل من البراميل ، ورأيته يمسك في يده الاخرى بسكين طويلة ، ويمدها الى رقبته ، ثم رأيت الدم ينزف من الرقبة المقطوعة ، وما هي الا لحظات حتى كان ذلك الزميل ملقى في فوهة دائرة من دوائر البرميل العميقة ، ترتفع ساقاه فقط الى اعلى وهما ترفسان بعنف . فسألت صاحبي والرعب يتملكني :

ـ ماذا فعل ؟ لماذا يصنع به كل هذا ؟

فقال بكآبة :

ـ لقد فعل كل شيء .. اكل وشرب وتشاجر وتعانق واحب وكره كثيراً ... والان فها هو يموت . قلت لهم ذلك ولكنهم سخروا مني وانصرفوا الى تناول الطعام والشجار باستمرار . وكان هذا اشدهم سخرية !

فقلت له فزعا :

ـ يموت ؟ ماذا تعني ؟

فقال :

ـ انه يموت .. ينتهي .. لقد ذبحوه .. وهؤلاء الرجال ينتظرون لحمه . اترى تلك الآلة الرهيبة التي تدور ؟ انظر !

ونظرت ، فرأيت الرجل يقبض على زميلنا المسكين من جديد ، ولم يكن يتحرك آنذاك ، وانما كان رأسه ملتويا احمر من الدم النازف ،

ـ التتمة على الصفحة ١٠٣ ـ

مرثاة شاعر كنعاني

« الى الشاعر الشهيد ناهض الريس »

حين حملنا أسلحة الحزن على الاكتاف
حين كشفنا الاهداف
حين نشرنا في الصحف الاشعار
وتحدَّينا الاعداء
قالوا : شعراء !
يمتزج الوهم الكاذب بالشيطان
في شعرهمُ والنيران
قالوا : شعراء
يخدعهم وهج العقيانْ
لكني ناديتُ « وفاء » (١)
يا سيدتي قولي
ماذا صنع الشعراء ؟
ماذا صنع الشعراء ؟
في الخط الاول يحمل مدفعهُ
روحي ... روحك كانت معه
قال الجندي الاول :
ارفع رايتك البيضاء
قال الثاني : تسلم من نار الاعداء
لكنك كنت أبيا كالصحراء الرمليه (٢)
كنت أبيا كالطود الراسخ
ومشيت فراسخ
المطر يرشرش والريح شماليه
مطر الوعد بلقيا من ماتوا
مطر منا يقتات
نفحة ريح عربيه
جاءت من رمل الساحل
ورميت قنابل
كي تصل البحر الغربي المجروح
وتجيء طيور وتروح
كنت تغني :

غزة يا داري
غزة أغنيتي غزة أشعاري
لي أخت غزِّيه
شاعرة ترثي أنهاري
« سأشق الجيد سألطم لو
غرزوا في الرمل الاعلام
لو أكلوا خبز الايتام
لو نهبوا قمح الفقراء
لو سرقوا أشعارك يا ناهض
لكنــك رابض
في يدك اليمنى مدفعك الرشاش
كي تسقي منه عطاش
عشقوا سفك الدم . »
من وهج فؤاد ناديت « وفاء »
ناهضُ أغنية كنعانيه
تتنزه في البريه
وتشم الحنون الاحمر في السفح
في لون الجرحْ
في لون الموت الغامض
سرقوا أشعارك يا ناهض
داسوا رمل « المنطار » (٣)
خلعوا الازهار
قطعوا الشريان النابض
ناهض يا ناهض

القاهرة — **محمد عز الدين المناصرة**

(١) وفاء منير الريس شقيقة الشاعر
(٢) رفض الشاعر ان يسلم بعد الهزيمة رغم تسليم زميليــه ورغم احاطة الاعداء به .
(٣) المنطار : المكان الذي استشهد فيه في مدينة غزة .

معركتنا : معركة بين حضارتين

بقلم أنور قصيباتي

لم تلق امة من امم القارات المتخلفة من الاستعمار ما لاقته الامة العربية . لقد كان الاستعمار . الى حد ما ، معتدلا في مواقفه الاخرى، اذا قسنا هذه المواقف ، بموقفه من الامة العربية . ذلك انه اضطر الى منح الاستقلال الحقيقي والصوري لمعظم الشعوب المتخلفة . ولكنه لم يسمح بالتخلي العسكري عن رقع شاسعة في الوطن العربي ، هذا الى جانب نفوذه القوي في بعض الاقطار العربية المستقلة صوريا . بالاضافة الى اقطاع رقعة واسعة وثمينة من الارض العربية واعطائها لليهود لكي يقيموا عليها وطنهم الموعود ، مقابل ان تكون هذه الارض برمتها ثكنة حربية هجومية تهدد الوجود العربي برمته ، وتكون مستودعا هائلا ، يحوي احدث الاسلحة الهجومية واشدها فتكا .

وطوال السنوات الطويلة الماضية ، منذ قرار سلب فلسطين الى اليوم ، لم تظهر حركة وطنية الا وحطمها ، لم يبرز رجل قومي يجسد اماني الامة واهدافها الا وحطمه او اغتاله ، او حاول اهماله .

وفي كل مرة يبنى فيها جيش وطني جدي ، يدمره بشراسة حاقدة ترسم مئات الاسئلة التي لا تحمل جوابا .

ولقد اعتاد دوما ، خاصة في السنوات الاخيرة السوداء ، سنوات الثورة المضادة ، ان تنهي الانظمة الوطنية المفارعة له ، عن طريق انقلاب عسكري . استطاع ذلك بكل سهولة في غانا . ورغم قوة اليسار الوطني في اندونيسيا لم يحتج الا لبضعة جنرالات احدثوا اعظم فاجعه للقوى الوطنية في العالم .

وعلى الرغم من ان الامة العربية ، هي امة الانقلابات العسكرية ، فان الاستعمار لم يلجأ الى هذا الاسلوب في الاقطار العربية التي نذرت نفسها لمحاربته ، لانه لم يكن يريد تبديل وجوه بوجوه اخرى . ذلك ان الطاقة الثورية الحادة في وطننا ، تكمن في الجماهير لا في الافراد . وهو لا يستطيع باي انقلاب ــ بفرض عثوره على الاشخاص المناسبين ــ ان يقضي على هذه الجماهير .

ان هدفه الاول ، ليس تغيير حكم باخر ، واستبدال وجوه بوجوه ، وانما القضاء نهائيا ، من الجذور ، على الروح القومية العربية ، على الطاقة الثورية المتجسدة في الجماهير العربية . وهو يعلم ان القوى الوطنية والطاقات الثورية بلا جيش وطني كثيف الاسلحة الحديثة ، لا تستطيع ان تؤدي مهمتها في ازعاجه ، وتهديد وجود قاعدته الضخمة في فلسطين ، وقواعده الاخرى في الوطن العربي .

لاجل ذلك ، يسلك الاستعمار في الوطن العربي سلوكا جديدا ، ويتصرف وفق استراتيجية خاصة ، تختلف عن الاستراتيجية التي يطبقها بنجاح وخفية ضد الانظمة الوطنية في اسية وافريقية . فهو عندنا . يتخذ اسلوب الهجوم المباغت المسلح ، للقضاء على الجيوش العربية الوطنية ، لاجل شل الطاقة الثورية العربية ، واضعافها .

انه يفعل ذلك لاجل منع الامة العربية من اليقظة الكاملة ، لانه يعلم ، ــ قبل ان نعلم نحن ــ أن هذه اليقظه ، ليست مجرد سعي للقضاء على التخلف ، وليست مجرد ارادة لتحقيق الوحدة الحتمية ، وليست مجرد رغبة وطنية في القضاء على النفوذ الاستعماري ، من كافة اقطار الوطن ، بشكليه القديم والجديد . ليست كل ذلك ، هذه كلها مجرد وسائل للغاية العليا ، أن هذه اليقظة ، عندما تتم ، وتأخذ باسباب القوة ، فان معناها بداية ظهور حضارة جديدة .

من هذه النقطة بالذات ينطلق المنطق الاستعماري في تعامله الحاقد مع الامة العربية .

ان هذا الاستعمار ، يتجسد باعلى صوره ، في امريكا ، وهو لا يمكن ــ وفق الخط الذي يسير عليه ــ الا ان يتجسد في امريكا . لان امريكا بامكانياتها المادية الضخمة استطاعت ان تسرق نبوغ الحضارة الادبية المعاصرة ، وان تاخذ ثمارها دون الجذور ، وان تحتضن الجسد دون الروح . وبالتالي فهذه المنتجات الالية الضخمة التي تنتجها امريكا ، هي منتجات مقطوعة الجذور ، وبالتالي فهي بعيدة عن اصالة الروح الاوروبية . وعندما توجد الهوة بين الروح المبدعة ، وبين المنتجات يصبح هنالك تنكر للقيم الاولى التي انضجت الحضارة ، وتصبح المنتجات هي التجسيد للحضارة . وهذه الظاهرة هي من علامات الانحلال والسقوط .

ان اوروبا نفسها تعاني من ازمة تناقضها ، هذا الخلل الذي يكمن في صميمها ، والاتي من فقدان التوازن بين القيم الاولى للحضارة ، وبين منتجاتها الالية التي انفصلت او كادت عن تلك القيم . فكيف يكون الامر في امريكا . وهي التي لم تشهد ظهور تلك القيم ، ولم تشارك في ابداعها ، ولم تكن موجودة اصلا في بداية اطلالها ؟

ان جميع صفات المرأة الجميلة الثرية في منبت السوء تتجسد اليوم في امريكا : العنجهية التي تدفعها للسيطرة على العالم ، غرورها الشديد الذي أوحى لها بان لها رسالة ثقافية تحملها الى اوروبا والعالم ، النهم الذي يجعلها تمتص خيرات الشعوب الاخرى وتقتلها . عزة الجاهلية التي تجذبها لكي تحطم بالقوة العسكرية اية قوى اصيله تحاول البروز والانتشار ، لان الرعاعي الغني قد يسمح بأي شيء الا برؤية النبل والاصالة .

ان ما ينطبق على امريكا ، ينطبق ايضا على اوروبا .. لكن بشكل اضعف . وهذا الضعف ظاهري فقط ، لان امريكا غدت تتكلم باسم اوروبا برضاء من اوروبا نفسها ، فالقيم الاولى لحضارتها تفيض يوما عن يوم وفق منطق تلاشي الحضارات ، وامريكا تعجل في افناء هذه القيم عن طريق دولاراتها . ولقد كان موقف اوروبا بالنسبة الى قضايا العرب لا يختلف بشيء عن موقف امريكا . اما اعتدال فرنسا الاخير ، فيقوم على المنطق الديغولي في التمرد على امريكا .. وهذا موقف عابر ، يجب ان لا نهتم به . لانه سيتغير فيما بعد ذهاب ديغول ، الزعيم الاوروبي الوحيد الذي فهم العلاقة الحضارية القائمة بين اوروبا وامريكا. ومن فهمه هذا ارسى قواعد السياسة الافرنسية القائمة على اشباح القيم الاوروبية القديمة . ان ديغول اخر ممثل حقيقي لاصالة الحضارة الاوروبية .

من هنا نستطيع أن نحدد نوع العلاقة القائمة بين امريكا والعرب. امريكا الممثلة لاوروبا . والعرب الذين يمثلون شعوب القارات المتخلفة ، وهي في جذورها علاقة بين اوروبا وامريكا وبين اسية وافريقية وامريكا اللاتينية . أي بين امم فقيرة الطاقة غنية المنتجات ، وبين امم غنية الطاقة الروحية فقيرة المنتجات ، وعلاقة من هذا النوع لن تقوم على اساس من الود والتفاهم والصداقة . انما سياقها الطبيعي يقودها الى ان تقوم على الحقد والكراهية والثأر . لان العلاقة في جوهرها هي بين حضارة هرمة شرسة ، وبين حضارة جديدة تتلمس طريق ظهورها .

وكل حضارة في بداية انحلالها ، تصبح عدوانية شهوانية شرسة ، وتظل تستنفذ قواها المادية والعسكرية ــ بعد ان تكون قواها الروحية قد غاصت ــ في الحروب العدوانية اي ان تسقط نهائيا ، وتقع في قبضة الحضارة الطالعة .

تلك هي الظاهرة ، التي تكررت على مجرى الزمان .

من هذا الحدس انطلق مساعد الرئيس العربي المصري للشؤون الخارجية عندما قال من فوق منبر هيئة الامم المتحدة ما معناه : « في عام ١٩٥٦ كانت مصر هدفا للعدوان وفي هذا العام كانت مصر وسوريا والاردن هدفا للعدوان الاستعماري ، وفي السنوات المقبلة لا ندري اية منطقة يختارها الاستعمار هدفا لعدوانه في افريقية واسيا . ومن هذا الحدس نفسه قال الرئيس العربي السوري في المكان نفسه ما معناه : « ان العالم العربي يقف درعا يحمي شعوب اسيه وافريقية من شراسة الاستعمار الامبريالي » .

فالصراع اذا لا يستهدف حماية اسرائيل وحسب ، ولا لاجل نهب الثروات الوطنية وحسب . انما هو صراع طويل مرير بين اسلوبين ، بين عقيلتين ، بين دورة من دورات التاريخ، بين شعوب متقدمة ماديا، وشعوب متخلفة ماديا ، بين حضارتين ، على طرفي نقيض ، حضارة تتلاشى ، وحضارة تتجمع .

ذلك هو جوهر الصراع .

وهنا يأتي دور اسرائيل . ان اية محاولة لفهم اسرائيل يجب ان تبدأ بتعريفها ، ويجب ان يكون هذا التعريف مستمدا من هذا السياق، اي من المفهوم الحضاري .

ان اسرائيل موجة كثيفة من الحضارة الاوروبية المعاصرة القيت على الارض العربية ، تهدف الى غايتين : الاولى تحطيم القوة العسكرية للعرب . والثانية تخريب الروح العربية النامية واخضاعها لقيم حضارة في طريق الزوال . وبالتالي تحويل كل اصالة عربية ، او ابداع عربي عن وجهته المقدرة له ، الى نوع من الزيف والسطحية .

فاسرائيل ، قبل ان تكون نتيجة الحركة الصهيونية النشيطة ، وقبل أن تكون قضية شعب مشتت اغتصب وطنا ، واقام دولة ، وقبل ان تكون طاقة رجعية انبعثت من اسفل التاريخ . وحققت اهدافها واحلامها ــ قبل ان تكون ذلك كله ، فهي عدوان عنصري وقومي وفكري مسلح ــ قامت به الحضارة الاوروبية المتفسخة ضد الامة العربية بالدرجة الاولى ، وضد الشعوب الافريقية الاسيوية .

واذا كان الاثر الفكري والقيمي قد ارتد دون ان يخدش الشخصية العربية ، فان هذا الاثر الاوروبي المنحل الذي اتخذ اسرائيل مركبا له قد اثر تأثيرا خطيرا في الشعوب الافريقية ، وفي بعض الشعوب الاسيوية . وفي السنوات العشر الاخيرة كانت اسرائيل مركزا نشيطا لنشر الانحلال الغربي في اسيا وافريقيا ، وهذا الانحلال يهدف الى اضعاف المعنوية الافريقية الاسيوية ، ومحاولة تشتيت النضال المشترك للشعوب الافريقية الاسيوية ، لكي تظل خاضعة لسيطرة الرجل الابيض!

هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فان اليهود الذين يخلو تاريخهم من بناء اية حضارة ، والذين لم يساهموا قط بظهور الحضارة الاوروبية او تطورها قد استغلوا دور الانحلال الذي تمر به . وقاموا بالسيطرة عليها ، وتوجيهها لخدمة اغراضهم المعروفة في السيطرة والتوسع . وكانت الحركة النازية اول من تنبه الى عملية اليهود في سرقة واقتناص الحضارة الاوروبية . وقد برهنت النازية للعالم اجمع على أن اليهود دخلوا هذه الحضارة عن طريق المال والربا والانحلال الخلفي ، وليس عن طريق المجهود الخلاق . وباندحار الحركة النازية عاد اليهود بسرعة اكثر ، وقوة اشد الى متابعة عملية سرقة الحضارة الاوروبية والسيطرة عليها ، بواسطة المال ، وبواسطة نفوذهم المتشعب في اوروبا وامريكا ، المدعوم بالتعصب المستمد من النكبات والثورات . وساعدتهم الظروف في ذلك ، عندما انتقل مركز الثقل في العالم ، عقب الحرب العالمية الثانية من اوروبا الى امريكا . ولا شك أن اليهود قد ساهموا في هذا الانتقال بعد ان استجابت لهم الراسمالية الامريكية بسرعة لم يكونوا يحلمون بها .

فهنالك عملية تبادل منافع بين الحضارة الاوروبية وبين اليهود . فالحضارة الاوروبية المنحلة تستخدم اليهود ودولة اسرائيل ، استخداما قدريا اكثر منه اراديا ، كاداة عدوان وتحطيم ضد الشعوب الناهضة حديثا ، كما كانت تفعل ذلك كل حضارة في دور انحلالها الباطني .

واليهود يستخدمون الحضارة الاوروبية بانظمتها واختراعاتها ومنتجاتها لتحقيق اغراضهم الخاصة . وقد استطاع اليهود التغلغل الى جميع مراكز هذه الحضارة ، واثبات وجودهم في كل مظاهرها ، والسيطرة على الكثير من اجهزتها .

ان اليهود ، بهذا الشكل ، قد ضربوا جذورهم في ارجاء مظاهر الحضارة الاوروبية وشعوبها . وربطوا مصيرهم بمصيرها . واصبح من المحال معاداتهم دون معاداة هذه الحضارة ، او محاربتهم دون محاربة هذه الحضارة .

فكل كفاح يوجه من فيتنام أو الصين ضد الاستعمار الاوروبي ــ الامريكي ، فانما هو موجه ايضا ضد اليهود . وكل كفاح يوجه من الوطن العربي ضد اسرائيل فهو كفاح موجه ايضا ضد الاستعمار الاوروبي الامريكي .

فالاستعمار واليهود واسرائيل شيء واحد ، قوة واحدة ، تهاجم معا ، وتدافع معا . وسقوط كل من الاستعمار واسرائيل رهين بسقوط الاخر .

فلا بقاء لاسرائيل بوجود الاستعمار . ولا بقاء للاستعمار بوجود اليهود واسرائيل .

ومن هنا نجد ان المعركة واحدة . معركة شعوب افريقيا واسيا ضد عدوان الحضارة الاوروبية .

ومن هذه النقطة يجب ان تنطلق استراتيجية السياسة العربية الخارجية . ولا بد اولا من القاء نظرة سريعة على تطور العلاقات بين المعسكر الغربي وبين المعسكر الاوروبي الاشتراكي .

لقد بدأ التقارب بين المعسكرين منذ أن اعلن المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي ١ ــ امكانية التعايش السلمي بين الشعوب ذات الانظمة المتعارضة ، ٢ ــ امكانية الوصول الى الاشتراكية العلمية عن طريق التطور السلمي . وظل هذا التقارب بطيئا خفيا في السنوات التي اعقبت هذا التغيير الجوهري على الايديولوجية الماركسية اللينينية.

ثم خطا هذا التقارب خطوات سريعة في اعقاب تفجر الخلاف الصيني الروسي الى ان انتهى ــ جوهريا ــ في نقطة التقت عندها مصلحة المعسكر الشيوعي الاوروبي بمصلحة المعسكر الغربي الاستعماري، في معاداتهما معا لجمهورية الصين الشعبية .

ان السياق الذي ادى الى تقارب والتقاء المعسكرين المتناقضين والسياق الذي ادى بالصين الى معاداة المعسكرين معا ، هو في الحقيقة نفس السياق الذي يقودنا في هذا المجال .

اوروبا وامريكا .. ضد اسيا وافريقيا وامريكا الجنوبية .

فالقضية اذا ليست قضية راسمالية وماركسية . بقدر ما هي قضية شعوب متقدمة وشعوب متأخرة ، شعوب بيضاء وشعوب ملونة . حضارة في اوج قوتها المادية ، وحضارة في بداية قوتها الروحية .

ان الوضع الحضاري التاريخي والجغرافي والعرقي هو الذي يحدد في هذا العصر المصيري علاقات الشعوب ، وسياسة الامم . وليست الانظمة الداخلية او الايديولوجيات العامة لها .

ان روسيا منذ ايام القياصرة ، كانت داخلة في اطار الحضارة الاوروبية ، وتقدمها العلمي الهائل هو نتاج لهذه الحضارة ، والماركسية في الاصل ، هي جزء من الفكر الاوروبي ، ومن حيث العرق فالروس ، على الاقل ، لا يمتون باية صلة الى اسيا . وروسيا لم تخضع في يوم من الايام للاستعمار ، ومصيرها منذ البداية كان يرتبط بمصير السياسة الاوروبية . وبالتالي فان مصير الاتحاد السوفياتي يتعلق بمصير الحضارة الاوروبية ككل .

اما الصين فظروفها التاريخية الحضارية والعرقية والجغرافية على النقيض تماما من ظروف الاتحاد السوفياتي . انها غارقة في اعماق اسيا ، وقد ذاقت الهوان من شراسة الاستعمار الاوروبي . وعلى مقربة منها تحشد امريكا احدث اسلحتها في رمز عدواني شرير .

فالماركسية لم تستطع ان تشد الصين الى الاتحاد السوفياتي . والراسمالية لم تمنع امريكا والغرب من التقرب من الاتحاد السوفياتي ودول اوروبا الشرقية .

ان التحول الخطير الذي طرا على مجرى العالم ، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية الى اليوم . قد قلب المفاهيم راسا على عقب .

فبينما كان العالم ، في سنوات ما بعد الحرب ، ينقسم الى عالم راسمالي واخر اشتراكي . اصبح اليوم ينقسم الى عالم الحضارة الذاوية ، وعالم الحضارة الطالعة . والذي احدث هذا التغيير الخارق انما هي الشعوب المناضلة في اسيا وافريقيا بعد ان استخلصت استقلالها وبدات تشعر بشخصيتها وطابعها المميز .

ولما كانت الامة العربية هي طليعة هذه الشعوب باعتبار ان سياقها التاريخي الحضاري يقودها حتما الى ابداع حضارة جديدة ، فان النتائج المنطقية تتطلب منها ان تخطط سياستها الخارجية القائمة على التعاون الوثيق مع الشعوب الافريقية والاسيوية ، وان تهمل رويداً رويداً علاقاتها بامم الحضارة المنحلة .

ان ما اريد ان اصل اليه من هذه النتيجة هو ان نجعل الصين الشعبية السند الاول لنا في كفاحنا المرير ضد اليهود والانحلال الغربي المتمثل بالاستعمار الامريكي بالدرجة الاولى .

ان الاتحاد السوفياتي العظيم ، والدول الاشتراكية الاوروبية قد قدمت لنا ولنضالنا من المساعدات والتاييد ما لا يدخل ضمن حصر ، او يفيه اي شكر .

وان جميع العرب الواعين يدركون قيمة واهمية هذه الصداقة بالنسبة لبناء جيشنا القومي ، ولانماء مواردنا الداخلية . الا ان السياسة العلمية يجب ان تنظر الى ابعد من سنة او عشر ، خاصة بالنسبة لامة ، كامتنا ، مهياة لكي تنحرف بالمصير التاريخي بشكل يفوق كل توقع آني .

واننا في هذه الايام ، في غمرة النكسة والهزيمة الموقتة ، في امس الحاجة الى عون وتاييد الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاوروبية . وليس هناك اي مبرر ، في الوقت الحاضر لاية دعوة تطلب عدم الاعتماد على الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأوروبية كما توحي هذه السطور .

الا ان هذا لا يمنع من ان نبدا منذ اليوم في التخطيط للسياسة الجديدة التي تتخذ في المستقبل القريب من الصين صديقا نافعا تربطنا به مصلحة مشتركة واحدة . في اللحظة التي تستطيع فيها الصين ان تكون قادرة على العون المادي والعلمي الذي نحتاج له .

ان تحليل جوهر الصراع بين الصين وبين الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاوروبية ، من خلال منشورات الطرفين المتنازعين يؤكد لنا ، بان هذا الصراع ليس ابداً بسبب تعديل او فهم الايديولوجية الاشتراكية العلمية انما هو ينطلق من مفهوم حضاري بحت يقارب كثيرا المفهوم الحضاري الذي عرفناه آنفا .

هو صراع بين اسيا واوروبا ، صراع بين امة الصين المصابة باعراض الارهاص لحضارة طالعة ، وبين روسيا وحليفاتها الاوروبيات ، المنتمية الى حضارة ذاوية .

وفي المستقبل ، عندما يعنف الصراع اكثر ، ستجد روسيا وحليفاتها نفسها بجانب اوروبا المنهارة وامريكا المنحلة . وستجد الصين نفسها بجانب العرب والشعوب المشاركة بانتاج الحضارة الجديدة .

اننا والصين وبقية شعوب اسيا وافريقيا نقاتل عدواً واحدا . كل تقدم نحرزه هو انتصار للصين . وكل هزيمة للاستعمار الامريكي ، على يد الصين ، او في فيتنام هو انتصار لنا .

وفي السنوات القليلة المقبلة سوف تتجمع كل القوى التي تدرك انه لا مناص من الدخول في حرب سافرة مع الاستعمار واليهود ، ضد امريكا واسرائيل

لعل توينبي هو القائل ، بان الصراع بين الاتحاد السوفياتي واوروبا الغربية هو من قبيل الانشقاق الداخلي الذي تتعرض له الحضارة عادة في بداية سقوطها .

هو انشقاق داخلي ضمن حضارة واحدة .

فاي فرق اذا يوجد بين موقف الصين من الاستعمار الامريكي اليهودي وبين موقف الاتحاد السوفياتي وحلفائه من الاستعمار نفسه ؟ انه الفرق بين العضوي والسياسي .

ان الصين هي القوة الكبيرة الوحيدة في العالم المستعدة حتما ، نتيجة لمسرى سياقها ، ان تخوض معركة البقاء او الفناء بجانب العرب في حربهم المريرة ضد اليهود وشراسة امبريالية الحضارة الاوروبية المسروقة .

نتيجة لذلك فنحن بحاجة الى تعميق مفاهيمنا الداخلية ، وخلق مفاهيم جديدة .

واول هذه المفاهيم ، هو المفهوم الخاطىء من ان الاستعمار الامبريالي اليهودي يستهدف فقط القضاء على الانظمة الاشتراكية .

ليس في العالم العربي كله نظام اشتراكي واحد يتساوى مع انظمة الدول الاوروبية الشرقية . ومع ذلك فتقارب اوروبا الشرقية مع الغربية وامريكا يتسارع يوما اثر يوم في الوقت الذي يشتد فيه عداء اوروبا الغربية وامريكا للعرب .

فالنظام الداخلي لاي قطر عربي ، هو في الحقيقة عرض وليس جوهراً . وسيظل أي نظام يحمل صفة العرض ما دام غير مستمد من ايديولوجية عربية خاصة . وما دامت هذه الايديولوجية لم تتكامل بعد.

والاشتراكية ، تظل مع هذا وسيلة لا هدفا ، وسيلة لتجميع الامكانات المادية العربية في خدمة الحضارة المقبلة .

والمفهوم الثاني الذي يحتاج الى تعميق هو مفهوم الوحدة . وهذا التعميق لا يتم الا بدراسات مستفيضة تشرح استحالة قيام بوادر الحضارة الجديدة بدون وحدة ، وان تكون الوحدة بهذا المعنى وسيلة لا غاية .

والاهم من كل ذلك .. مفهوم الثورة الذي يحتاج الى اعادة النظر من جديد .

ان اية محاولة لتعميق وتعديل هذه المفاهيم ، واكتشاف مفاهيم جديدة تقذفها الظروف المفاجئة الحالية ستبوء بالفشل ، اذا لم تركز على معالم ايديولوجية تستمد خطوطها منها . واؤكد بوجوب كون هذه الايديولوجية عربية بحتة ليس غير .

ولا شك ان العدوان المسلط علينا من قبل التحالف الحضاري الامريكي اليهودي والذي انفجر في وجهنا . في غفلة عنا ، سيخلق اوضاعا جديدة واحداثا جديدة تساعدنا على بناء ايديولوجيتنا العربية التي لا تقل اهمية عن بناء جيشنا القومي الموحد ، بعد ان فشل العقل العربي في بناء هذه الايديولوجية التي كانت قادرة على منع الانفجار من اغتيال دهشتنا ، رسم خطة نقدر فيها على الاقل ، ان نكون مع الاعداء في مواجهة سافرة ، ونقف امامهم نداً لند . لان الحادث المفاجيء في النصر والهزيمة على السواء ، في الغفلة واليقظة ، انما هو وليد سنوات طويلة . وليس هو نتاج يوم او بعض يوم .

ان امامنا حقيقة واحدة ، يجب ان تنسكب على امتداد الذهن العربي . في الفكر والعمل معا . وان تكون الشعار الوحيد الذي يرفع في هذه المرحلة والمراحل المقبلة . وهي ان العدوان العسكري على الامة العربية هو بداية الصدام المسلح الجدي بين حضارة هرمة ظالمة في طريق الزوال وبين حضارة عادلة جديدة بدات باول بوادر الارهاص .

ان المعركة العسكرية الاخيرة ليست الا النقطة البداية لسلسلة من الحروب القاسية العنيفة التي لا ترحم بين العرب ويهود الحضارة الاوروبية الذين بقوا وحدهم يتحدثون عن امريكا ـ باد مها ، والذين يمثلون اخر ادوارها المنقرضة بين اوروبا المستكلبة وامريكا الجبارة العنيدة بقيادة الصهيونية العالمية وبين شعوب اسيا وافريقيا الظامئة الى العدل والكرامة والحرية ، بقيادة العرب .

ولن تنتهي هذه الحروب الا بسقوط وزوال الحضارة الاوروبية ، وجراثيمها الفتاكة ، اليهود . واشراق بوادر الحضارة العربية الجديدة.

فما اطول الدرب . وما اشق الطريق . وما ارفع المستوى . (1)

دمشق

انور قصيباتي

---

(1) يراجع كتابنا « الحضارة العربية الجديدة وحتمية الثورة »

كلمات في المعركة

(١)

ـ قسم ـ

اقسمتُ بالجذور في التراب
بالانتظار ما أمرَّ الانتظار
بالليلـة الاخيره
بفرحة المقاتلين لحظة ابتداء المعركه
أن يصبح السلاح موطني حتى يكون لي وطنْ
ان أجعل السلاح لي هوية في عالم التشريد والمحنْ
أقسمت أن أخطَّ ما أريد قوله على أسنة الرماحْ
أنْ أضمد الجراح بالجراحْ
أن أستريح ان تعبتُ في عواصف الرياحْ

***

اني امتشقت سيفي العنيد
أحرقتُ غمده فلن يكون غمده سوى الدماءْ
اقسمت أن يكون لي بداية أو انتهاءْ
لا فرق أن أموت تحت ظلّه أو أكسب البقاءْ
لانني أقسمت أن أكون سيدا أو لا أكونْ

***

ما دمت بالسلاح أحضن الحياة وهي مثمرهْ
ما دمت بالسلاح أدخل التاريخ ، اقهر البرابره
فليكتبِ السلاح قصتي المعبِّره

***

(٢)

ـ مرثية شهيد ـ

جرح خطّ النار في قلقيليه
وصفاء الرمل في سيناء والنيل العظيمْ
وعطاء الشمس في الشرق وخيرات النجوم العربيه
كبر النخل بشطِّ العربِ
كلّها كانت بعينيك وكان الليل يمتد على السفح حنونا كالابِ
والجراح البكر في جنبك تبدو كقميص المغربِ

***

لم تمت عيناك بل ظلّت قناديلا غنيه
تقرأ الشمس بها والريح اصرار العيون العربيه
يلمح التاريخ في فسحتها أمجاد شعبي
أيها الحاضن في صمتك دربي
انني اقرأ في عينيك حبي
انني أصعد في جرحك حتى أسمع الله يلبي
انني أولد في عصر الفتوحات ويغزو عبق التاريخ قلبي

حمـاه

ماجد حكواتي

هوامش "سارتر" حول العدوان

بقلم لطفي الخولي

استدار نحوي فجأة الأستاذ البروفسير « جاك بيرك » ، الاستاذ بالكوليج دي فرانس ، والذي يقود مع زميله « مكسيم رودنسون » حملة تنوير شجاعة داخل الرأي العام الفرنسي والاوروبي عامة لتبديد الضباب الصهيوني الاستعماري الكثيف حول « القضية الفلسطينية » ، وقال لي :

– هل قابلت سارتر ؟

– لا ..

قلتها باقتضاب وأنا أحس بالكلمة تكاد تلهب حلقي. كنت قد قرأت البيان الذي صدر عنه قبل العدوان في جريدة « الموند » وأنا في طريقي من الجزائر الى باريس . ولاحظت انه وقع على البيان مع عدد من الفرنسيين من بينهم شخص يدعى « مزراحي » وصفه لي هو نفسه ذات يوم بأنه « صهيوني حتى أطراف أصابعه » . وصحيح ان البيان حوى بعض الكلمات الطيبة عن العرب ، وصحيح أن سارتر نفسه – كما علمت بذلك من بيرك – هو الذي أضافها وانه كان مترددا حتى آخر لحظة في توقيعه ، ولكن ذلك كله لا ينفي ان البيان في مجمله وفي الجو الهستيري المعادي للعرب وقتذاك قد احتسب في النهاية لصالح اسرائيل وادعاءاتها بأنها مهددة بخطر العدوان العربي المتجمع ضدها في وحدة صليبية . وليس أدل على ذلك من ان الاذاعة الاسرائيلية ظلت تذيع البيان لمدة يومين بمعدل سبع مرات كل يوم !

ولذلك عندما عاد « جاك بيرك » يقول لي :

– ولكن لماذا لا تقابله .. انه يسأل عنك .. ماذا ستخسر ؟..

أجبت : لقد اختار هو ببيانه موقفا محددا هو أن نخسره .

– لا .. ليس الى هذا الحد .. هل تعلم انه في حالة تمزق داخلي عميق ؟

وسكت ولم أجب بحرف . وان ظلت رأسي تموج بعلامات الاستفهام المتلاطمة : كيف يمكن لرجل أمين وشجاع أن لا يرى وجه الحقيقة في الصراع ؟ كيف يمكن لرجل أسهم بمواقفه من أجل الحرية أن يتخذ موقفا مضادا منها عندما يتعلق الامر باسرائيل ؟ تحت اي تأثير ووفق أي معلومات وقع سارتر هذا البيان جنبا الى جنب مع ذلك الصهيوني حتى أطراف أصابعه ؟ الم يزر الشرق الاوسط ويلمس بنفسه الاوضاع على الطبيعة وأقر بحقوق الشعب الفلسطيني القومية ؟

وتتابعت الايام الهادرة العصيبة ، ووقع العدوان ، وامتلأت الصحف بالزيف ، ثم راح الضباب الكثيف ينقشع هنا وهناك عن لمحات من التواطؤ الصهيوني الاستعماري ومن حملات الابادة العنصرية ضد العرب ومن قنابل النابالم الخ .. واخذت الاضواء تكشف جوانبا من الصورة الاسرائيلية التي تقطر دما وبشاعة ..

وفكرت للحظات ان أتصل بسارتر وأقول له كلمة واحدة : ها هي نتيجة بيانك .. ولكني عدلت ونشرت بجريدة « الموند » بعد وقوع العدوان ، باسم هيئة تحرير الطليعة، خطابا مفتوحا الى « المثقفين اليساريين الفرنسيين الذين بطريقة أو بأخرى اتخذوا مواقف في صالح اسرائيل » .

أقول فيه : « ان الاحداث قد اثبتت مرة اخرى ان اسرائيل قد بادرت بالعدوان المبيت على الشعوب العربية . وانها لم تكن سوى اكذوبة تلك الادعاءات التي هولت لها اسرائيل بأنها مهددة من جانب الشعوب العربية بحملة ابادة عنصرية معادية للسامية .. هذه العنصرية التي كنا ولا زلنا دائما ندينها رغم ان العدوان قد اغرق القضية كلها في الدم الان . وان اسرائيل لم تكن لتقدم على عدوانها بكل هذه القوة ما لم تكن مؤيدة ومساعدة من الامبريالية بحكم كونها امتدادا للولايات المتحدة الاميركية في الشرق الاوسط . وانكم بمواقفكم هذه قد ساهمتم في تشجيع اسرائيل والامبريالية على العدوان .. فماذا أنتم فاعلون الان تجاه هذه المسؤولية ؟ » .

واتصل بي سارتر يدعوني على الغداء لنتكلم . وقبلت الدعوة . وعندما تقابلنا بادرني بعتاب :

– كيف تكون هنا في باريس منذ أول يوم ولا تحاول الاتصال بي ؟

– لانك اتخذت موقفا ضد نضال الشعوب العربية ..

وهاج سارتر وماج : « ما هذا الذي تقوله ؟ وأي موقف ؟ ان الموقف الذي اتخذته كان ضد الحرب .. الحرب فقط من حيث المبدأ .

اني لم أغير موقفي قط في تأييدي لنضال الشعوب العربية من أجل التحرر والتقدم بما في ذلك الشعب الفلسطيني وعلى الاخص الشعب المصري الذي اكن له ولقيادته كل الاعجاب والاحترام . كل ما أنا ضده هو الحرب كوسيلة » .

وتدخلت « سيمون دي بوفوار » في الحديث

متطرقه الى موضوع اغلاق خليج العقبة في وجه السفن الاسرائيليه وكيف انه اعتبر لدى الراي العام الاوروبي نوعا من الاستفزاز للحرب . فتدخلت شارحا لها حقيقه الوضع وكيف ان هذه المياه اقليميه تدخل كلها وفقا للقانون الدولي في نطاق السياده المصريه وان هذه السياده قد انتزعت بالقوه من مصر خلال عدوان ١٩٥٦ الاستعماري الصهيوني الثلاثي ، وكيف ان « ايلات » نفسها قد استولت عليها اسرائيل بعد اتفاقيه الهدنه المصريه الاسرائيليه في ٩ مارس ١٩٤٦ من الجانب الاردني وانها كانت دائما عربيه باسم بلده « ام الرشراش » . ان كل ما حدث هو استرداد جزء من حقوقنا المهدوره .

وارتج على « دي بوفوار » وأرسلت نظره تساؤل الى سارتر الذي اجاب بدوره بنظره يتبعها صوت متعب .

ــ هذا صحيح فانونا .. لقد عرفت ذلك اخيرا .

وصاحت سيمون دي بوفوار : لماذا لم توضحوا ذلك .. لماذا لم تشرحوه للرأي العام هنا ؟

وقلت : هذه فعلا بعض اخطائنا .. وانا اعترف بها . ولكن حتى لو شرحناه فهل نجد مجالا واسعا هنا في هذه الصحافه التي تسيطر على معظمها القوى الصهيونيه والعداء العنصري للعرب .

ودار حديث طويل حول هذه النقطة .. وعاد سارتر يقول :

ــ لقد شرحت لك موقفي والظروف التي صدر فيها ومن أجلها البيان الذي وقعت عليه . فهل يساعدك ذلك على فهم الوضع ؟

قلت : بصراحه .. لا .

وهز سارتر رأسه مفكرا قليلا ثم قال : اسمع ! لماذا لا نتفق على موعد لحوار شامل ؟ أنا حريص فعلا لتوضيح موقفي للاصدقاء العرب .

ــ ونحن العرب نشاركك نفس الحرص حتى نكون على نور ، فالمعركة ما برحت مستمرة .

واتفقنا على لقاء في الغد بمنزله .

وكان أول سؤال طرحته على سارتر ونحن جالسان في حجرة مكتبه الصغيرة التي تقوم في نفس الوقت بمهام الاستقبال والطعام والمبيت ، هو :

ــ لاحظت انك قد التزمت الصمت التام منذ بيانكم عن الموقف في الشرق الاوسط الذي صدر قبل بدء العمليات الحربية والعدوان .. هذا البيان الذي اعتبر انه معاد للعرب ، واستغلته اسرائيل ، كما تعلم ، بهذا المعنى ؟

وتريث سارتر لحظات قبل أن يشرع في القول : يسرني أن أخرج الان عن صمتي وذلك بتوجيه حديث للمصريين والعرب عامة . وأن انتهز هذه الفرصة لكي أبدي رأيي في المشكلة . كان الهدف من هذا البيان ، الذي تتحدث عنه ، هو محاولة منع وقوع الحرب . لان الحروب في نظري ليست أبدا بحلول سليمة او انسانية للمشاكل . وكما تعلم فقد ابتعدنا الان للاسف اكثر من اي وقت مضى عن الوصول الى حل . ولم يكن القصد من هذا البيان هو خروجي من حياد كنت أرغب في الالتزام به وقتذاك ، نظرا لان العدد الخاص من مجلة « الازمنة الحديثة » عن النزاع العربي الاسرائيلي كان على وشك الصدور بعد ذلك بأيام معدودة . كنت فقط أريد أن أشير الى انني آمل في ايجاد تسوية للمشكلة التي ثارت بعد اغلاق خليج العقبة ، تعتمد على التفاوض بدلا من اللجوء الى العنف . ولا ينبغي بأي حال من الاحوال أن يعتبر هذا البيان معاديا للعرب . فانني أصر على انني كنت وما زلت وسأكون دائما حليفا للشعوب العربية وصديقا لها . واذا كنت قد التزمت الصمت الى الان فهو بالدقة لانه لم يتح لي فرصة مخاطبة العرب مباشرة . أنت تتيح لي هذه الفرصة الان وأشكرك لذلك .

وقدمت ملاحظتي الثانية في شكل السؤال التالي : لقد لاحظت ان هناك اتجاها عاما في فرنسا ــ تحت ضغط الصهيونية العالمية ودعايتها ــ يرمي الى اعتبار النزاع العربي الاسرائيلي الى انه نزاع بين اليهود والعرب . مع التركيز على ان طبيعة هذا النزاع دينية بحتة من جانب العرب . ويستند هذا الاتجاه الى تعريف العرب بأنهم المسلمون فقط . وهذا غير صحيح كما تعلمون . فالشعب العربي وهو يشكل في الاساس كيانا قوميا من مختلف الديانات يناضل ضد الصهيونية في اطار نضاله العام ضد الاستعمار والتخلف والاستغلال . ان طرح القضية على أرضية دينية يؤدي الى تشويهها ، وقد انتشر هذا التشويه حتى في بعض الدوائر اليسارية هنا .. فما هو رأيكم في ذلك ؟

قال سارتر : يجب أن أؤكد أولا انني رأيت عربا ليسوا مسلمين . هذا صحيح فعلا . ومن هنا فأنا لا أوافق على اعتبار المشكلة مشكلة دينية . كذلك قال لي الرئيس جمال عبد الناصر في مصر : « كيف تنتظر منا أن نكون معادين للسامية ونحن انفسنا ساميون ؟ » . واذا صح ان ثمة يهود خلال احتدام المعركة الحربية قد نظر اليهم مؤقتا على انهم ممثلون لاسرائيل كما حدث في تونس مثلا ، اذ أحرق الشعب هناك المعبد اليهودي ، الا ان هذا في تقديري ليس الا عملا انفعاليا . ولا ينفي ان المشكلة الحقيقية هي في جوهرها مشكلة العالم المتخلف الذي يناضل ضد الاستعمار ومن أجل تحسين الظروف المعيشية للشعب . بل ومن أجل بناء الاشتراكية . ولذلك اعتقد في الحقيقة ان حدوث مثل هذا اللبس بهذه الصورة يعد أمرا في غاية الخطورة .

وعدت أقول : اني في الواقع أريد منك أن تفسر لي هذه الظاهرة الملموسة والمتحركة فعلا هنا في المجتمع الفرنسي بالذات ؟ هل هي قائمة في رأيك وتسهم في التشويه والتضليل أم لا ؟

وأشعل سارتر سيجارة ببطء ، أغلب الظن ليعطي

نفسه فرصة لترتيب افكاره ، قبل أن يستطرد قائلا : صحيح يوجد فعلا اتجاه هنا في فرنسا يرى المشكلة من هذه الزاوية . ولكن لعلك لاحظت ان الراي العام قد تغير كثيرا عما كان عليه عند بداية الازمة . لقد اعتقد عدد كبير من الناس ذوي النيات الطيبة ـ نظرا للتباين الواضح في نوعيات المواطنين من هذا الجانب او ذاك وبحكم ما كانوا يقرأونه كل يوم ـ ان الحرب سوف تبدأ من العرب وتنتهي بتحطيم سريع ومؤكد لاسرائيل وابادة اليهود هناك . وقد أثار ذلك شعورا بالقلق العميق لدى الرأي العام في فرنسا بصورة معقدة وعلى مستويات متباينة . وذلك سواء من عناصر لم تكن تناصر اسرائيل الا لعدائها للعرب ، وأخرى كانت تعطف بصدق على العرب والاسرائيليين معا . ومن المؤكد ان فرنسا انفعلت لهذه الاحداث بقوة . ولكن من المؤكد اننا تبينا ان المشكلة كانت تنطوي على جانب اخر .. لقد ثبت ان اسرائيل تملك جيشا حديثا معدا اعدادا جيدا وانها كانت متأهبة للهجوم فعلا .. وهاجمت وحطمت واحتلت . ولست اشك في انك توافقني على ان الرأي العام الفرنسي قد بدأ يتغير منذ ذلك الوقت . ولكن فيما يتعلق بنفسي فرأيي لم يتغير على الاطلاق . انني لم أكن أرغب بالفعل أن تقوم حملة ابادة ضد اليهود . ولكني أرى الان انه يتعين الوقوف بجانب العرب لنناقش معهم ومن وجهة نظرهم عددا من المشكلات ذات الاهمية القصوى مثل الاتجاه التوسعي لاسرائيل ، الذي قد لا يكون موقف جميع الاسرائيليين ، ولكنه على وجه التأكيد اتجاه عدد من الرجال المتربعين في السلطة حاليا مثل ديان ، وكذلك للمطالبة بحل المشكلة الفلسطينية . وهناك قضية اخرى قد لا يشعر بها العرب بسبب ان موقفنا قد فهم خطأ

اليمينية .. وهي انه « يجب التعرض لاساس المشكلة » وهذا هو الجانب الايجابي وراء كل أحداث العنف . ومنذ برزت هذه الحرب في الافق برزت المشكلة الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني القومية .. وهي مشكلة كانت غالبية الناس هنا تجهلها لانه لم تكن لديهم أية معلومات عنها .

ـ قيل لي ان ٧٠ ٪ من الشعب الفرنسي لا يعلم ان هناك مشكلة اكثر من مليون لاجيء فلسطيني مطرود من وطنه ؟

قلت :

ـ طبعا .. وكيف تتوقع منهم أن يعلموا بهذا الامر ؟..

ـ ولكن من هو المسؤول عن هذا التجهيل المتعمد للقضية ؟

ـ الحكومة والصحافة معا . فلا يجب أن تنسى ان قطاعا واسعا من الراي العام الفرنسي قد احتفظ ومس مشاعرهم .. وقد اثيرت اليوم حتى من الصحف به في حالة عداء للعرب بعد عام ١٩٥٤ بسبب حرب الجزائر . هناك مجموعة كبيرة من الناس تقول ان مصر ساعدت الجزائريين . وقد نظر الى النزاع العربي الاسرائيلي من هذه الزاوية بالذات ، ونسيت تماما مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . وفي تقديري انه لا بد من زيارتهم ـ كما فعلت انا ـ ليتبين الى اي حد أصبحت هذه المشكلة عاجلة وملحة .

وتطرقت في حديثي الى الجانب الاخر من القضية التي أثارت مع الصهيونية والاستعمار ثلاث حروب خلال أقل من عشرين عاما وما زالت هادرة ساخنة تزداد تعقيدا وغرقا في الدم : أنت تعلم ان مشكلة العداء للسامية مشكلة أوروبية بحتة . وهي مشكلة لم تعرفها البلدان العربية في تاريخها القديم والمعاصر قط . نعم .. هناك مشكلة يهودية لا ريب في ذلك نشأت بسبب اضطهاد اليهود في أوروبا . هل تعتقد ان الحل الذي تتقدم به الصهيونية العالمية ، وهو حل قائم على العنصرية والتعصب الديني ومرتبط بالاستعمار ويستهدف اقامة دولة خدمة لكل هذه المصالح ؟.. هل يمكن ان يكون هذا حلا انسانيا وديمقراطيا للمشكلة اليهودية في العالم .. مع العلم ان هذه الدولة لكي تقوم وتعيش طردت شعبا كاملا من ارضه ؟

قال سارتر :

ـ أعتقد ان هناك اتجاهين للصهيونية الان .. احدهما يقول سنقبل اليهود الراغبين في الحضور فقط . والاخر يقول سنجلب اليهود بالدعاية الى الدولة اليهودية . وفي حين ان الوجه الاول للصهيونية والذي يسمى ايضا « بالنداء الصهيوني » لا يمكن اعتباره اليوم خطرا لا يتضمن اتجاهات توسعية . اما الوجه الاخر ، وهو الذي يمكن اعتباره الصهيونية الايجابية العاملة

يشكل على عكس الاتجاه الاول خطرا ضخما . ورغم اني اعتقد ان الـ ١٢،٥ مليون يهودي المقيمين خارج اسرائيل تكيفوا مع الحياة خارج أوطانهم وترتبط مصالحهم بالبقاء في الولايات المتحدة مثلا ويفضلونها على الذهاب الى اسرائيل ، الا ان هذا الاتجاه الذي يمثل الصهيونية بالمعنى الدقيق للكلمة ، والذي يستهدف احضار اكبر عدد ممكن من اليهود الى اسرائيل ، والبحث في سبيل تركيز عدد كبير جدا من الناس في مساحة ضيقة للغاية لا يمكن الا أن ينطوي على أهداف توسعية . فلا يمكن لـ ١٥ مليون يهودي أن يعيشوا في أرض فلسطين وحدها .

ورفعت يدي قائلا هنا : ان ما تقوله عن اختلاف بين اتجاهين في الصهيونية ليس الا اختلافا في الوسائل والتكتيك فحسب ، ولكن يبقى جوهر الصهيونيه هو هو في قيامه على العنصرية .

وهز هو على الفور رأسه مجيبا : من الواضح ان دولة اسرائيل تتشكل فقط من يهود . هذا صحيح . بل اكثر من ذلك لا يمكن في اسرائيل أن تتزوج فتاة غير يهوديه من يهودي الا اذا تهودت . فالدولة اذن دولة مشكلة من يهود فقط . ولكن فيما يتعلق بهذه النقطة فالمشاكل متداخلة ومشوشة بدرجة انه يصعب ايجاد اجابة شافية سليمة . فهناك يهود غير صهيونيين في اسرائيل وهم يريدون بقاء اسرائيل فقط لانهم يشعرون بأنها أمتهم . وهناك يهود صهيونيون أعرفهم في الجناح اليساري داخل حزب الماباي ولا تنطوي كلمة الصهيونية على مدلول خاص عندهم . انها مشكلة في غاية التعقيد. وهناك داخل العناصر اليسارية حركة قوية لمناهضة الجوانب الدينية في الصهيونية وفي مؤسسات الدولة . فمثلا ، عدد كبير من الاسرائيليين يقفون ضد الاجراءات الدينية التي تؤدي الى وقف القطارات والاوتوبيسات يوم السبت وضد منع الزواج بين اليهود وغير اليهود الخ .. وهناك صراع لا يجب التقليل من شأنه ضد بعض العناصر اليسارية المضادة للصهيونية .. ولكن للاسف القوى العسكرية والدينية المتعصبة والرجعية هي القوى المسيطرة في اسرائيل في هذه الظروف .

وسكت سارتر عند هذا الحد . فقلت له انه لم يجب على سؤالي بالتحديد : أنا أريد أن أعرف بالدقة رأيكم في حل المشكلة اليهودية وهل الطريق الصهيوني الاسرائيلي هو الحل الموضوعي والانساني السليم وخاصة بعد أن زرتم اسرائيل ؟

وراح سارتر يردد مرات عبارتي « تريد ان تعرف بدقة » قبل ان يسترسل قائلا : أنا أعرف ارتباط عدد من أصدقائي اليهود باسرائيل . ولكن من الواضح مع وجود ١٢،٥ مليون يهودي خارج اسرائيل وعدم رغبة هؤلاء في الهجرة الى اسرائيل ، بينما لا يوجد داخل اسرائيل الا ٢،٥ مليون يهودي .. أقول ، من الواضح ان اسرائيل لا تشكل حلا للمشكلة اليهودية . لقد آمنت دائما ان المشكلة اليهودية ، التي هي في نظري مشكلة يهودية مسيحية ، لن تجد حلا لها الا داخل العالم اليهودي المسيحي ذاته . وأضيف ان هذا التناقض بين اليهود والمسيحيين هو الذي أنتج الحضارة اليهودية وأفساد المسيحيين أيضا . المشكلة اذن حلها في التناقض بين اليهود والمسيحيين .

ــ المسيحيون الاوروبيون ؟

ــ المسيحيون الاوروبيون بالطبع بل والغربيون عامة .. ففي أميركا يوجد أيضا عدد كبير من اليهود . ولذلك أعتقد ان وجود ١٢،٥ مليون يهودي خارج اسرائيل و ٢،٥ مليون داخلها لا يمكن ان يجعل من اسرائيل حلا للمشكلة اليهودية . ان اسرائيل ليست حلا لمشكلة العداء للسامية . ان المشكلة اليهودية ينبغي أن تجد حلها حيثما يوجد اليهود . وينبغي علينا نحن الغربيين، أن نناضل من أجل هذا الحل . أي في المكان الذي لا يبحث فيه عن هذا الحل أبدا . ولكن أريدكم مع هذا أن تحاولوا النظرة الى المشكلة من زاوية الرؤية هنا في الغرب .

قلت :

ــ ولكن اسرائيل دعي اليها وأنشئت بقوة السلاح كحل للمشكلة اليهودية في الاساس ، وليس كمجرد واقع انساني لعدد معين من اليهود يلجأون الى رحاب دولة ما هربا من الاضطهاد . وترتب على ذلك مأساة انسانية مروعة عند العرب . هنا جوهر الحقيقة الموضوعية .

ــ انت تعلم موقفي بشأن أثر انشاء اسرائيل على العرب ولا أرى ضرورة تكرار ذلك الان . وفي تقديري ان الصهيونية كما تصورها « هرتزل » في نهاية القرن التاسع عشر ، أي القائمة على فكرة انشاء دولة يهودية في القدس ، لم تكن جريمة بمقياس ذلك العصر .. لماذا ؟ لقد كانت حلا استعماريا مثل كل الحلول الاخرى في ذلك الحين . لم يكن أحد يفكر في ذلك الوقت في مصير الشعوب المستعمرة او التي كان يفرض عليها الاستعمار بالانتداب . وكانت فلسطين تتبع في ذلك الوقت الاتراك . فالذين تقدموا بذلك الحل وقتذاك كانوا يتقدمون بحل يعكس معطيات عصرهم .. والكارثة هي ان هذا الحل لم يتحقق الا في عصر اخر .. عصر أخذت الشعوب فيه تعي مصيرها وأخذ الاستعمار طريقه الى الزوال . ولذلك فالحل عند تنفيذه يحمل البصمات الواضحة لمفهوم غربي .

قلت :

ــ ولكن ألا ترى ان الامر الخطير هو ان الصهيونية تهدف باستمرار ــ وبحكم مفهوم الاحداث المتوالية ــ الى توسيع حدود اسرائيل على حساب العرب لافساح المجال لمهاجرين وعلى الدوام ؟

ملاحظة هامة : يرجى من القارىء الكريم عندما ينتهي من الصفحة ٥٨ ان يتابع المقال على الصفحة ٧٨ .

ــ نعم . وأعتقد أن هذا الاتجاه خطير بالفعل ولا ينبغي التسليم به . وانا أعرف يهودا هنا في فرنسا مناصرين بقوة لاسرائيل ولكنهم يتناقضون مع انفسهم لانهم لا يريدون الحياة في اسرائيل ويفضلون الحياة هنا . أفكر مثلا في مزراحي .. انه يدافع عن اسرائيل ويتبنى وجهة نظرها بقوة لدرجة انه خلال الاحداث الاخيرة قد وقع صريع أزمة صحية حادة .

ومع ذلك كله فمزراحي ما زال هنا . وهذا تناقض مألوف جدا عند يهود أوروبا . انهم يريدون اسرائيل ولكنهم لا يريدون الذهاب للاقامة بها .

وعندما تقدم الحوار الى هذا الحد وضعت امام عين سارتر ظاهرة موضوعية أخرى محددة طالبا منه تفسيرها ، وهي انه في كل مرة تنشب حرب بين اسرائيل والبلدان العربية تكون اسرائيل وقادتها الصهيونيون هم الذين يبادرون بالعدوان العسكري بمساعدة مادية وعسكرية وسياسية ، مباشرة وغير مباشرة ، من القوى الاستعمارية .

ومضت لحظات صمت قبل أن يعطي سارتر التفسير التالي :

ــ لتحديد موقف دقيق بشأن هذه المشكلة ، يجب أن نلاحظ أولا ان اسرائيل لا تستطيع قط ان تقضي على حقيقة وجود مائة مليون عربي . ولذلك فمن المتصور انها ترمي الى اعمال توسعية أو تسهم في احداث انقلاب ضد حكومة عربية . ولكن من غير المتصور ان اسرائيل عندما ترفع السلاح ضد مصر تهدف الى القضاء على مصر كامة او دولة .. فهذا عديم المعنى . ولكن من الناحية الاخرى ان التهديد الذي يواجه اسرائيل في حالة وقوع الحرب ، ومهما احتاط العرب لعدم المساس بحياة الافراد ، هو القضاء على اسرائيل كدولة . ولذلك فالموقف من الحرب ليس واحدا من الجانبين . فمن ناحيه ، يناضل العرب للدفاع عن منجزاتهم الاجتماعية ضد الاستعمار وضد اسرائيل التي يعتبرونها رأس رمح للاستعمار ، ومن الناحية الاخرى أي بالنسبة لاسرائيل فالقضية ليست قضية المنجزات الاجتماعية ضد الاستعمار وانما القضية هي قضية وجودها غير المعترف به من جانب الدول العربية . ومن هنا فهي تتسلح بصورة استثنائية وتقيم سياسة تنهض على القوة العسكرية ، وقد زادت هذه السياسة تفاقما بقدر اعتمادها على عدد محدود من السكان . ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار اسرائيل في حالة تأهب عسكري دائم وسط العرب . ولما كانت الدوائر الحاكمة في اسرائيل مكونة من « الاشكيناز » ، أي اليهود الوافدين من اوروبا ، كانت النتيجة انها تمثل رأس رمح غربي . وفي هذه النقطة يهمني أن أبرز موافقتي ، بشكل عام وغير تفصيلي ، مع وجهة النظر العربية القائلة بأنه في عام ١٩٥٦ وفي عام ١٩٦٧ قد حدث تواطؤ بين الاستعمار واسرائيل . وهذا التواطؤ هو في الحقيقة مؤامرة كاملة . وقد استخدم الاستعماريون الاميركيون اسرائيل استنادا الى تواطئها معهم بوعي لضرب الشعوب العربية . ورأيي الشخصي هو ان الامور تقضي الى ان اسرائيل في كل مرة تطلق عدوانيتها لاسباب تتعلق بكيانها ووجودها ولكنها تخدم موضوعيا المخطط الاستعماري .

ــ المخطط الاستعماري الاميركي بالدرجة الاولى .

ــ نعم .. الاستعمار الاميركي خاصة . وفي هذه المرة اغلب الظن انه ليس هناك اتفاق محدود ومكتوب بين اميركا واسرائيل من خلال مبعوثين اميركيين مثلا .. ومع ذلك فأنا أسلم موضوعيا ان الحرب التي اشعلتها اسرائيل اخيرا لا يمكن الا ان تخدم المصالح الاميركية .

***

مضت اكثر من ساعة وأنا أجلس الى سارتر ونبرات الحوار ترتفع حينا وتخفت حينا اخر ، ومقاطعات كل منا للاخر تروح وتجيء بلا انقطاع ، وموجة الحرارة التي طافت بباريس يومها ، أسهمت في اشعال العديد من الكلمات .

قلت لسارتر ، متابعا الحوار معه ، هل لي أن أوجه اليك سؤالا ؟ كيف تفسر انه في كل مرة يحقق فيها النضال العربي مرحلة معينة من التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي يتبلور في انجازات تقدمية ، تتحرك اسرائيل على الفور للعدوان سواء في تحالف صريح او خفي مع القوى الاستعمارية ؟

اجاب : الحق ان اسرائيل عام ١٩٥٦ قد استفادت من المؤامرة البريطانية الفرنسية المتعلقة بالسويس .. أي من واقع ان الدول الاستعمارية كانت قد قررت التدخل في السويس . ولا أظن ان اسرائيل في ذاتها قادرة أو تسعى وحدها لتحطيم العرب . ويمكن ان أقول بشكل عام انني على سبيل القطع لا أعتبر اسرائيل بلدا تقدميا . ان تطور اسرائيل لا يجري في اتجاه تقدمي . ان يهود الكيبوتز القدامى الذين وفدوا الى فلسطين في وقت لم تكن فيه اسرائيل دولة حاولوا صنع اشتراكية ولكنها لم تتمكن بالطبع من أن تنهض بنفسها . والان أعتقد ان تطور القطاع الخاص الحالي في اسرائيل قد قضى تماما على كل المعطيات التقدمية التي وجدت في البداية حين لم تكن هناك دولة اسرائيل ، وانما فلسطين كمأوى لليهود .. أولئك الذين كان يطلق عليهم في الغرب اسم اليهود القذرين .. اذن فلست اظن ان ثمة هناك تقدمية اسرائيلية . وهذا لا يعني انه ليس هناك صراع طبقي في اسرائيل ، لان اليهود الشرقيين ، أي سفارديم ، يمثلون العنصر المعرض للاستغلال وهم لا يندمجون في المجتمع الاسرائيلي المسيطر عليه اليهود الغربيون أي الاشكيناز الا ببطء وصعوبة .

قلت لسارتر : لعلك لاحظت خلال الحملات التي

سائح عربي في باريس

يخيل لي أن كل العيون تعيرني عندما تنظر
أنا عربي هنا بينهم علامته .. لونه الاسمر
على وجهه حزنه ظاهر وفي قلبه جرحه يقطر
اراني غريبا على ارضهم وفي وطني غربتي أكبر
يطاردني فيه مستعمر ويخدعني فيه مستكبر
فأحمل عاري على جبهتي ليلعنني كل من يعبر

***

وامشي .. وامشي .. بلا غاية احدث نفسي ولا اشعر
أرى كل شيء هنا باهتا كأني بعيني لا ابصر
وباريس ضاقت على وسعها فليست تغني ولا تسكر
ولي منك يا ليلها نفحة روائحها لم تزل تنشر
فلا تمتهني .. فلا تمتهن عزيزا به دهره يمكر
هزيمتنا اليوم مشهورة ولكن امجادنا أشهر
لقد نسي الناس امجادنا وان كانت الامس لا تحصر
ولم يذكروا ان صحراءنا شوى جلدهم رملها الاصفر
وأن الجزائر قد جرّحتهم وأوراس من دمهم أحمر
ولم يذكروا عارهم في القنال ولا حرب بنزرت .. لم ينكروا

***

وامشي وامشي بلا غاية احدث نفسي ولا اشعر ..
سأحكي لابنائنا قصة يردد أخبارها السمر
ويحفظها الطفل عن امه ويروي عن الاكبر الاصفر
اقول لهم حدثوا بعضكم اقول لهم كلما استخبروا :
فلسطين قصة آبائكم فلا تقبلوا عار ما سطروا
لجيل الهزيمة اعباؤها وانتم عليكم بأن تثأروا ..
لقد فعل الغرب ما يشتهي الا فاحذروه ..
احذروه ..
احذروا

تونس — جعفر ماجد

رسالة إلى القدس

قصة بقلم يحيى يخلف

ازاحت الستائر ، فتدفقت اشعة الشمس ، واضاءت الغرفة .. ونظرت اليه وهو يتململ في السرير ثم تنهدت .. واقتربت من سريره ، فاطفأت الاباجورة المضاءة .. والتقطت الكتاب عن البلاط ، واعادته الى مدنبه ، وعندما كانت تعيد نظارته التي يلبسها عند القراءة الى الحافظة ، قالت لنفسها : ان كل الدلائل تشير الى انه نام ليلة تعيسة.

عادت على رؤوس اصابعها ، وفتحت نافـــذة الصالون ، والقت بنظراتها عبر الشرفة ، فأبصرت مجندة اسرائيلية تذرع الرصيف بجانب الانقاض المتداعية السوداء .

اغلقت النافذة سريعا ، وحدقت بصورتها في المرآة المقابلة تأخجلها ان يكون الفزع قد ارتسم على ملامحها ، وبنفس اللحظة سمعت حركته من الداخل ، فأسرعت الى غرفته ...

كان قد افاق من نومه .. وجهه شاحب بصفاء .. عيناه حمراوان، لكن نظراته وديعة ، وشعــــر رأسه الاسود الابيض يحتفظ بترجيلته ، وشعيرات فوديه بيضاء اكثر من اي وقت مضى .

ساءت حتى دمعت عيناه ، وشبك اصابعه خلف رأسه ، ونظر اليها فشعرت بالارتباك .. قالت : صباح الخير .

هز رأسه ، كان واضحا انه يشعر بالدوار .

عادت تقول : لقد اعادوا لك السيارة يا سيدي .

لم يبد على وجهه اية انفعالات ، فتابعت :

ـ انهم لم يعيدوا الا سيارات الاطباء .

اغمض عينيه ، استطاعت ان ترى صورة زوجته واطفاله الثلاثـــة عبر خطوط وجهه ، وبنفس الوقت عبرت خيالها عاصفة مـــن اصوات القنابل والرصاص ، والقصف الجنوني ، فانكمشت علـــى نفسها ، والتصقت بالحائط .

فتح عينيه ، ونظر اليها ، ثم تساءل : هل تشكين الما ؟.

احست كأنما كانت تجري لمسافات طويلة ، فقالت وهي تلهث :

ـ كنت اتذكر اصوات قصف الطائرات اليهودية .

خطر له ان ينبهها للمرة العاشرة ، الى ان الطائرات ليست يهودية فقط ، وانما امريكية وبريطانية ايضا ، لكنه مسح وجهه بطرف كمه في عصبية ، وهبط عن السرير ، وجلس على مقعد بجانب المذياع .. وفتحه.

ـ الاذاعات العربية ما زالت تذيع الاناشيد الوطنية ، ان العرب لن يتركوا القدس محتلة .. اليس كذلك يا سيدي ؟.

ظل يحرك ابرة المذياع ، وتبادر الى ذهنها انه يبحث عن برنامـــج « رسائل العرب الى ذويهم في الضفة الغربية » ، وخطر لها انه يتوقع ان يسمع شيئا عن زوجته واطفاله الثلاثة ، وتذكرت صورته المرعبة يوم كان يداوي جرحى معركة السلاح الابيض في الشيخ جراح ، وعاد لحظة ان احتل اليهود جبل الطور .. لقد صفعتها صورته القاسية ، فتجمدت في تلك اللحظات عند الباب ، هزها بعنف ، وقال بصوت مذبوح : لقـــد احتلوا القدس ...

كان ما يزال يحرك ابرة المذياع ، ولا بد انه يئس ، فقـــد اغلقه ، ثم سألها : هل تسمعين الرسائل الصوتية ؟

اجابت : اسمعها بطريق الصدفة ..

فتح شفتيه ليقول شيئا ، لكنه لم يلفظه ، فعرفت انه كان سيطلب منها ان تستمع الى هذه الرسائل ، فربما سمع خبرا ما عـــن زوجته واطفالـــه .

اشعل اخر سيجارة لديه ، والقـــى بالصندوق الفارغ جانبا ، وتذكر فنجان قهوته الصباحي ، فقالت :

ـ ليس عندنا سكر ولا شاي .. ولا خبز .. عندنا قليل من البن ، سأصنع لك قهوة سادة .

قامت دون ان تستمع الى اجابته ، ظل في الغرفة وحيدا ، وظل يدخن في صمت ، واجال بصره في اطراف الغرفة التي تعبق بالدخان، وتوقفت نظراته عند صورة الزفاف التذكارية المعلقة علـــى الحائط ، وقف ، واقترب .. وحدق بوجه (فائزة) الذي يطل من خلال فستان الزفاف والطرحة وضمة ورد ، وخيل اليه انه يرى الصورة بشكل واع لاول مرة .. وكانت صورته بالبدلة الكحلية والمنديل الابيض والشارب الخفيف توحي بالشباب والفتوة ..

ومرت في خياله ذكريات ندية ، تشبه التقاء اول قطرة مطر باول ذرة تراب .

ومرت في خياله ذكريات ندية ، تشبه التقاء اول قطرة مطر باول يد العميد ، ثم وهو يستقبل اول زبون في عيادته الصغيرة ، ثم وهو يلتقي بفائزة لاول مرة ذات أمسية شتائية ، ثم أول طفل يولد لهما ، واول مؤتمر طبي يشترك فيه .. و ... وسمع خطوات الخادمة خلفه ، فالتفت كأنما فاجأته في موقف ضعف .. وسمع صوتها :

ـ هذه القهوة السادة يا سيدي .. انها ...

وتوقفت تجاه ، ثم قالت باهتمام : ـ سيدي .. انت تبكي ..

وجد صوته يجيب : ـ هه .. أنا أبكي .. من قال ذلك ؟

ـ انا أبصر الدموع في عينيك .. انظر الى المرآة ..

شاهد صورته من خلال الغبش في المرآة ، كانت ثمة دموع فـــي عينيـــه ..

خرج من الغرفة مندفعا الى الصالون ، فعضت على شفتها ،وكانت تستطيع أن تحس جيدا كم هو يتعذب ..

دفن اخر سيجارة في المنفضة ، وأسند ظهره الى الاريكة .

قالت لنفسها : « ـ انه يتعذب .. انه يحترق في صمت ، زوجته الست فائزة سافرت مع أولادها الى بيروت بعد سوء تفاهم بينهما .. سافرت قبل الحرب بأربعة أيام .. ترى .. أي عذاب يشتعل فـــي جوانحه ؟ » ..

اعتدل بجلسته ، ثم انحنى ، ودفن وجهه بين كفيه . ظلت تحدث نفسها « .. يوم سقطت القدس احترق دمه .. ترى هل بقي في قلبه نبضات تتألم ؟ » .

قالت تخاطبه : ـ سيدي ..

أزاح احدى كفيه ، وظلت الكف الاخرى تخفي نصف وجهه.

عادت تقول : ـ سيدي .. لماذا لا تخرج من الضفة الغربية ؟

تحول وجهه الى قطعة من الفخار ، فاستطردت قائلة : ـ كثير من الناس عبروا الى الضفة الشرقية .. ان اليهود يطردون الناس طردا ، فلماذا لا تخرج ؟ ... أنت لديك سيارة .. سنصل بها حتى ضفة النهـــر .

قست ملامح وجهه ، وبدأت تتحول الى صوان أحمر ، وقال بصوت مرعب :

اسكتي ..

صمتت لحظات ، ثم اندفعت قائلة :

ـ زوجتك الست (فائزة) في بيروت ومعها اولادك ، تستطيع ان تذهب الى بيروت وتفتح عيادة هناك .

وقف ، وكان الانفعال يبدو جليا في حركاته .. وقفت وقالت بصوت مرتفع :

ـ ترى .. اي مصير ينتظر الست فائزة والاولاد بدونك ؟

استدار نحوها سريعا ، وصفعها بكل قوته ، فسقطت على الارض باكية ، ثم بدأت تنتحب .

مر في ذاكرته سريعا ان هذه المراة غريبة .. وان اهلها في مكان ما من الضفة الشرقية ، وانها تتعذب مثله وتتألم ، وان الحنين يمزقها، فركع على ركبتيه ، ورفعها عن الارض ، ومسح دموعها بابهامه .. ثم وقف ، وبعد فترة طويلة من الصمت قال :

ـ جهزي حاجياتك .

قامت من الزاوية ببطء ، كانما لا تصدق ، وقالت بصوت شاحب:

ـ انهم لا يسمحون لاحد بان يخرج معه شيئا .

ثم غابت في المطبخ ، فدخل غرفته ، وارتدى ملابسه ، وعندما خرج كانت متهيئة للرحيل ... تحمل في يدها صرة صغيرة ، ويرتسم الذبول على وجهها .

التقت عيناهما لحظات ، فابتلع ريقه بصعوبة كانما يزدرد شيئا صلبا ، وتحركت خطواته امامها ببطء كانه يسير في جنازة . فتح لها باب السيارة ، فدخلت ، ثم اطبق الباب بقوة ، كانما يريد ان يلصقه فلا يفتح ابدا ..

وتابعته بعينيها وهو يستدير ويعبر امام النافذة العريضة ، ثم يفتح الباب ويغوص في المقعد وراء عجلة القيادة ...

.. من وراء الزجاج كانت المدينة القديمة تنبسط تحت جبل الزيتون .. قبة الصخرة تتوهج تحت الشمس ، واشجار السرو في ساحة المسجد .. وقباب الكنائس فوق طريق الالام .. وحارة النصارى .. وازقة وبواكي سوق الدباغة .. وخان الزيت ...

تجمدت يداه على المفتاح ، وامتقع وجهه ، وحدقت به ...

امتقع وجهه للغاية ، وتتابعت وجوهه الحمراء .. والزرقاء .. والصفراء .. فجاة قال بصوت صلب : ـ لن اخرج .. سابقى هنا .

ظل يحدق عبر الزجاج ، ثم تابع كلامه :

ـ هذه ارضي .. وهذا منزلي .. ولن ادع احدا يغتصبهما .

دارت عيناها في محجريهما ... عينان سوداوان محروقتان .

ظل كل منهما صامتا ، كان عليها ان تتكلم وتبدد الصمت .

فتح فمه ، ثم تردد قبل ان يقول :

ـ بالنسبة لك ، تستطيعين ان تذهبي ..

وفتح باب السيارة وهبط ، وسار .. ثم تلاحقت خطواته وهو يصعد الدرجات .. وفتح الباب ، وداهمه احساس حاد بالاصرار ، وعاد ليجلس مرة اخرى ، ويحدق عبر النافذة بالابنية المتهدمة من القصف ..

بعد قليل سمع خطواتها .. خطوات ضعيفة تتنقل بصعوبة .. وشاهدها على زجاج النافذة وهي تعبر الى المطبخ ، ثم وهي تعود بملابس العمل ، وبيدها مكنسة ...

***

قالت له :

ـ اريد نقودا لاشتري لك السجائر والخبز والشاي والطعام .

وبنفس اللحظة ، بدأ المذياع يذيع الرسائل الصوتية ، الصق اذنه بالمذياع ، وبدأت الاصوات الحزينة الراعشة تبعث بتحياتها ..

انتهى البرنامج دون ان يسمع ما ينتظر ، ورغم تصلب وجهه ، فانه لم يستطع ان يخفي سحابة من الاسى غامت بها عيناه .

عادت تقول له :

ـ اريد نقودا لاشتري ..

مد يده ، واخرج النقود ، تفرست بها ، ثم قالت :

ـ سمعتهم يقولون بان اليهود سيستبدلون بالعملة الاردنية العملة الاسرائيلية .

قال لها بصوت لا يمت اليه :

ـ يحسن بك ان تذهبي قبل ان يبدأ منع التجول .

عقدت الفلالة على رأسها ، ودست اصابع قدميها في الشبشب..

وعندما همت بالتحرك ، تناهى الى سمعهما صوت طلقات نارية .

وقف سريعا ، والصق جبهته بزجاج النافذة ، وعلى الرصيف المقابل شاهد جثة انسان تتمدد وسط بركة من الدماء ، بينما وقف فوقها جندي اسرائيلي ..

شعر بشيء ما يمزق عروقه ، فقال بصوت صارم :

ـ انها جثة عربي .. لا بد انه فدائي ... انظري .. انه يرتعش .. انه بحاجة لمساعدة .. ربما كان هناك أمل ما ..

استدار عن النافذة ، واندفع مهرولا ، فلحقته لتتشبث به وتمنعه من الذهاب ، غير انها لم تدركه ، وعادت الى النافذة فابصرته يسير تجاه الجثة والجندي .. وهو يسير على بعد يسير من الجندي كان يتكلم ، ولا بد انه اخبر الجندي بانه طبيب ، وعندما وصل ، رفع الجندي بندقيته عاليا وضربه بطرفها في بطنه . خرجت من فمها شهقة رعب ، وامتدت يدها الى بطنها في ألم ، رشاهدته ينحني ، ثم يسقط وقد تكور على نفسه كالجنين بجانب الجثة ..

وراء الزجاج ، كانت تقف كالتمثال .. كل شيء مر سريعا . كل شيء لا يصدق .. وشاهدت سيارة جيب تقف وتحملهما ، ثم تنطلق تاركة خلفها عاصفة من الغبار .

وبدأت تعي ذهولها.. وتلفتت حولها.. ومرت في ذاكرتها اصوات الطائرات والمدافع والقصف الجنوني ، فالتصقت بالحائط ، وصفعت الستائر موجة من الهواء ، وفي الوقت نفسه كان صوت امراة يرتعش في المذياع « انا فائزة احمد عبد الفتاح .. زوجة الدكتور عبد الفتاح من سكان الطور بالقدس .. » .

اوه .. ازداد التصاقها بالحائط ، وازداد عنف الموجات الهوائية التي تنطح الستائر .. « ابعث بسلامي ، وسلام الاولاد الى زوجي الدكتور واخبره انني جئت من بيروت الى عمان لاكون اكثر قربا منه».

.. جثت على ركبتيها ، كما كانت تجثو للعذراء في قبو كنيسة القيامة ... « كلنا بخير .. ليحفظك الله .. اطمئن وطمئننا .. والرجاء ممن يسمع هذه الرسالة الصوتية ان يبلغها الى صاحبها .. » .

كانت ما تزال جاثية ، وكانت تلك آخر رسالة صوتية في البرنامج، بعدها اعلن المذيع ان المعركة مستمرة .

اربد (الاردن) يحيى يخلف

رسالة الى الأصدقاء العرب

للشاعر الأذربيجاني رسول رضا

أيها الاصدقاء الاعزاء ،

في هـذه الايام حيث اقتحمت المنازل العربية فظائع الحرب الغادرة القاسية واللاانسانية التي شنتها اسرائيل بدعم من الـدول الامبريالية ولا سيما الولايات المتحدة وبريطانيا ، منزلة بالناس العرب الويلات والشقاء، رحت بصورة تلقائية أردد أبيات قصيدتي « آلام الارض » التي كتبتها منذ عدة سنوات في القاهرة . وكنت حينئذ عائدا من العراق ، فقمت بزيارة هذه المدينة البديعة . وكنت ارى في كل خطوة اخطوها الجهود الجبارة حقـا لمواطنيكم الذين يعالجون جراح موطنهم بعـد سيطـرة طويلة وبغيضة للمستعمرين الاجانب .

لذلك لا بد لي من ان أوجه كلامي اليكم أيهـا الاصدقاء العرب في الجمهورية العربية ، وبأشخاصكم ، الى جميع ابناء الامة العربية الشقيقة .

انكم أبناء شعبكم العظيم ، وقد فعلتم كل شـيء لانتهاج الطريق الكبرى للتقـدم والتجديد وللازدهار الاقتصادي والثقافي للامة . ولكن كم كان ثمة من أعمال لم تنجز وآمال مضيئة لم تتحقق بعد ! لقد كان يلزمكـم الوقت لنشر أجنحتكم بكل اتساعها ، واستجماع القوى قبل تحقيق المآثر الجديدة . لكن المعتدين الامبرياليين وصنائعهم الاسرائيليين كانوا يفرضـون عليكم المعـارك والمنازعات ، آخذين من وقتكم ، ساعين لتحويل جهودكم عن وجهتها المطلوبة .

انكم لم ترضخوا أبدا لوضعكم كأناس محرومين من الحقوق في بلادكم ذاتها . وقد رأيتكم تحطمون أغلال عبوديتكم الدهرية . ولا زلت أذكر الحماسة التي كان احدكم يقول لي بها : « اذا كانت الاهرام المهيبة من عمل أناس مستعبدين وتستطيع كل حجر فيها أن تروي اكثر من قصة مؤلمة عن آلاف الارواح البشريـة المسحوقة ، فان سد أسوان قد شيد وهو سيظـل مرتفعا طوال قرون بصفته رمزا لاعتزاز شعبنا المستيقظ ، وتمجيدا لعمل الناس الذين خلعوا النير الاجنبي » .

ان كل حجر يوضع في جدران المباني الجديدة كان بالنسبة لكم مصدر بهجة ، وكنتم تبتسمون لمرأى كـل ولد ذاهب الى المدرسة . وكنتم تبتهجون اكبر الابتهاج لدى الاصغاء الى انباء المآثر الجديدة في البناء والتقدم العربيين .

واليوم انتهكت حرب هوجاء هدوء أرضكم الوادعة. والاشخاص الذين سقطوا ضحيتها كان يمكن ان يعيشوا سنين أيضا وأن يعرفوا السعادة ويحملوها الى آخرين.

ان المعتدين الاسرائيليين ، هؤلاء الاقزام اذا عدت سجايا الناس ، تضايقهم حرية الشعوب العربية ، فهي عدوهم الالد . ولا يريـد الامبرياليون ان يروا بشرا يرفعون رؤوسهم امامهم ، بوجوه معتزة ، مصممين على بناء الحياة الجديدة . وانهم بعد ان فقدوا تماما الحس بالواقع ، ارادوا ان يعيدوا عجلة التاريخ الى الوراء . ولن يتمكن أحد من جعل الشعوب تركع ، هذه الشعوب التي ذاقت ثمار الحرية ، بعد ان عرفت مرارة العبودية.

وستمضي أعوام . وستمحو الرياح آثار الحرب الدامية . لكن الخزي والعار سيظل لاصقـا ابد الدهر بأسماء المعتدين الاسرائيليين ومحرضيهم في واشنطـن ولندن وبون الذين يهددون بالموت الشعوب لمنعها مـن السير نحو الاستقلال ، أسمـاء أولئك الذين داسوا بالاقدام مبادىء الانسانية المتمدنة . وسيبقى ابدا في الذاكرة هذا الكابوس للفظائع المرتكبة من قبل الاستعماريين « المسالمين » والمحاربين فعلا والمتسترين بأقنعة أخرى.

انني على يقين ، ايها الاصدقاء ، بأن شعبكم سيحتفظ بحريته غير منتهكة . وسيأتي اليوم الذي تجتمع فيـه كل الشعوب لتبادل التهاني بزوال الحروب نهائيا مـن حياة البشر ، وسيلفت البشر من جميع الجهات رؤوسهم نحو اي انسان ينادي « أيها الاخوة ، أيها الاصدقاء ! » .

وسأردد اليوم هذه الابيات بألم أكبر من ذلك الذي الم بي حين قلتها لاول مرة :

ليس ما يثير قلقي هو هذه الليلة
وهذا اليوم
اللذان سيمضيان
ويبقيان بعيدا وراءنا .
اذا كنت لا استطيع الرقاد
فان آلام العالم
واوجاع الناس هي السبب .

(وكالة انباء نوفوستي)

مرثية لحم تم

شربنا المرارات بعد المراره
وقلنا : سنجعل أرض العباره
كتابا لنا ، قبلة ، أو مناره ..
وغبنا نشدُّ الرحال الغريب
ونسأل أرض اليباس البشاره
وكان انتظار طويل عجيب
يعلل بالنجم ليل المغاره
ونعنو ، نضيق ، ولا يستجيب .
ولم يبق الاي عبر الصليب
أضمُّ الجروح بوجد خصيب ،
أعاني هواه ، أعاني دواره .
ايا قصة البؤس : ردّي البكاره
لاعمارنا ، واجعلينا شراره ...
هنا العري عانى الهوى واحتضاره
وعلّم كل الخلايا حواره
ومات تكلل رؤياه ناره
ليدخل في عتمات النحيب !

***

سألتك ان تدخلي في ضميري
وان تجعلي من جروحي سريري
وان تحملي لي الهوى والسلامه
سألتك كوني لدينا غمامه
اذا امطرت في المدار الفقير
بكى القلب بعد انتظار مرير ،
وكان يلوح كطفل غرير
يشر بالصمت بعد السآمه .
سألتك كوني لدينا حمامه ،
وقولي لعمري ، لركبي الضرير
بأن لا درب بعد الندامه
ولو ضجَّ بالوجد صوت البشير !

***

اردناك خلف عشايا الرماد
دليلا يعلل بالامنيات
وكنا على طرقات المعاد
نذوب ، ونعبر ليل السهاد
وما من خطور ، وما من نجاة ،
نردّد كل طقوس الصلاة
ونجلد بين الهوى والبعاد ،
وما من حضور يبلُّ فؤادي .
اردناك ! ضاع طريق المراد
أردناك ! ردّي الي حياتي
ولا تتركيني لارض الموات .

***

وهبناك كل كتاب الدموع
وصرنا لديك بقايا شموع
ولم تعرفي اي حب سوانا
وضعت ، وضاعت حكايا هوانا
وكللت بالصمت عريي وجوعي !

***

سألناك امس بقايا عباره
فانا هنا وهناك نموت ...
شربنا المرارات بعد المراره ،
وكان انفجار ، وكان سكوت ...

حمص

مصطفى خضر

الفكر السياسي

بين الحقيقة والمصلحة

بقلم عبد اللطيف شرارة

يقف عرب اليوم ، في مختلف ديارهم من العراق الى المغرب الاقصى ، ومن أعالي الموصل الى شطآن عدن ، على عتبة عصر جديد مغاير في كثير من الوجوه والاتجاهات ، لما سبق لهم أن مروا به من عصور ، وهم الذين ولجوا التاريخ قبل غيرهم من شعوب الارض وأممها ، وكانت بلادهم مهاد الحضارة الانسانية ، ومنطلق انتشارها وامتدادها .

وذلك وحده يكفي للدلالة على خطورة هذه « اللحظة الحضارية » من عمر النضال العربي ، وتقدم هذا النضال ، وزحفه المنتصر نحو أهدافه العالية ، الذاهبة صعدا حتى تبلغ سماوات الحق والخير والجمال ، والموغلة عمقا حتى تنفذ الى اسرار الواقع الخفي ، ومخبآت المستقبل الغامض .

وخلاصة ما يمكن أن تنجلي عنه هذه الفترة التاريخية الحاسمة، انما هو ايجاد مجتمع دولي جديد ، غير هذا المجتمع الدولي الراهن الذي اثبت عجزه عن مجابهة المفاسد الدولية ، عن مقاومة الانتهازية العالمية ، عن انسياقه أخيرا في الموبقات التي احتضنها الفاسدون والانتهازيون والمنحلون من كل جنس ولون وملة وبلد .

والامر انما سيكون على ما نصف ، لاسباب تتصل بواقع الطبيعة في جانب ، وواقع الفكر البشري في جانب ، وواقع التاريخ ، تاريخ المجتمعات الدولية في اخر جانب . وما هو ضرب من الرجم بالغيب ، كما قد يتصور أولئك الذين يخيفهم التغير ، ويرفضون مواجهة الواقع بنسبة ما يرفضون النظر في المصير . ولا هو أيضا وهم يبعث عليه حب جماعة أو أمة ، ويمليه بغض فئة أو شعب ، فليس للحب والبغض في كل ما نبين هنا مكان ، وان كنا لا نبرأ من حب الحقيقة ، وبالتالي من كراهية الدجل والزور .

وقضية المجتمع الدولي تدور برمتها حول الحقيقة والمصلحة، وما بين هاتين من روابط . ولن يكون للفكر السياسي من مهمة بعد ذلك، سوى تركيز للحقائق ومفاهيمها ، ثم ربطها بالمصالح ومفاهيمها ، فمن سعى في طلب الحقيقة وكشفها ، كان كمن يسعى في تركيز المصلحة العامة وبيانها ، لان المصلحة العامة لا يمكن أن تختلف والحقيقة في شيء ، فاذا اختلفتا كان معنى اختلافهما واحدا من ثلاثة : اما أن المصلحة شخصية لا عامة ، واما أن الحقيقة المبينة ليست حقيقة ، واما أن الرابطة بينهما غير طبيعية .

— ١ —

لا بد لكل باحث في الاجتماع البشري من درس الاخلاق التي يقوم عليها كل مجتمع ، وبيان مصادرها وأسسها في تاريخه وأطواره وأوضاعه المعاشية والثقافية .

هذه الاخلاق هي التي يرفض البيولوجيون ومن يحسبون انفسهم ذوي « نظرة علمية » اعتبارها علما ، لانها تعنى بما « يجب » أن يكون في سلوك الانسان ، لا بما هو « كائن » ، والعلم لا يكون علما الا حين يستند الى وقائع ، الى ظواهر محسوسة كالفيزياء والكيمياء ، أو معقولة كالرياضيات على أنواعها ، أو ثابتة لا يعتريها تبديل .

والاخلاق تتبدل وتتغير ، وتغيرها يحول دون تركيزها على وقائع ثابتة ، أو الاستناد اليها في تقريرات شاملة .

ولكن لكل مجتمع قيما أخلاقية خاصة ، وهذه القيم تكاد تكون واحدة في جميع البلدان والعصور ، كالصدق والامانة والعفة والشرف.

وهذا ما يكشف عنه البحث في طباع الشعوب (الانثروبولوجيا) قديما وحديثا .

يمكننا ، استنادا الى هذه الحقيقة الواقعية الثابتة أن نركز علم الاجتماع بعد اليوم ، على أساس من حقائق القيم المنشودة ، في كل مجتمع ، والوقائع التي تناقضها في سلوك الافراد والجماعات .

ودراسة القيم في حياة كل مجتمع ، هي التي كانت تسوق المؤرخين ، في مختلف الاحقاب الى تقسيم العصور التاريخية بين عصور تقدم ورقي ، وعصور تأخر وانحطاط .

ويمكن ، مبدئيا ، وضع لائحة بثلاثة أنواع من القيم : القيم العقلية، والقيم العاطفية ، والقيم العملية . ويرادفها في حياة المجتمع القيم العلمية ، والاخلاقية ، والمادية .

تتميز عهود الرقي الاجتماعي باحتلال القيم الاخلاقية أعلى المنازل من جهود الافراد والجماعات ، وتليها القيم العلمية ، وتأتي القيم المادية في اخر السلم ، حين يكون المجتمع راقيا .

أما عهود الانحطاط فينعكس فيها هذا الترتيب أو ينقلب رأسا على عقب ، اذ تصبح القيم المادية في أعلى المراتب ، تليها القيم العلمية الخالصة ، ولا يؤبه فيها أبدا للقيم الاخلاقية .

غير أن هنالك عصورا تاريخية لا يصح وصفها أنها منحطة ، كما لا يصح اعتبارها راقية ، فهي على التحقيق بين بين ، وتكون مقدمة للانحطاط . وهذه ترتفع بها القيم العلمية ذات الطابع المادي ، الى رأس السلم ، وتليها المادية ، فالاخلاقية .

وتتميز عهود الانحطاط في كل مجتمع ، بأنها ملتقى أمراض الحضارة . وأبرز أمراض المدنيات المعروفة في التاريخ عشرة . وهي : ١) انشاء امبراطورية ، ٢) الغرور على أساس عنصري واقليمي ، ٣) الاستمتاع بالفتوحات ، ٤) الاعتماد على الدعاية ، والقوة الاقتصادية ـ العسكرية ، ٥) الانصراف الى الملذات الحسية ، ٦) الاستهزاء والتلعب بالقوانين والقيم الادبية والروحية ، والتحلل من الواجبات الوطنية والانسانية ، والاعتداء على حقوق الاخرين ، ٧) التعلق بالمظاهر المادية، ٨) عبادة المرأة ، ٩) انتشار التجسس والشذوذ في العلاقات الاجتماعية، ١٠) اللامبالاة بالمصير .

والسياسة في مجتمع هذه أمراضه ، تصرف أذهان العامة والخاصة الى تحقيق المصلحة الشخصية على حساب كل مصلحة عامة ، وتغرق الحقيقة في خضم من الدعايات المغرضة ، واستغلال الافكار والمبادىء لبلوغ أهداف لا تمت الى تلك المبادي والافكار بأدنى صلة ، وتقف على طرف النقيض منها عملا اذ تحتمي بها قولا ، أو تزعم السير بمقتضاها جدلا كأن تعمل للحرب تحت ستار السلم ، وتناصر العدوان وهي تحتمي بالقانون .

أما الفكر السياسي ، فانه يرتطم ، ازاء واقع السياسة هذا، في عصور الانحطاط ، بفكرة « المصلحة » ، ويضيع اجمالا عن الحقيقة ، فلا يجهد بعد في كشفها ، ولا يعمل على تبينها في زحمة المصالح الشخصية وتضاربها .

والفضلاء من الناس والحكماء يتوارون عن الحياة العامة في مثل تلك العصور ، وينشدون العافية الروحية والسلامة الفكرية ، في الاعتزال والتأمل ، وتجنب الريب والاتهامات ، ثم لا يخلصون من الاتهام بالضعف ، وفتور الهمة ، وحتى بالجبن والانانية ، ويكون متهموهم ،

في الاعم الاغلب ، هم الذين يتصفون بتلك الصفات ، وهم السبب في بلائهم ، والمصائب التي نزلت بهم .

ولا سبيل الى النهوض من عثرات الانحطاط الذي يمنى بـه المجتمع ، الا بربط المصلحة في عقول الناس وأفئدتهم ونفوسهم ، بالحقيقة ، وحملهم على الايمان بأن مصالحهم لا تتأمن الا حين تنسجم والحقائق ، وأن واجبهم الاول تجاه أنفسهم كما هو تجاه الاخرين ، أن يتبينوا الصدق من الكذب ، والمغرض من المجرد ، والصحيح من المزيف ، كما هي حالهم اذ يتناولون قطعة من النقود ، أو يشترون أداة من أدوات معاشهم أو قوتهم . يجب أن يخامرهم الجزع من ((السم الفكري)) بنسبة ما يجزعون من سموم الاطعمة والاشربة ، وأن يطهروا ما يلقى اليهم من أخبار وآراء وأفكار ومبادىء مما قد يعلق بها من جراثيم ، على نحو ما يطهرون الفواكه والبقول وسائر ما يدخل معدهم ...

— ٢ —

والشرف هو الرابطة الصحيحة بين الحقيقة والمصلحة !

ذلك بأن الشريف يرفض أن يكذب ، ويرفض ان يتملق ويتمسكن ، ويحاول دائما أن يوفق بين ما يراه حرية له أو مصلحة ، وما هو حرية لغيره ومصلحة عامة . والشرف الانساني ، على التحقيق ، هو الاصل في فطرة الانسان لا الحيوان ، أو هو أصل الاخلاق المقبولة عقليا لدى جميع الشعوب والامم . وهو أيضا دليل الحياة ، في ذات الانسان .

والثابت علميا أن الحياة لا تولد الا من الحياة ، وقد بدد المجهر فكرة ((النشوء الذاتي)) التي آمن بها أرسطو والذين جاءوا بعده من فلاسفة العلم . وكانت هذه الفكرة نتيجة ملاحظة سطحية هي أن اللحم الميت اذا أنتن تخرج منه يرقات دودية الشكل ، تتحول مع الزمن الى ذباب . والمياه الصافية اذ تأسن مدة ، تنشأ فيهـا أيضا حيوانات صغيرة .

جاء المجهر (المكروسكوب) فأثبت أن الذباب لا يولد من اللحم الميت ، وانما هي بويضات صغيرة ، جد صغيرة ، يلقيها ذباب تام متكامل فوق اللحم ، ولا ترى بالعين المجردة ، ومن هذه البويضات التي لا تملك العين رؤيتها ، ينشأ الذباب .

ثم جاء باستور العالم الفرنسي ، فاكتشف أن ثمة كائنات حية صغيرة ، جد صغيرة ، منتشرة في الماء والهواء والتراب ، هي ما دعي ((المكروبات)) أو الجراثيم . وهذه الجراثيم هي التي تكمن وراء عدد كبير من الامراض كالسل وغيره ... وهذا معناه أن الحياة لا يمكن أن تولد الا من حياة سبقتها .

والاخلاق مظهر حياة فردية واجتماعية في آن واحد ، فلا يمكن أن تولد من الموات أو الجماد ، ولا يصح اعتبارها ناشئة عن العدم . ان لها أصلا من جنسها ، من نوعها ، كان سببا في نشوئها ، ولا يصح أن ينطبق عليها مبدأ ((الخلق الذاتي)) الذي محاه العلم ، لانها مظهر حياة ، بل هي التي تسير سلوك الحياة في سريرة الانسان عن وعي وغير وعي .

وانها لتختلف اختلاف الكائنات الحية بين بيئة وبيئة ، ومجتمع ومجتمع ، ومناخ ومناخ ، وزمن وزمن ، شأنها في ذلك شأن النباتات والحيوانات التي تتعدد أنواعها بتعدد المناخات ، والترب ، وضروب التربية والرعاية التي تبذل لها .

هذا يفيد أن للاخلاق الانسانية ـ والشرف ذروتها وملاكها ـ منبعا واحدا هو الاخلاق الاولى التي تحدرت منها ، ولا يمكن أن يكون لهـا منبعان كما تخيل برغسن فضلا عن أن يكون لها عدة ينابيع .

انها ككل حياة لا تولد الا من حياة سبقتها في أول درجة ، وعليها يجري ما يجري على الحياة من قوانين أساسية ، وهي :

١ ـ الارتباط بالماضي ، بالتراث الثقافي .
٢ ـ التأثر المحتوم بالبيئة والمناخ .
٣ ـ الرعاية ، والتربية ، والتجارب الشخصية .
٤ ـ التطور مع الزمن ، أو التنامي ، أو التحول .

الارتباط بالماضي هو ما نسميه ((الفطرة)) أي أن المولود البشري يولد وله فطرة ((انسانية)) أو طبيعة بشرية أساسية .

أما محتوى هذه الفطرة فيختلف ـ حسب الظاهر ـ باختلاف الاقاليم والبلدان والحضارات ، والمجتمعات ، وتاريخ كل منها . ولا يشذ في جملته عن الغرائز البشرية المعروفة ، التي تؤلف عناصر الفطرة الانسانية .

والاخلاق ليست سوى ((نتيجة)) لتفاعل عناصر الفطرة فيمـا بينها . والمربون يستخدمون كلمة ((استعدادات)) في وصف هـذا العنصر الفطري أو ذاك ، والتعبير عنه .

أما العناصر الانسانية الخالصة من محتوى الفطرة البشرية كالنزعة الى التآلف مع الاشباه والنظائر (الروح الاجتماعي) والرغبة فـي الخلود وحب الحرية ، ونشدان المعرفة (الفضول) ، فانها هي المؤثرات الذاتية الداخلية ، التي تحدد لاخلاق الفرد ، بتفاعلها مع بعضهـا البعض ، وجهة سلوكه المقبل في أول منزله . وتليها منازل تفاعل هذه العناصر ، خارج الذات من بعد ، مع البيئة والمناخ والرعاية والتربية ..

ان طغيان نشدان المعرفة على بقية عناصر الفطرة في ذات فرد ما ، يجعله ذكيا ، فضوليا ، ويوجهه في المستقبل نحو العلم أو الفن أو الفلسفة ، ويحد من النزعة الى التآلف السطحي ، الظاهر ، ويمحو أو يكاد الرغبة في الخلود ، لانه ينطوي ضمنا على تحقيق لهذا الخلود ، عن طريق الاختراع أو الاكتشاف أو الابداع الفني والفكري .

وكذلك هي الحال في طغيان النزعة الى التآلف ، فان من شأنها أن تحول الرغبة في الخلود (غريزة البقاء ، حفظ النوع ، الدفاع عن النفس) عن متجهها التصاعدي ، المنفرد ، وتحفر لها في الذات كما في خارجها قناة أخرى تجري فيها ، كرعاية الاعمال والمؤسسات الاجتماعية (دور الايتام ، المستشفيات ، ملاجىء العجزة ، مـآوي المشوهين والمشردين ، الخ...) أو الاشتغال بالسياسة العملية .

وهناك أخلاق رجولة ، وأخلاق أنوثة ، قل أن أولاهـا المفكرون السياسيون ما تستحق من اهتمام في وضع نظرياتهم السياسية ومعالجة أمراض الحضارة الراهنة ، اذ لا جدال أن تغلب النساء على بعـض المجتمعات في أوروبا وأميركا ، رجح كفة المصلحة الشخصية علـى الحقيقة ، في توجيه السياسة العامة لتلك المجتمعات الرازحة تحـت نير المرأة في كثير من التطلعات والاهداف والاتجاهات .

واجماع الباحثين منعقد على نحو عز نظيره في المباحث والدراسات الانسانية ، على أن أهداف المرأة في الحياة العامة تختلف عن أهداف الرجال ، أن لم تناقضها مناقضة تامة شاملة ، في بعض الحالات ، لا كلها .

فالمرأة على العموم ، تزدهيها الثروة ، وتنشد السطوة ، وتغريهـا الوجاهة ، وتحلم أكثر ما تحلم بالرفاهية ، وتسعى ما وسعها السعي في التغلب على قريناتها ، والتباهي بما لديها من حلى مادية ومعنوية ، بينما الرجولة الحقة قل أن تجري هذا المجرى ، أو تحفل بما تحفـل به الانوثة ، من زخارف وغوايات ... في حيز الحياة الاجتماعية .

— ٣ —

ننتقل من هذه الاعتبارات العامة في بيان الصلة بين الحقيقـة والمصلحة وانعكاسها على العلاقات الانسانية ، الى ظواهر في التاريخ السياسي المعاصر ، لم تنل هي ايضا ما تستحق من تدبر وانعام نظر .

وقد تكون أبرز هذه الظواهر انصراف كل شعب أو أمة الـى تحقيق ما يدعوه ((مصلحة)) في اطار العلاقات الدولية ، وتوجيـه السياستين : الداخلية والخارجية ، وبذا أصبحت هذه المصلحة معيارا ، ومقياسا ، وضرب معها صفح عن كل ما هو حقيقة ، وحق ، ما هـو عدالة ، وسلام ، واخاء . بل أن مفاهيم هذه المقولات نفسها تتحـور وتتبدل حسب مصلحة كل دولة ، وأهداف كل حزب أو فئة . وتحويرها ذاك دلالة انحلال فكري .

والامر الذي لا ريب فيه أن هذه ((العقلية المصلحية)) التي تهيمن

على الفكر السياسي المعاصر ، انما هي من نتاج الانكلو ـ سكسون في أول منزلة ، فهم آباؤها الاولون ، وهم الذين نشروها عمليا في سلوك الامم الاخرى ، فالانانية تثير الانانية ، والغرور يبعث على الغرور ، والخبث يستدعي الخبث .

ولا أظن أني في حاجة الى تقديم الادلة والشواهد على صحة هذا الواقع الفكري ، فالناس كلهم يعرفون القول الانكليزي المأثور : « ليس لبريطانيا عدو دائم ، وليس لها صديق دائم ، وانما لها مصلحة دائمة » . والمصلحة البريطانية الدائمة تعني أن يرفرف علمها فوق أكبر رقعة ممكنة من الارض ، وتمتد سيطرتها في جميع الجهات ، وأن تكون كلمتها هي العليا حتى في الشؤون الداخلية لاكثر شعوب الارض، ان لم يكن لشعوب الارض كلها .

ولا يقدح في واقعية هذه العقلية أن تكون بريطانيا اليوم أقل سطوة من ذي قبل ، فهي لا تزال كما كانت قبل ثلاثة قرون و أربعة ، وأفكارها لا تزال هي أفكارها ، ورموز علمها لا تزال كما كانت ، ولا تزال هي التي اخترعت لعبة « البلوف » ، ولا يزال « البلف » لتحقيق المصلحة البريطانية ، وما ينطوي عليه من تنكر للحقائق ، وازراء بقواعد الامانة ، هو الطريقة البريطانية المتبعة في السلوك السياسي . ولا يزال « التفريق » بين الناس على صعيد الدين ، والجغرافية ، والحزبية ، والعقيدة ، هو المعتمد في سياسة البريطانيين .

وما يقال في بريطانيا من هذه الناحية يقال ذاته في تلميذتها وربيبتها ، الولايات المتحدة الاميركية ، فالعقلية الاميركية لا تختلف عن استاذتها الانكليزية الا في « سطحيتها » الفلسفيه ، بمعنى ان الاميركان أقل عمقا ـ أي خبثا ـ من الانكليز ، وسطحيتهم هذه تجعل عنصر النفاق في سياستهم أوضح ، وتضفي على تصرفاتهم معنى التفاهة في كثير من الحالات .

وكان من نتائج العقلية الانكلو ـ أميركية النفعية ، المصلحية أن فقدت الحقيقة مكانتها في الشؤون الانسانية المعاصرة ، وحلت محلها « الدعاية » ، فان عصرا من العصور لم يعرف هذا الافتتان في الاعلان مثل ما يشهد اليوم عصرنا ، ولا سيما في الديار المتأثرة بالعقلية الاميركية .

ثم كان أن انتشر مع الذهنية الاعلانية هذه الكثير من «التعصب» فان من يقتنع بفكرة ما لكثرة ما قرعت سمعه ، ورددها الاخرون، وبشرت بها الصحف ، ونادى بصحتها الاساتذة المشهورون ، لا يكون في الحقيقة قد اقتنع بمقدار ما قد حيل بينه وبين التفكير الهادىء المنظم، وشغله عنه الشواغل المتوالية ، فاذا به يلقي سلاحه ـ وهو النقد البناء ، أو التأمل المثمر ـ ولا يريد بعد أن يعرف غير ما قر في روعه أنه يعرفه ، ولا حاجة به الى ما يعكر بعد صفاء باله ...

ثم كان أخيرا أن استولت المرأة على المقدرات المعنوية ـ والمادية أيضا ـ للمجتمعات الانكلو ـ أميركية ، وتغلغلت فيها أخلاق التخنث ، وابتعدت شيئا فشيئا عن معاني الرجولة ، وكانت المفاهيم الخلقية القويمة التي تنتصر بها الحضارة الصحيحة على الهمجية الخفية المستترة ، هي الضحية أمام زحف الرفاهية ، والزخارف ، والتزويقات، والترهات ، والثرثرات الفارغة اللاغية .

وقد لحظ هذا الاستيلاء النسوي على الحياة الاميركية ، معظم الباحثين منذ استهل هذا القرن الى يومنا هذا ، وكان في عداد هؤلاء الباحثين اميل فاغيه الناقد الفرنسي الشهير في كتابه «رعاية المرأة» وهندريك ده ليوو في : « المرأة ، الجنس المسيطر » وهنري ده مان الالماني في « عصر الجماهير وانحدار الحضارة » ، وأجمل هذه الدراسات كلها لوسيان دو بليسي في « روح المدنيات » حيث قال : « أما الولايات المتحدة فانها ذات مجتمع جد مائع ، لا ينبثق فيه تصنيف الناس الا على اساس من الدخل المادي ، وليس لهم فيه من محرك سوى الرغبة في الربح ، ولا يشتمل على ارستوقراطية صحيحة ، ولا على أسرة متينة متماسكة ، وهذه الاسرة تشكو من حركة براونية، تمنع فيها كل تراكم تاريخي وثقافي ، والطلاق يجري فيها مجرى الالعاب الرياضية ، تمازجه على نحو ما صورة من البغاء ، اذ تبحث المرأة عن اقتناص أكبر كمية من كل زوج قبل أن تتركه . والاولاد فيها يعانون حالات مرضية ، ضمن نظام مشرف على النهاية ... » (١) .

والواقع أن هذه الاعراض كلها نشأت عن داء أساسي ، هو تفضيل المصلحة على الحقيقة ، وتنامي العقلية الاميركية في هذا الجو المشحون بالضلالات من كل نوع ، فلا غرابة أن يستولي اليهود ، وهم أساتذة الخبث والنفعية والدعاية ، على عقول الاميركان ، ويوجهوهم نحو ما فيه خرابهم وانحلال أمرهم وهوان شأنهم ، بل أن الغرابة كل الغرابة ، أن يتمكن الاميركان ـ وهم حديثو نعمة في كل شيء ـ من مقاومة اليهود والتغلب على مفاسدهم !

— ٤ —

هناك اذن ، في بريطانيا ، والولايات المتحدة خاصة ، « علامات » انحطاط مروع ، شبيه كل الشبه بانحطاط أثينا قبل أن يغزوها الرومان ، وانحطاط روما قبل أن تنهال عليها حشود أتيلا ، وانحطاط بغداد قبل أن تلجها جموع هولاكو ، ولكنه « انحطاط عصري » بمعنى أن ميزته الخاصة هذه القدرة على التمويه ، والبراعة في التقنع أو التنكر ، بحيث يظل المظهر فيه مناقضا للجوهر ، فلم تفقد معه الشعوب الانكلو ـ أميركية براعتها الاساسية في « الكاموفلاج » كما يعبر العسكريون . وذلك راجع الى أن هذا الكاموفلاج نفسه ، يكمن في الصميم البعيد من كيان الحضارة السكسونية . وحسبك دليلا عليه ذلك الانسياق مع ايحاءات التوراة والتلمود ، في الحياة العملية على المستوى الاخلاقي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، وتسميه الكنيسة التي تسلك هذا المسلك التلمودي أنها « الكنيسة الانجيلية »، والتظاهر بالدفاع عن « الحضارة المسيحية » استغلالا للشعور الديني لدى الساذجين والاتقياء من نصارى العالم ، ونصارى الشرق خاصة ، وايهاما للكنيسة الكاثوليكية أن العالم الانكلو ـ سكسوني لا يزال يؤمن بعيسى وتعاليمه ، ومن خلال هذا الايهام وذلك الاستغلال ، ينفذ الانكلو سكسون الى ايجاد الشقاق بين النصرانية الحقيقية وسائر أتباع الديانات الاخرى في العالم ، وفي مقدمة هذه الديانات الاسلام ، والبوذية ، والبرهمية ، والكونفوشيوسية ، مع أن الواقع الفكري في أرسخ دعائمه ، يثبت ويؤكد أن مثل هذا الشقاق بين النصرانية وتلك الديانات مفتعل ، غريب عن الحقيقة ، في المبادىء والاهداف .

اذا أنت أخذت الان في تتبع هذا الكاموفلاج الديني ـ وهو جزء من الاستراتيجية العسكرية ـ على الصعيد السياسي ، وضح كل ما يخفاك من أسراره ، وبان لعينيك ما يكمن وراءه من أغراض :

كانت المعزوفة التي يرددها ساسة الولايات المتحدة الاميركية ، ولا يزالون يرددونها كلما ذكرت « اسرائيل » أنها « وجدت لتبقى » ، واسرائيل في حقيقتها ، حركة دينية ، عنصرية ، دولية ، تتعارض وابسط المبادىء التي نادى بها السيد المسيح ، وناضل من أجل تحقيقها على الارض .

والدولة ، أي دولة ، شبيهة في حياتها بطفل . وما من قوة في الارض أو في السماء تحكم بوجوب البقاء لطفل اذا كان تكوينه الاساسي غير طبيعي ، وكانت حياته مهددة من داخلها ، كان يكون مصابا بمرض

---

(١) انظر
L'esprit des civilisations, par Lucien Duplessy, (La Colombe, 1955), Paris, p. 350 - 354.

عضال ، أو غير قابل جسديا وروحيا لأن يتكيف مع البيئة التي نشأ فيها ، أو هو يحمل في قرارة وجوده عناصر انعدامه ، فاذا كان لاسرائيل كدولة أن « تبقى » أو أن « تفنى » فهذا شأن لا يعود لترومان ، ولا لايزنهاور ، ولا لايدن وجونسون ، حتى ولا لستالين وايدناور ، ولا للرئيسين بومدين وعبد الرحمن عارف ومن بينهما من رؤساء دول ، وملوك ، فبقاء « اسرائيل » كفنائها ، قضية طبيعة وتاريخ ونشأة ، وما لاحد يد فيها . وليس من طبيعة « اسرائيل » كدولة مريضة ، توزع تاريخ ابنائها على دول العالم كله ، ونشأت بوحي من مصلحة انكلو ـ اميركية ، أن تعيش !

هذا هو الواقع أحبته أميركا أم كرهته ، ورضيته الدول العربية أم لم ترتضه . وليس وجودها الراهن الا ظاهرة من ظواهر الانحطاط في الفكر السياسي العالمي الذي أخذ بمبدأ « المصلحة الشخصية » معاندا في ذلك طبيعة الارض ، وحقائق التاريخ ، ومنطق السلوك الانساني القويم .

لنرجع الان الى سلوك « اسرائيل » بعد أن وجدت على ذلك النحو الاصطناعي المفتعل ، ولننظر ما اذا كان هذا السلوك يحمل في طياته عناصر البقاء ، فهذه أفضل طريقة يقتصر بها الحوار على الوقائع والارقام ، ويترك بها الكلام للوقائع والارقام دون صخب أو ملاحاة :

١ ـ انها مشروع دولة لا يعرف حتى مواطنوها ، حدودها. والمواطن الذي لا يعرف حدود وطنه ، يعيش في قلق دائم ، فلا يمكن ذلك المشروع أن يتم ، أبدا .

٢ ـ الصهيوني الذي يحيا في ألمانيا يكره الالمان ويكره العرب ، وهو لا يعرف من يكره ، ولماذا يكرهه . والالماني الصهيوني شأنه شأن كل صهيوني في دول أوروبا وأميركا ، خاصة ، ودول العالم عامة .

٣ ـ تكررت اعتداءات « اسرائيل » على الدول العربية المجاورة لها ، وتكررت مخالفاتها للقانون الدولي ، على نحو لم يعرفه تاريخ دولة في العالم قديما وحديثا .

٤ ـ يؤخذ من الوثائق الثابتة أن اسرائيل تبغي من وراء كل اعتداء تقترفه ، أن تكسب شيئا ما ، تدعم به وجودها ، ثم « تكذب » انها تريد السلام !

ـ أقصى ما تسعى اليه الان أن يعترف بها العرب كدولة ، وأن يفاوضوها ويقبلوا بوجودها .

٦ ـ كانت الدول ذات المصالح اللامشروعة في الاقطار العربية تساند « اسرائيل » وتتبنى « أفكارها » ، وتصدق مزاعمها دون تمحيص. وهذا ما تبشر الايام بتغييره .

هذه الوقائع التي لا تدحضها قوة ، ولا ينكرها عاقل ، تعني أن سلوك « اسرائيل » يقودها ، دون أن تشعر ، الى الهلاك ، شأنها شأن أي هارب من العدالة في مجتمع متحضر ، أو أي خارج على القانون لا يزال يجد من يؤويه ، ويطعمه ، ويحميه في الدول الانكلو ـ سكسونية، أي أنه ليس من طبيعة اسرائيل أن « تبقى » وان أريد لها البقاء !

ولكن الفكر السياسي في اميركا يبدو في أوج ضحالته حين يطلب الاميركان من الدول العربية أن « تفاوض » اسرائيل ، وتعاملها كدولة ، اتماما منهم لمشروع الدولة !

انهم يفرضون على العرب فرضا أن « يفكروا » مثلهم ، ويحاولون أن يكرهوهم على السير في هذا المنحدر الفكري ، ويزعمون في الوقت نفسه ، أنهم سدنة الفكر الحر ، وحماة الحرية في العالم ! انهم يريدون من العرب أن يحبوا « اسرائيل » غصبا ، أن « يزوجوهم » منها بالقوة، وينسون سلوك هذه « المرشحة » للعرب عنوة ، كما ينسون اباء العرب، وتعلقهم بالشرف والكرامة .

الحقيقة أن « اسرائيل » ليست « وصمة عار لطخت جبين الامة العربية » كما هو شائع ، وانما احدى ظواهر الانحطاط الانكلو-اميركي، في الاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة . وكل فهم غير هذا الفهم خاطىء ، مئة بالمئة .

ـ ٥ ـ

ها قد وضحت الخطوط الكبرى للتاريخ المقبل ، انطلاقا من أن الحقيقة لا بد أن تفرض نفسها ، وكلما وعاها البشر وعيا كيانيا سليما عجلوا في فرضها ، وأعانوا الزمن على اظهارها واعلائها ، وايمانا بأن المصلحة العامة تتغلب في نهاية المطاف على كل مصلحة شخصية ، أو قومية غير مشروعة .

والاكيد أن مصلحة الانسانية عامة تتحقق في مقاومة الانحطاط العقلي والخلقي ، ونبذ الفساد والمفسدين ، وتحريم العدوان والمعتدين، وقهر الغصب والغاصبين ، وتنفيذ ما تقتضيه العدالة ، ويهدف اليه القانون السليم ، الخالي من كل جور ومحاباة ، سواء كان دوليا أم خاصا .

ومن الواضح أن المجتمع الدولي الذي ترعرعت فيه الصهيونية، وشبت في وسطه ، وأرضع « اسرائيل » من ثديه حتى عاشت ما عاشت ، أخذ الان يتحول عن أفكاره السياسية ، وبدأ يقترب شيئا فشيئا من الحقائق ، ويضيق يوما عن يوم ، بمصالح الاقطاعية الدولية ، والعنعنات العنصرية ، والمشاحنات الدينية .

الا أن هذا الاتجاه الذي يسير فيه المجتمع الدولي ، لا يزال يرتطم أو يتعثر بذوي الفكر السياسي العتيق ، بذوي العقلية الحيوانية ممن لا يرون الحقيقة الا في رغباتهم ، وأحلامهم ، وأمانيهم ، وأخيرا بذوي المصالح الذين لا يهمهم السلام العالمي الا بمقدار ما يخدم أغراضهم ، وينيلهم مآربهم .

وهنا ، نجد ان الحقيقة التي لا يمكن الا أن تتغلب وتنتصر ، تشق طريقها بسهولة ويسر في توجيه المجتمع الدولي نحو « التعاون » بعد أن كان مخدرا بنظريات « الصراع » و « التنازع على البقاء » ، ملتهيا بحكايات السيطرة ، وبهارج الزعامة ، وأساطير الطغيان والجبروت .

لقد طفق هذا المجتمع يدرك ، على يد الاحداث الاخيرة ، أن « هيئة الامم المتحدة » غير متحدة ، وأن اتحادها المزعوم يؤدي الى نتائج مزعومة ، مثله ، أي الى ما هو مزيف ، ومخالف للحقيقة، ومغاير للميثاق الذي قامت عليه تلك الهيئة ، من رعاية لحقوق الشعوب، ودفاع عن أمنها وسلامتها .

وواقع الامر أن « هيئة الامم » هذه لم تكن عند نشوئها ـ وهي تتمة لعصبة الامم ـ غريبة عن العقلية النفعية ، المصلحية ، الدولية التي تسود أوساط الحكم في أميركا وبريطانيا ، ولا كانت خالية من عنصر « الكاموفلاج » الصهيوني الذي قص على الناس قصته الكاتب الصهيوني ماكس نورداو ، في دراسته « اكاذيب المدنية الحديثة » .

وهكذا ... تواطات المكيافيلية الانكلو اميركية ـ وهذا التعبير لارنولد توينبي ـ مع اكاذيب الصهاينة ، وانشأتا معا عصبة الامم ، وورثتها هيئة الامم بجميع ما فيها من عيوب ، بل انها ورثت عيوبها ، ونبذت فضائلها ، حين انتقلت من أوروبا الى الولايات المتحدة .

وان موقع الاقطار العربية الجغرافي ، وتاريخها ، وثقافتها ، وميزاتها الاقتصادية ، واتجاهاتها العامة في السياسة ، تحتم بما لا يدع مجالا لشك أو جدل ، أن تسير في الطريق التي تؤدي الى مجتمع دولي يسوده التعاون بدلا من « التنازع » ، وينتفي منه « التآمر » ، ويعمل على احقاق الحق ، وازهاق الباطل ، والتوفيق بين الحقيقة والمصلحة العامة ، وصيانة السلام العالمي أخيرا دون أن يكون للعابثين به من المصلحيين ، والانتهازيين الدوليين ، والعنصريين ، والمتعصبين مجال للاخلال به . وفي هذا انتصار للعرب وهزيمة لاعدائهم .

عبد اللطيف شرارة

الرّجُل والدّمية

قصة بقلم ادريس الخوري

لاول وهلة بدا للطفل أن الجو هنا ليس هو الجو هناك ، ولكن عندما دخل هذه المقهى بالذات بدا له أنها عكس المقاهي الاخرى . كان دخوله لها الان مجرد رغبة عادية فقط ، فكما أن هذه مقهى فكذلك الاخريات . ولم لا ؟ لم تكن الساعة ذاك المساء سوى السابعة والربع، مع ذلك ، فقد كان الليل قد أعلن عن نفسه منذ السادسة والنصف . ان الزمن يتغير ، هذا لا شك فيه . ومنذ انتهاء فصل الصيف كانت مدينتنا تعيش تحت رحمة الارتعاش . لكن الزمن لم يكن يعني ،بالنسبة له ، اي شيء ذي قيمة : فالصيف عالم حار وكثير الشمس من الشروق الى الغروب ، والخريف مجرد اعلان عن تصفية ، هبوب ريح باردة جدا وموت كثير من الارواح الصغيرة . واذا كان الشتاء يعرف باندلاقه على المدينة ، فان الربيع ، هو الاخر ، يهيىء لمجيء عالم أخضر .

كانت المقهى علبة ضيقة ثبتت في زاوية الدرب ، وداخلها كان طفل صغير يعرض دماه القصديرية الملونة . لم يكن هناك اعتقاد جازم باحتمال بيع واحدة من الدمى ، كان البيع الان مسألة حظ فقط، ولم يكن الرجل الواقف ، جنب الفاصل الخشبي ، سوى علامة استفهام غامضة ، ربما سيشتري مني دمية لطفله الصغير ، لطفلته الصغيرة ، ربما سيمنحني على الاقل عطفا لانني لا زلت طفلا ، ربما ، ربما ، ربما، الخ... وفكر الطفل ان أي رجل ، حين يشرب الخمر ، فانه سرعان ما يتغير . انه ينطلق عن الهوى ، ومع ذلك فانه يظل مشروعا للسخاء اكثر ، ذلك ما يفعلونه مع اصدقائهم حين ينزوون في أركان المقاهي .

الفاصل الخشبي مشغول ، وعن اليمين واليسار كانت زجاجات البيرة القصيرة الخضراء متناثرة ، دخان السجائر مرتفع فوق المقهى. وكان الرجال الاخرون ، الرواد الاخرون واقفين . وحين وضع الطفل دميته قرب الكأس الصفراء كان قد قرر الانتظار . ماذا ؟ ليس الامر مخيفا ، أنا حر ، ان لحظة قصيرة تمر وينتهي كل شيء ، وهذا الرجل الواقف الان هو مثل الاخرين ،فلا خوف اذن منه ، بالرغم عن أنه سكران !

كان الطفل يرنو الى وجه الرجل : انتفاخ مستدير أسمر لكنه حليق . ريثما يشرب ، سوف يتكلم أخيرا . ولكن الرجل الواقف لا يبدو انه يريد ان يتكلم من فرط الوقوف منذ مدة كان الكلام يبدو له متعبا للغاية . وقد اكتفى بأن اخرج سيجارة الثوبة بلقاء ووضعها ، بكل سخرية ، في فمه المتوثب الشهواني . بقي طويلا يحدق في الطفل. ماذا تريد ؟ واولع سيجارته الطويلة ثم رمى عود الثقاب الاخضر الى أرضية المقهى الضيقة ونفث دخانا أبيض في الهواء . الان كان عليه أن يستريح . ففي المقاهي لا توجد مشاكل . ولكن توجد مشاريع علاقات مع اخرين ، كيفما كان لونهم ، كيفما كان شكلهم . وأخذ الكأس ونظر الى الطفل مرة اخرى . ماذا تريد ؟

الطفل : خذ .

واخذ الدمية ليريها الى الرجل

الطفل : خذ .

الرجل : ماذا ؟

الطفل بسرور : هذه الدمية .

وكان قد بدا يقلبها أمام عيني الرجل الذي ازداد اتكاء على الفاصل الخشبي . أولا أريد أن أعرف ما معنى هذه الدمية ؟ معناها أن تشتريها لطفلك الصغير ، لطفلتك الصغيرة التي تركتها تصدح مع قطتها الجميلة قرب جهاز التلفيزيون . ولقد كان الطفل يحاول أن يبيع دميته ، فالسكارى ليسوا انفسهم عندما يكونون قد ادمنوا ! وتذكر الطفل جولته مساء أمس : عند مدام لويس بعت ثلاث دمى ، وعند « الام » بعت واحدة فقط . وكانوا قد أشفقوا من أجلي عندما علموا بسهولة انني أعيل أمي الفقيرة ، أما الان فان الحظ يريد أن يتنكر لي . ان باستطاعة هذا الرجل مثلا أن يشتري مني ، بيد أن بيع هذه الدمية يكاد يكون مستحيلا ، انهم لم يعودوا يثقون بنا نحن الصغار عندما نريد ان نعترف لهم .

الرجل : كم ؟

الطفل : ست دراهم .

الرجل : اه ... باهظة .

وبدأ الرجل يضحك : هل هؤلاء هم الذين يجب أن نشفق من أجلهم ؟ كان بيع الدمية يبدو مشروعا مستحيلا ، وكان حظ الطفل يهرب منه . ان هذا المساء لقذر لانني لم أبع فيه دمية واحدة.وهذه المقهى هي نفسها قذرة . اذا لم ابع دميتي فلاغادر « المدينة » وفي المساء غدا سأعود .

الرجل : أنت تمزح ولا شك . أليس كذلك ؟

الطفل بيقين : لا ، اقسم لك .

الرجل بعنف : لا .. لا تقسم لي .

الطفل : وما تريد ؟

الرجل : بكم الدمية اذن ؟

الطفل بامتعاض : لقد قلت لك .

وظل الرجل يحدق طويلا في الطفل ، وظل الطفل يحدق طويلا في الرجل . مهما يكن من امر فقد قلت له . هل يكون الرجل قد عزم أخيرا على شراء الدمية مني ؟ مستحيل ! ... هم يتهموننا بأننا نكذب عليهم لاننا لا زلنا صغارا ، ولكننا مختلفون ، هذا هو الفرق. لقد كانوا مثلنا ، وحتى الان فان أي انسان لا يقول الحقيقة . لعل هذا الرجل يكذب مثلي ، أنا أعلم ذلك جيدا . قالت لي أمي ، ذلك المساء ، يجب أن تكذب يا بني لكي تبيع ، وها أنا الان أنفذ وصيتها بكل ما أملك من حيلة .

الرجل : بكم تشتري دماك من السوق ؟

الطفل وقد طعن في الصميم : لا تسل عن ذلك ، ان ذلك متعب، في السوق لا يرحموننا .

الرجل : واذن ؟

الطفل : هل تريد أن تشتري أم لا ؟ لقد تعبت من الوقوف .

الرجل : وما ذنبي انا ؟

الطفل : انك تسخر بي .

الرجل : انه مجرد سؤال فقط .

وصب في الكاس ما تبقى من زجاجة البيرة القصيرة . وقال الرجل في نفسه : الاطفال علكة تلصق بنا . صحيح ؟ أريد هذه الدمية، لا أريد هذه الدمية . وأنا نفسي لا أريد مزيدا من الاطفال الذين يريدون الدمى ، هذا فقط لاعرف أين يذهب راتبي الشهري . يجب أن أطلب زجاجة أخرى ، انه مطلب ضروري بالنسبة لي . فمنذ مدة لم أشرب.

اسماك المياه الباردة

وحيدة تخلفت من موكب الاسماك
اشتدت الحرارة
وعادت الاسماك للشمال
للسواحل الباردة الحجارة
وحيدة تخلفت عارية نقية
غريبة نقيــة
تبحث في السواحل الدافئة الرمال
عن ملجأ ، اغنية شعبية
هام بها صياد .

ومرت الايام والليال
وازدادت الرمال
سخونة ، وهذه النقية
تبحث بين العشب ما تزال
عن صاحب الاغنية .

لم تتحمل غربة السواحل
لم تتحمل غربة الوجوه
لم تتحمل غربة الحديث
لم تتحمل غربة المياه
لم تجــد الاغنية .

كسيرة عادت لساحل الشمال
مسافة طويلة طويلة
وحيدة ، حزينة ، عارية ، خجولة
غريبة نقيــة .

يسرى خميس

ومساء أمس قد وضعت زوجتي بعد مخاض عنيف . هل يجب علي أن أفرح ؟ لم أعد أحتمل أن يزداد عندي طفل جديد ، كفــى الاربعة الموجودون . ان مجيء انسان صغير الى العالم هو مجيء المشاكل : مرض يومي ، سعال طويل في الليل ، مرحلة تكوين الاسنان المتعبة ، وأيضا مرض « بو مصرون » ، زيارة الطبيب أثناء كل فترة ، مــرض الام المفاجيء ، اه ، يجب الاحتراس من البرد الخ... لاشرب أيضا . أنا لا أريد أن أشتري هذه الدمية ، فطفلتي الصغيرة ، التي تركتها تمرح في الغرفة ، لها دمية اخرى حية ، انهــا قطة صغيرة جميلــة ، مخلوق أليف ذو ذيل أسود وشعر رمادي ، لكن الدمية ليست هــي القطة . يجب أن أشتريها لطفلتي كي تكتشف في جمودها فوتهــا الناشئة .

ورفع الدمية الى عينيه : سواء كانت جميلة أم قبيحة فللهــم ان تكون سليمة . وفكر : « لقد نعودوا أن يبيعوا لنا دمى مزيفه » ؟

الرجل : درهمان
الطفل : لا
الرجل : ثلاث دراهم
الطفل : لا
الرجل : أربعة دراهم
الطفل : لا
الرجل : خذ دميتك اذن .

وطلب بيرة اخرى وأخذ الطفل دميته وبدأ يتجول داخل المقهى . ان بيع هذه الدمية يكاد يكون مشروعا مستحيلا .

***

قال مارسيل : بكم هذه الدمية ؟
قال صالح : عشرة دراهم .
قال مارسيل : اه ــ انك ترتفع بالثمن
قال صالح : كم تريد آن تدفع ؟
قال مارسيل : ثمانية
قال صالح : لا .

وقال الرجال الواقفون : انك لا تريد ان تبيع دميتك ، انــت سيىء الحظ .

واجاب صالح بعناد : انا اعرف ماذا افعل ؟

وانتهى مارسيل من شرب كاسه وخرج : الطفل لا يريد أن يبيع دميته . الامر اذن سواء . لقد أردت الدمية لطفلتي الصغيرة جانيت، ولكنه لم يرد ، الامر سواء .

وافتقد صالح مارسيل وسط المقهى ، وسأل عنه الرواد فاجابوه بجفاء بانه قد خرج، أنت الذي لم ترد أن تبيع دميتك ، جاءك الحظ فطردته بسرعة . لماذا ؟ لقد صدق الرجال الواقفون ، أنت سيىء الحظ! وخرج صالح يجري مهرولا وفي يده اليمنى دميته : أين مارسيل ؟ هل اختفى ؟ أريد أن أجد مارسيل ليأخذ الدمية لطفلته الصغيرة . ومن بعيد كان مارسيل يبدو قصيرا ، يتهادى محاذيا بناية البنك الفخمة ويداه في جيبي معطفه ، وكان صالح قد تبعه يجري .

صالح : اذن هات ما قلت لي يا مارسيل .
مارسيل : لقد انتهى كل شيء . أنت لم تقبل في البداية .
صالح : لقد قبلت الان .
مارسيل : أنا لا أقبل الان . الى غد .

وذهب مارسيل وبقي صالح يتبعه بنظراته الحزينه . لقد ضيعت الفرصة ، من يتحمل فشلي هذه الليلة ؟ وعاد الى المقهى حيث تتـرك ما تبقى من دماه فوق احدى الطاولات . انا الذي اتحمل مسؤولية عدم بيع الدمية ، لكن ما يزال هناك امل ، ساعود الى الرجل لكي تأخــذ الدمية . ودخل المقهى فاشلا ، وكان الرجل ما يزال واقفا يشرب البيرة.

الرجال كلهم : اذن ماذا فعلت ؟
الطفل : لا شيء . لم يرد مارسيل الدمية .
الرجال : انت ضيعت فرصتك ، انت سيىء الحظ .
الطفل : اوف .. لا شيء يهم .
الرجال : خسارة ..!
الطفل للرجل : خد الدمية اذن .
الرجل : لم اعد بحاجة اليها .
الطفل : انها جميلة ، انظر
الرجل : لا .
الطفل بغضب واضح : ليكن . بيت دماي طماطم متى تتعفن . غدا سأبيعها كلها .
الرجل : في صالحك .

وخرج صالح بدماه وهو مهزوء : ان العالم ضدي .

الدار البيضاء **ادريس الفوري**

آثار العدوان على بنائنا الثقافي

بقلم غالي شكري

اذا كان هذا الشعار هو التعبير الثوري عن الوضع الراهن في حياتنا السياسية والعسكرية ، فانه ايضا التعبير الامثل عن الموقف الحالي في حياتنا الثقافية والفكرية .. ولعل « النكسة » في حياتنا الثقافية اسبق في معيار الزمن من نكستنا العسكرية ، فلقد كان العدوان الثقافي على فكرنا القومي سابقا على العدوان المسلح . وانني اشعر وانا اكتب هذا الفصل بعد ان سمعت بقرار فرض الحراسة على الجامعة الاميركية في القاهرة بأن الكلمات السابقة على هذا الفصل والتي كتبتها قبل العدوان الثلاثي الاخير ما تزال تحمل رائحة المأساة والنذير بما يوشك ان يقع في حياتنا الفكرية اذا مضت منا الامور كما هي عليه الان ..

فلا يكفي مطلقا ان نفرض الحراسة على فرانكلين او الجامعة الاميركية .. او ان نحولهما الى مؤسسات وطنية .. هذا واجب قومي عاجل لا شك فيه .. ولكن الوقوف عند اعتاب هذا الواجب والتغني به يصل بنا في المدى القريب الى « التنازل » عن الكثير من التزاماتنا امام الشعب الذي أولانا ثقته ، بل اننا نجازف في هذه الحال « بالمساومة » على شرفنا القومي نفسه . فنحن اذا تصورنا للحظة واحدة ان المعركة انتهت بيننا وبين الفكر الاستعماري ، بتجميد فرانكلين او بتعريب الجامعة الاميركية .. فاننا يجب ان نسلم مع هذا التصور باننا نحن الذين انتهينا وليست المعركة ، نحن الذين تعبنا من مشقة الطريق ووعورته .. الطريق الطويل الى خلق ثقافة وطنية تقدمية تحمي مكاسب الاستقلال الوطني للانسان العربي وتسهم معه خطوة خطوة في تصفية الاستغلال والظلم ، وبناء المجتمع العادل المطمئن ..

لنبدأ اذن هذه المهمة العاجلة التي تقول بتصفية اثار العدوان . والعدوان الذي اقصده هنا هو العدوان الثقافي الذي مارسته الامبريالية والاستعمار الجديد خلال السنوات الماضية . وهو أيضا العدوان الثلاثي الاخير الذي سينعكس بغير شك فيما سينتجه مثقفونا من فكر خلال السنوات القادمة . وانني لاضع في اعتباري وأنا أسوق هذا الحديث عن المنطقة العربية كلها ، ان الثقافة فكرا ، وانتاجا ، واستهلاكا ، تختلف من جزء الى اخر من أجزاء هذه المنطقة ، وان اتحدت جميعها ، في هدف واحد هو مناضلة الاستعمار .. فاقطار مثل مصر والجزائر وسوريا والعراق تختلف مؤسساتها الثقافية عن أقطار أخرى مثل لبنان والمغرب وتونس ، وهذه كلها تغاير تماما الاوضاع السائدة في السعودية والكويت والاردن حيث تكاد هذه الاقطار أن تخلو من مؤسسات ثقافية يعتد بها . هناك اذن تصفية شاملة لاثار العدوان الثقافي الاستعماري على الصعيد القومي ، وتصفية اخرى محلية تتناسب مع الظروف الذاتية لكل قطر عربي على حدة ..

اما التصفية الشاملة على صعيد الوطن العربي فأوجزها فيما يلي من نقاط :

— ١ —

اذا لم يكن ثمة مكاسب في الجولة الاخيرة مع اسرائيل سوى انه قد اصبح في مرتبة اليقين ان « اميركا » هي العدو الحقيقي والرئيسي للعرب ، فانه ينبغي الحرص على هذا الكسب حرصا « ثقافيا » عميقا .. أي انه يتعين على مؤسسات الثقافة العربية في مختلف اشكالها ومستوياتها ان تغتنم هذه الفرصة النادرة في تاريخنا الفكري والسياسي حيث تتفق السلطات السياسية في العالم العربي كله على ان الولايات المتحدة الاميركية هي قلعة الامبريالية والاستعمار الجديد ، وانها قائدة الثورة المضادة في العالم .. وبالتالي لم تعد أمام مؤسسات الثقافة العربية سواء منها ما يخضع للملكيات فردية او ما يخضع منها لاشراف الدولة وتوجيهه أية حواجز أو عقبات « قهرية » تحول دون التعبير الثوري الناضج عن هذه الحقيقة المؤكدة ، وهي ان « الاستعمار الاميركي » هو الهدف الاستراتيجي لنضال الشعوب المضطهدة ، وان اسرائيل هي احدى التكنات العسكرية الاميركية المترامية على طول الارض وعرضها. أي ان المهمة العاجلة امام الاجهزة الثقافية في بلادنا العربية والطاقات البشرية المثقفة هي تقديم « اميركا — الاستعمار » الى الشعوب العربية تقديما واضحا ومفصلا ، هذا يستوجب تغيير الصورة الرومانسية الحالمة التي استقرت في الذهن العربي منذ عشرات السنين عن « الجنة الاميركية » ، بأن تستبدل بالصورة الحقيقية الموضوعية « لوجهها القبيح » .. وربما كانت سلسلة التحقيقات التي قدمتها جريدة « الجمهورية » باشراف الدكتور محمد انيس ، وسلسلة المقالات التي قدمتها جريدة « الاهرام » لمحمد حسنين هيكل ، وكتاب « الحكومة الخفية » الذي نشرته دار المعارف ، والعدد الخاص الذي أصدرته مجلة « الكاتب » في يونيو سنة ١٩٦٧ ... ربما كانت هذه النماذج هي المبادرات الاولى في هذا الصدد . فلم يعد كافيا ان نكيل السباب لاميركا ، بل لا بد من تجاوز هذه الخطوة الى ما هو اكثر جدية وعمقا . لا بد من تناول اميركا من الداخل تناولا تفصيليا دقيقا ، ثم تناول تطورها التاريخي حتى نتعرف على الجذور الموضوعية لطبيعتها الحالية ، ثم تناول علاقاتها بالعالم الخارجي ، بحليفاتها في الغرب وغرمائها في الشرق ، وأعدائها الجدد في بلدان العالم الثالث ، ثم تناول دورها تاريخيا في المنطقة العربية وهو الدور الذي أدى عبر عشرات التعرجات المتشابكة المعقدة الى ان تشن علينا حربا عسكرية مسلحة تسترت خلف نجمة اسرائيل ..

اميركا الاستعمارية هي القضية الرئيسية التي يتعين على الوطن العربي مواجهتها بشجاعة وموضوعية في المستوى الثقافي بنفس المقدار الذي تتم به هذه المواجهة الان في المستوى السياسي . ان قطاعا عريضا من شعبنا قد فوجىء بهذه الحقيقة الجديدة تدخل حياته مؤخرا ، حقيقة ان اميركا هي الاستعمار الجديد ، هي الامبراطورية العالمية التي تحاول حفنة من الاحتكاريين فرض سيطرتها على مقدرات شعوب الارض قاطبة . فبالرغم من نضال الكثيرين من كتاب الاجيال المعاصرة ودور النشر العربية في تجسيد « الخطر الاميركي » فان ظروفا عديدة حالت دون ان يثمر هذا النضال اثمارا حقيقيا فعالا . من هذه الظروف ان اجزاء لا يستهان بها من الامة العربية على الصعيد الرسمي قد ارتبطت مصالحها بالولايات المتحدة أمدا طويلا من الزمن .. من هذه الظروف ايضا ان المناضلين ضد الاستعمار الاميركي من المثقفين ودور النشر قد لاقوا من العنت والاضطهاد ما أضعف من امكانياتهم وحصر نفوذها في أضيق الحدود. من هذه الظروف كذلك ان اميركا لم تسفر عن وجهها كقيادة للاستعمار العالمي الا في وقت متأخر نسبيا . وهناك ظروف اخرى كثيرة حالت

دون وضوح هذه « الحقيقة » التي فاجأت قطاعات واسعة من شعوبنا حتى بدت وكأنها « حقيقة جديدة » بينما توغل فظائع الولايات المتحدة الى القرن الماضي . ولعل تاريخها مع اميركا اللاتينية والمكسيك ما يزال ماثلا في مخيلة شعوب أخرى عانت وتعاني من ويلات الاستعمار الاميركي في مختلف مراحل تطوره . شعبنا العربي ، وهو يستقبل ما يمكن ان نسميه مجازاً بالحقيقة الجديدة في حياته ، بأمس الحاجة الى معرفة أبعاد هذه « الامبراطورية » القائدة للثورة المضادة في العالم .

ان الاجراءات الادارية والسياسية التي اتخذتها وقد تتخذها بعض الدول العربية ازاء مؤسسات الثقافة الاميركية ليست الا «مظهراً» خارجيا لما ينبغي على المثقفين أنفسهم ان يتخذوه من اجراءات . ولعله من ابشع النتائج ان نستطرد في الاجراءات « المظهرية » دون أن نبدأ بالجوهر . فقد علمت مثلا ان هناك قراراً بمنع دخول الافلام الاميركية والانكليزية الى الجمهورية العربية المتحدة . وربما كانت هناك « حكمة اقتصادية » وراء هذا القرار ، ولكن الحكمة الثقافية تظل أبعد ما تكون عن فعالية هذا الاجراء ، فقد كان من المفيد مثلا أن يمنع القرار دخول الافلام والمجلات والكتب الاستعمارية أيا كانت جنسيتها اميركية او انكليزية او المانية غربية لنضرب عصفورين بحجر واحد .. نمنع الفيلم او الكتاب الاستعماري بسبب مضمونه الاستعماري لا بسبب جنسيته الاميركية او الانكليزية ، فلا شك ان هناك افلاما ومجلات وكتبا تحمل أغلفتها أسماء وجنسيات اخرى وتحمل في نفس الوقت مضمونا عدائيا لكافة القيم البنائية لتقدمنا الاجتماعي . وعلى العكس من ذلك هناك افلام ومجلات وكتب تحمل الجنسية الاميركية والانكليزية وتحمل في نفس الوقت مضمونا تقدميا ثوريا ... فكيف نصدر قراراً يبلغ هذه الدرجة من الاطلاق والتعميم التي تمنع بلا حدود وتمنح بلا حدود ؟ ليس هناك من جواب سوى التسرع ومعالجة المظهر الخارجي وفقدان الرؤية الواضحة للهدف. فنحن لسنا ضد « كل ما هو اميركي » او « كل ما هو انكليزي » والا سقطنا في هاوية العنصرية العمياء .. اننا بصراحة ووضوح « ضد الاستعمار الاميركي » ونحن ايضا مع كل ثقافة معادية للاستعمار بالرغم من انه في الامكان ان تكون هذه الثقافة اميركية او انكليزية . علينا ان نحذر الوقوع في « رد الفعل » بدافع من تقصيرنا السابق، او بدافع « عقدة الذنب » عند فريق من مثقفينا الذين اسهموا بصورة أو باخرى في تدعيم مؤسسات الفكر الاستعماري في المنطقة العربية .

لا يتطلب الامر من هذا الفريق الذي تعاون مع مؤسسات الثقافة الاستعمارية الا ان يتنحى عن أية مواقع قائدة لثقافتنا القومية ، اذ علينا ان نتصارح بأصالة وان نتكاشف بصدق ، وحينئذ نقول ان أولئك الذين تعاونوا وأسهموا وشاركوا بأية صورة من الصور في خدمة ثقافة الاستعمار لن يستطيعوا المضي في هذه المهمة العاجلة « تصفية اثار العدوان » .. ان تنحيهم وحده هو الموقف الامين الذي ييسر للمناضلين القيام بمهمتهم العاجلة . ولم يعد خافيا ان الارتباط الكامل بين هذا الفريق وأجهزة الاستعمار الثقافية كان يشكل « ظاهرة واضحة » في عدائها للثقافة الوطنية والتقدمية كما كان يشكل « شبكة من المصالح المتبادلة » بين اطراف الفنيمة .. فلو اننا اعددنا كشفا بأسماء الذين تعاملوا مع فرانكلين والجامعة الاميركية ودور النشر المرتبطة بمكاتب الاستعلامات الاميركية .. سوف نجدها مجموعة محددة تحديداً دقيقا وكأنهم شركة مساهمة او جمعية للمنتفعين .. بل ان بعضهم ممن كان يعمل في جهات حكومية او رسمية بادر بتسخير الجزء الذي يشرف عليه للاهداف التي يعمل لتحقيقها في المؤسسات الاستعمارية ، كما انه بادر بتجنيد الطاقات الخادمة معه في الدوائر الاجنبية المعادية ، جندها معه في هذا الجزء او ذاك الذي يشرف عليه في جهة حكومية او ادارة رسمية .

وطوال فترة زمنية غير قصيرة ظلت المطبوعات الصادرة عن فرانكلين او الجامعة الاميركية او مكتب الاستعلامات الاميركي ، ترادف المطبوعات الصادرة عن دور النشر الحكومية كما جاء في بيان وزير ثقافة الجمهورية العربية بمؤتمر الكتاب العربي ، ومعنى ذلك ان الكوادر التي نمت بين احضان الاستعمار هي نفسها الكوادر التي ناضلت بأموال الشعب العربي ضد اهداف هذا الشعب . فلا أقل من أن تتنحى هذه الوجوه التي لا نتهمها بالعمالة ، ولا نطالبها بنقد ذاتي مفصل ، ولا نطلب اليها ان ترد الاموال التي نهبتها الى خزينة الشعب .. اننا نطلب اليها فحسب ان تخلي الطريق امام المناضلين الحقيقيين ، ان تفسح لهم مجال العمل الجاد من اجل تصفية اثار العدوان الذي أسهمت في التمهيد له . انها بذلك تكون قد أدت واجبا قوميا يغفر لها بعض خطاياها . اما « التأقلم » مع الظروف الجديدة و « التكيف » مع المناخ الجديد .. فلن نجني منه سوى المزيد من الشعارات والضلال والخديعة . وهكذا تتحول هذه الكوادر القديمة في عدائها الى أدوات تعوق مسارنا الثوري ، أي الى طابور خامس ما أحوج حياتنا الان الى التخلص من بقاياه ... فالعدوان قائم ، والمعركة مستمرة ..

في مقابل ذلك لا سبيل امامنا لحظة واحدة - مثقفين وسلطات - الا أن نجند قواتنا الفكرية المناضلة كلها ، ان نشحذ اسلحتنا الثقافية جميعها .. فمهما كانت هناك بلدان عربية ليس للدولة فيها دور مباشر في توجيه الثقافة ، فان مسؤولية الضمير العربي تتجاوز الاشكال الرسمية الى أعماق كل فرد في هذه الامة بحيث أن الناشر الخاص والمثقف اللذين لا يخضعان لتوجيه دولتهما انما تصدر مسؤولية كل منهما ، من داخله وشعوره بما يحدق به وبأمته من خطر « الامبراطورية الاميركية » .. هناك اذن طاقات ناضلت الثقافة الاستعمارية طويلا ، بالمجهود الفردي تارة ، والمجهود الجماعي تارة أخرى ، بالمجهود الرسمي تارة ، والمجهود الذاتي تارة اخرى .. لا بد من حركة تجميع لهذه الجهود التي حصلت خلال نضالها على خبرات وتجارب نحن الان في أشد الاحتياج الى التسلح بها ..

وأخيراً فهناك « عقلية اميركية » روجت لها هذه الاجهزة الاستعمارية طويلا خلال السنوات التي قضتها تمرح بين ظهرانينا بلا حساب . هذه العقلية التي تسود بعض المناهج التربوية في الجامعات ومعاهد التعليم كما تسود بعض برامج التدريب الاداري .. وتسود ايضا بعض جوانب من النشاط الصحفي والاعلاني ، بل وتسود كذلك كثيرا من تفاصيل حياتنا اليومية . هذه العقلية الاميركية التي بثتها في مختلف نواحي وزوايا بنائها الثقافي مؤسسات الفكر الاستعماري ، علينا ان نخطط للخلاص منها فوراً . فالرواسب الذهنية والوجدانية والسلوكية التي تركتها هذه « العقلية » في حياتنا اشبه ما تكون بطابور خامس غير مرئي يقوم بواجبه في حماس العادة الراسخة والروتيني الصاعد . وهو اخطر من الطابور البشري الذي يمكن التخلص منه بمجرد معرفة جنوده ، أي ان العقلية الاميركية هي السلاح غير المكشوف في ايدي العدو .. وهكذا فقد نجح العدو بغير شك في ان يترك الى جانب الكادر البشري ثمار غرسه الفكري في صورة « بناء عقلي اميركي » ، نما داخلنا يوما بعد يوم دون ان ندرك هول هذه الترسانة غير المسلحة الا مع قصف طائرات العدو الاسرائيلي وهي تعلن ان « اميركا » قد نفد صبرها ، ولم يعد امامها سوى العدوان المسلح المباشر . لقد نجحت مخابراتها في تدمير الكثير من النظم الثورية في العالم الثالث ، وبقيت المنطقة العربية بالرغم من كل ما تموج به من تناقضات منطقة منيعة على انقلابات « الوكالة » المركزية .. فلا مانع من تجربة العدوان المسلح تحت راية اسرائيل ، بعد ان مهدت لها تجربة العدوان الثقافي والفكري تحت رايات مختلفة تنتصب حينا باسم فرانكلين وحينا باسم الجامعة الاميركية ، وحينا باسم السينما او المسرح او الفنون

الجميلة الاخرى . هذه كلها التي شكلت ما ادعوه بالعقلية الاميركية التي ينبغي ازالتها من الوجود الفكري العربي جنبا الى جنب تصفية العدوان المسلح في الارض العربية .

ـ ٢ ـ

النقطة الثانية بعد اكتشاف « اميركا الاستعمارية » على الصعيد العربي كواحد من المكاسب التي حصلت عليها هذه الامة من الجولة العسكرية الخاسرة هو ان التجسيد الحقيقي لوحدة المصير العربي لم يعرفه المواطن العربي في تاريخه كله كما عرفه خلال هذه الايام . ولا أقصد بذلك « الشكل الوحدوي » الذي اتخذته اجراءات الحكومات والجيوش العربية أثناء المحنة ، وانما أقصد « مضمون الوحدة » الذي تجلى في دماء رجل لشارع وهي تغلي في القاهرة وعمان وبغداد ودمشق والجزائر وفي جدة والخرطوم وتونس وفي بيروت والدار البيضاء وصنعاء وفي كل مدينة وقرية وحي وشارع وزقاق عربي . انني هنا أقولها صريحة الى أبعد الحدد ، وهي انه اذا كان عدوان ١٩٥٦ قد جعل الشعوب العربية تحس انها ليست بمعزل عما يحدث في مصر ، فان عدوان ١٩٦٧ جعل الشعب المصري يحس بأنه ليس بمعزل عما يحدث في مختلف أرجاء الارض العربية . ولست مبالغا اذا قلت ان الشعور بوحدة الوطن العربي فكرا ومصيرا وحضارة لم يصل قط فيما مضى الى ما وصل اليه هذه الايام من حدة وواقعية في وقت واحد . لا ريب ان هذا الشعور كان موجودا في الماضي ، ولكن شوائب كثيرة كانت تعلق به فتحول دونه والتطور والازدهار . شوائب ليست الرومانسية الا عنصرا من عناصرها ، كانت هناك العنصرية جنبا الى جنب مع الرومانسية . وكانت هناك المطامع الطبقية احيانا اخرى تقف في صف واحد مع العنصرية التي قد تصل الى حدود الفاشية والنازية. ان ما حدث عام ١٩٦٧ وأعده كسبا حقيقيا بين انقاض الجولة الدامية الخاسرة ، وأدرك الى ما غير حد بشاعة النكسة التي نجتازها، هو ان « الامة العربية » قد ولدت في اعماق المواطن العربي ميلادا جديدا متطهرا من شوائب الماضي المعقد . ولدت « الامة العربية » كيانا وضميرا جديدا خالصا من أدران التعصب والجهل والطائفية والمطامع . ولدت « الامة العربية » وطنا كريما لا فضل فيه لمواطن على اخر الا بمقدار ما يقدمه من تضحيات ..

هذا الكسب ليس كسبا معنويا صرفا .. فقد تحولت « وحدة المصير » كما قلت عن كونها شعارا حماسيا أقرب الى الشعر الى حقيقة موضوعية تمثلها كل مواطن تمثيلا تفصيليا واعيا . وهذه « الوحدة المصيرية » هي الهدف الثاني ـ على الصعيد القومي ـ بعد « حقيقة اميركا الاستعمارية » وهو الهدف الذي يستوجب منا كل يقظة واهتمام ، بل يستوجب اذا شئنا الدقة القيام بثورة جديدة على كافة مفاهيمنا السابقة على العدوان حول هذه القضية الخطيرة . فكم من مفاهيم عنصرية للقومية العربية سادت على فكرنا الحديث خلال السنوات الماضية وباعدت بالقول والفعل بين القومية العربية وفريق هام من خيرة مفكرينا في مصر وغيرها من أجزاء الوطن العربي ، وكم من خيالات رومانسية عن العربية ازدحمت بها اقلام توجت بالحماس الصادق ولكنها ضلت الطريق العلمي الموضوعي الواقعي الى العربية الصادقة .. الى غير ذلك من الحواجز التي انتصبت جدرانا عالية بين فريق لا يستهان به من المثقفين والمواطنين الشرفاء ، والحقيقة الثورية الكامنة في الوطن العربي الكبير . ان اكتشاف « الامة العربية » عند قطاعات واسعة من جماهيرنا خلال المحنة الاخيرة يعادل تماما « اكتشاف اميركا الامبراطورية » عند قطاعات اخرى كانت تجهل او لا تعي هذه «الحقيقة» .. ومن ثم يتعين علينا في المستوى القومي ان نقوم بعدة واجبات عاجلة واخرى بعيدة المدى ، من شأنها تقديم هذه الحقيقة من جديد تقديما يتصف بكل صفات الميلاد الجديد للامة العربية .

ولعل من أولى المهام العاجلة « اعادة تقييم » المفاهيم السائدة للقومية العربية على ضوء الانتفاضة التاريخية التي لم يبطىء من تعاظمها مرارة النكسة . ولا نهدف من اعادة التقييم ان ننصب المشانق لمن أخطأوا .. وانما نقصد معاناة التخلص من كل ما هو سلبي وعقيم في مفاهيمنا السابقة . ونقصد ايضا الى اقرار الاضافة الحية الخلاقة التي فازت بها الفكرة العربية في أتون النكسة . ونقصد أخيرا أن نتخلق المفاهيم الجديدة في وعينا تخلقا ذاتيا وموضوعيا في آن .

ومن المهام العاجلة ايضا « اعادة الثقة » الى جميع الاطراف في الامة العربية الواحدة . اعادة الثقة الى من أخطأ في حق هذه الامة لترسيخه لمفاهيم وتصورات خاطئة عنها . ودرس النكسة الاول في هذا الصدد ان « الممارسة » وحدها هي القادرة على تصويب «النظرية» مهما غلت في طيشها . واعادة الثقة الى من كان بمعزل عن هذه الحقيقة او غائبا عن الوعي بها . ودرس النكسة الثاني في هذا الصدد ان أزمات الامم الحادة هي اكبر مثير للوعي الغائب وأقوى المعاول في تحطيم العزلة ، واعادة الثقة الى كل من كان يرى الامور من زاوية صحيحة سليمة واضحة ، ثم خاب أمله في خضم المحنة وشارفت أحلامه حافة اليأس . ودرس النكسة الثالث في هذا الصدد ان المحن تزيد الرؤية الواضحة وضوحا وان اليأس من القيمة الصحيحة خليق بأن يردي المرء في هاوية الانتحار العقلي .

ومن المهام العاجلة كذلك « اعادة الحياة » الى الايجابيات العميقة الدلالة في حياة هذه الامة وتاريخها وحضارتها وتراثها . فلقد كان من خيوط المؤامرة على وحدة هذه الامة ما أشاعته من بلبلة وفرقة وانحرافات لا نهاية لها في فهم التاريخ او الحضارة والتراث .. فمن قائل ان تاريخنا يبدأ مع الفتح الاسلامي فيقدم مفهوما اسلاميا لنشأة وتطور الامة العربية . ومن قائل ان قوميتنا بزغت مع وحدة النضال ضد الاستعمار الفرنسي والانكليزي في أواخر القرن الماضي. ومن قائل ان وحدتنا تقوم على أساس العرق الواحد منذ أيام الفراعنة والهجرات العربية الوافدة من الجنوب والشرق والغرب . ومن قائل ان عروبتنا هي اللغة الواحدة التي جمعتنا من المحيط الى الخليج . ومن قائل بان العامل الجغرافي هو ابرز العوامل في وحدتنا القومية . الى غير ذلك من تحريفات لا حصر لها لمعنى الامة العربية .. وقد اختص كل تعريف بطبيعة الحال بمفهوم محدد لمعنى التراث والتاريخ والحضارة .. لهذا السبب تحكمت في علاقاتنا « الروحية » بالامة العربية الاهواء الذاتية المتعارضة ، والميول السياسية المتباينة ، وغابت تماما « الحقيقة الموضوعية » التي يرجع الفضل ـ بكل اسف ـ للازمة الاخيرة في انبثاقها . من هنا ضاعت علينا عبر سنوات طويلة تلك الجوانب الايجابية المشرفة في حياة هذه الامه . وهي الجوانب التي تتجاوز كل ما هو عرضي وطارىء لتتصل بأعمق ما فينا من جوهري وأصيل وباق . وهي ايضا الجوانب التي تجمع ولا تفرق ، توحد ولا تفتت . فاذا جاءنا من يقترح ترجمة « كتاب الموتى » ليس من حقنا أن نتهمه بالزيغ الشعوبي أو الانحراف الفرعوني ، ومن جاءنا يقترح بعث تراث الغزالي ليس من حقنا أن نتهمه بالرجعية او الجمود، ومن جاءنا بدراسة عن الخوارج أو المعتزلة او القرامطة ليس من حقنا ان نتهمه بالالحاد والزندقة واحيانا بالشيوعية . ليس من حقنا ان نتقول بشيء من هذه الاتهامات لان كتاب الموتى وحضارة سومر وتراث الفينيقيين وجميع الحركات الفكرية في المسيحية والاسلام بهذه المنطقة .. جميعها تشكل « تراث » هذه الامة و « حضارة » هذه الامة و « تاريخ » هذه الامة .

ان ابشع معالم العدوان الثقافي على امتنا انه شجع الاتجاهات المعادية للقومية العربية على أساس اقليمي باسم الحضارة المستقلة

والتراث الخاص ، كما شجع في نفس الوقت الاتجاهات الناطقة بلسان القومية العربية على أساس عرقي يؤدي سياسيا الى نماذج متهرئة للفاشية والنازية . لهذا السبب كان من ألزم واجباتنا العاجلة التي تمليها النكسة املاء عميقا ، أن نقصي عن الحلبة الفكرية كلا الاتجاهين المتطرفين اللذين يلتقيان ـ ولا مجال للعجب ـ في بؤرة واحدة هي العنصرية : أخطر الشباك التي ينصبها الاستعمار الجديد والصهيونية العالمية . ولنتجه مباشرة الى هذا المفهوم الايجابي البناء الذي يرى هذه الامة في اطار « وحدة المصير » جنبا الى جنب الخصائص النوعية التي يتسم بها كل قطر عربي من خلال ذاتيته المشروعة .

ـ ٣ ـ

يلي هاتين النقطتين مباشرة ما أسميه « بالوحدة الثقافية » في العالم العربي . وهنا قد يقاطعني ألف لسان ولسان في قول واحد : يا سيدي ، اما الوحدة الثقافية فهي الوحدة الوحيدة المتحققة بالفعل ، اكثر من الوحدة الاقتصادية او السياسية الخارجية او القانونية .. الى غير ذلك من « اشكال وحدوية » يموج بها العالم العربي تحت عناوين مختلفة : « اتحاد العمال العرب » ، « اتحاد المحامين العرب » ، « اتحاد الصحفيين العرب » . الوحدة الثقافية تراها بوضوح على أغلفة المجلات الادبية حيث تلتقي الافلام المصرية باللبنانية بالعراقية بالسودانية . تراها بوضوح في مؤتمرات الادباء العرب . تراها بوضوح في انتشار المعلمين المصريين بالمدارس العربية : اما زلت ترغب في وحدة ثقافية عربية هي متحققة بالفعل ؟ وأسمح لنفسي أن أقول : نعم .. أرغب في وحدة ثقافية أعتقد ـ وأرجو أن أكون مخطئا ـ انها ليست متحققة الى الان ، حقا ، لدينا ثقافات ناطقة بالعربية ، ولكن ليست لدينا ثقافة عربية بالمعنى العميق الشامل الذي يقف جدارا[1] صلبا في وجه الاجهزة الفكرية والثقافية للاستعمار الجديد .

لا يكفي ان اكتب في لبنان ، ويكتب غيري في دمشق ، وثالث في بغداد ، حتى نقول ان ثمة تفاعلا ثقافيا حقيقيا في الفكر العربي المعاصر .. بل ولا يكفي ان يقوم صراع بين اديب من القاهرة واخر من الدار البيضاء حول قصيدة من الشعر او قصة قصيرة او غير ذلك من الوان الادب وقضايا الثقافة حتى اقول ان هناك تفاعلا صحيحا عميقا بين المثقفين والادباء والمفكرين العرب ، بل ان توحيد برامج الدراسة والتعليم في البلدان العربية لا يقوم بهذا الدور الخطير بل لا بد من تعديل هذه البرامج قبل توحيدها حتى تستطيع القيام بدورها التمهيدي اللازم في قيام ثقافة عربية واحدة . لقد تمكن الاستعمار القديم من ان يعزل اتجاهات الثقافة العربية عن بعضها البعض عزلا جادا[1] ، وجاء الاستعمار الجديد فدعم هذه العزلة بوسائل شديدة الخبث والدهاء . فنحن نكاد لا نعرف شيئا عن « طريقنا الخاص » الذي سلكته الثقافة العربية في مسارها الطويل وسط زحام الثقافات الواحدة والمستوردة . ونحن الى الان نكاد لا نعرف شيئا عن « التقاليد العربية » في الثقافة التي رسختيوما بعد يوم على مر العصور والاجيال .. ونحن الى الان نكاد لا نعرف صورة موضوعية مفصلة لتطور كل ثقافة عربية على حدة حتى نتمثل عناصر الوحدة بين ثقافاتنا المختلفة فندعمها كما نتمثل عناصر الفرقة فنعمل على ازالتها ، ونتمثل الخصائص النوعية المستقلة التي تحفظ لكل ثقافة ذاتيتها المشروعة فنأخذ في تحديد معالمها .

ان الكاتب المصري قد تبهره قصة قادمة من بيروت او قصيدة من بغداد ، ولكن انفعاله يتوقف عند هذه الحدود الاستاتيكية ما لم يتعرف على « الارض الام » التي اثمرت هذا العمل الفني .. ومن ثم ينتقل من عتبات « الانبهار » الى « التفاعل » الحي العميق . ولكن هذا التفاعل لن يتم بصورة علمية صادقة الا اذا بدانا في صرامة وموضوعية باكتشاف ذاتنا الثقافية من جذورها وشعيراتها الدقيقة . واكتشاف الذات لن يتم الا بمرصد امين وتحليل شامل لتاريخنا الفكري والثقافي .. فحتى الان تخلو المكتبة العربية خلوا شبه تام من المراجع الامينة لتاريخنا الثقافي ، وبخاصة المراجع الخالصة من شوائب المناهج المعادية أصلا لفكرنا القومي ، مناهج بعض المستشرقين ، ومناهج بعض الجامعات الاجنبية .. ان اكتشاف الذات الثقافية للامة العربية هو السبيل الوحيد الى معرفة « طريقنا الخاص » الذي سلكته ثقافتنا القومية و « التقاليد العربية » التي حفرها الوجدان العربي والعقل العربي على صفحة وجودنا .. ان اكتشاف الذات الثقافية للامة العربية ايضا ، هو الخطوة الاولى للوحدة الثقافية العربية الحقيقية . والوحدة الثقافية العربية هي الحائط الصلب المنيع في وجه الاستعمار الثقافي الاميركي .. انها تصوغ الحد الادنى من « الوحدة الفكرية » القادرة على صياغة الارادة الحديدية للوطن العربي في جولته القادمة مع الامبريالية والاستعمار الجديد .

***

هذه فيما اعتقد هي النقاط الثلاث الرئيسية التي يتعين علينا التوقف البصير عندها على الصعيد العربي العام في رحلة نضالنا المرير القائم والقادم . بقيت المهام التفصيلية التي تتصل بالمواصفات المحلية لكل قطر عربي على حدة . فالبلدان العربية التي تخضع فيها الثقافة لاشراف وتوجيه الدولة تسهل مهمتها وتعسر في آن . والبلدان التي تستقل فيها مؤسسات الثقافة الوطنية استقلالا تاما تتخذ مسارا مختلفا بعض الشيء في توليها لمسؤولياتها . والبلدان التي تكاد تخلو من أية مؤسسات للفكر والثقافة ، تحتاج الى تخطيط جذري وشامل يغير من وضعها في نقطة الصفر .

اما الاقطار التي تخضع فيها ادوات التعبير لاشراف الدولة وتوجيهها ، واتخذ هنا من الجمهورية العربية المتحدة مثالا محددا ، فعليها ان تعيد النظر في بنائها الثقافي على ضوء العدوان في مقدماته وأحداثه ونتائجه القريبة والبعيدة . وهنا أكرر القول باني اعني العدوان الثقافي والعدوان المسلح على السواء . فلست أتصور ان وزارة الثقافة المصرية التي بادرت منذ حوالي عام بتغيير « قطبي » ان جاز التعبير عن اقصاء كبار الموظفين واحلال اخرين يتمتعون بثقة القوى الوطنية والتقدمية .. لست اتصور ان وزارة الثقافة باقتصارها على هذا التغيير القطبي تستطع ان ترتفع الى مستوى الاحداث . واذا كنت اضع في اعتباري الان ان دار الكاتب العربي قد تمكنت خلال المحنة ان تصدر عشرين كتابا في عشرة ايام فان هذا الانجاز العملي « لم يتم بواسطة الجهاز الرئيسي والرسمي للدار ، وانما قد تم بالمبادرات الفردية لمحمود امين العالم وسعد الدين وهبه ومجموعة قليلة العدد من موظفي المؤسسة الذين انتدبوا خصيصا للقيام بهذه المهمة العاجلة .

اما موظفو الشركة الذين يتقاضون خمسين ألفا من الجنيهات شهريا ، كان معظمهم من الكادر الرئيسي للدار القومية للطباعة التي اصدرت كتبا تصف اسرائيل بانها واحة الاشتراكية وان اميركا جنة الديمقراطية على النحو الذي طالعنا به البيان الفاجع للدكتور ثروت عكاشة منذ شهور . ولقد عمدت الى ذكر الرقم المهول من الوف الجنيهات التي تدفع لموظفي هذه الشركة حتى نضع ايدينا على المعوقات الحقيقية التي تحول دون بنائنا الثقافي من جديد بناء سليما . فهذه الالوف من الجنيهات تعني اولا ان « نزيفا لا يبطيء السير » في احدى منشآتنا الثقافية الكبرى يهددها بالتوقف التام . ويعني ثانيا ان زحاما الى حد الاختناق ، يعرقل كل ما تبنيه الشركة ويهددها بالموت النهائي . وبين الالوف المؤلفة من اموال الشعب ، والزحام البشري للطاقات المعطلة ، لن يستطيع محمود العالم ولا سعد الدين وهبه ولا غيرهما من الكفاءات الفنية والفكرية ان تحول دون الانهيار .. اذ لا يكفي أن نضع كفاءة ما في القمة ونترك البناء كله فسادا ترعى فيه حشرات الاهمال

والتقصير والذمم الخربة والانحرافات السياسية والاخطاء الفادحة . هذه الاخطاء التي سمحت ان يصدر في عنفوان المعركة مع اسرائيل كتاب يطالب بحرية الملاحة في خليج العقبة !! ان الحل العاجل لهذه المشكلة الخطيرة هي تحويل الاعداد الغفيرة التي تحمل مؤهلاتها الجامعية عن كلية الاداب الى وزارة التربية والتعليم ، والابقاء فحسب على الطاقات الفنية والفكرية القادرة على حمل العبء والمسؤولية . بذلك تتخلص الشركة من الاعباء المالية الضاغطة على ميزانيتها لدرجة الانفجار، وبذلك ايضا يحدث التجانس بين القمة والقاعدة وتحدث الوحدة بين الهدف والوسائل .

وما يقال عن دار الكاتب العربي يقال ايضا عن مؤسسة السينما ، كما يقال عن مؤسسة المسرح ، وادارة الثقافة الجماهيرية .. وان اختلفت الظروف من مؤسسة الى اخرى ، فالسينما مثلا ليست مشكلاتها الان انها لا تجد قصصا وطنية ، كما ان المسرح ليست مشكلته انه لا يجد نصوصا من ادب المقاومة . ان مؤسسة السينما وقد احتلت قيادتها كفاءات وطنية وتقدمية ، فان مشكلتها تكمن في الطرف الاخر الذي تتعامل معه من مؤلفين وممثلين ومخرجين .. كذلك الامر في مؤسسة المسرح .. فقد تسلمت قيادتها كفاءات لا تقل وطنية وتقدمية، ولكنها تتعامل مع نصوص تصل احيانا الى مستوى حافة الثورة المضادة من الناحية السياسية ، وتصل احيانا اخرى الى درجة شديدة الهبوط من الناحية الفنية . والثقافة الجماهيرية لا تبدأ من الجماهير ، وادارة المجلات تخصص احداها في خدمة افكار متخلفة واحيانا معادية ، وتجمد اخرى في أطر محنطة ، ان اعادة بنائنا الثقافي تستلزم حقا اعادة نظرة سريعة في كل قوانا وقواعدنا وبرامجنا . ووزارة الثقافة ـ كما يحق لنا ان نفترض ـ هي قلعة العمل الرسمي المنظم في النضال الفكري الذي تخوضه جماهيرنا اليوم من اجل تصفية اثار العدوان .

غير ان القلعة الثانية في معركة اليوم والتي ينبغي ان تتصدر مكان القيادة هي التنظيم السياسي ، ولا ينبغي على الاطلاق ان نكتفي بما نقوم به امانة الدعوة والفكر في الاتحاد الاشتراكي من اصدار النشرات الثورية .. فان الواجب العاجل والملح في المرحلة الراهنة ان يحدد التنظيم السياسي في وضوح تفصيلي دقيق الخيط السياسي للبلاد سواء في اطاره الاستراتيجي او في مرحلته التكتيكية .. ليس معنى ذلك انه لم يكن هناك خط سياسي محدد ، وانما اقصد ان العدوان الثلاثي الاخير سوف ينعكس بقوة النكسة على تفكير المواطنين وسلوكهم. واذا كانت الجماهير العظيمة قد برهنت مساء ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ على انها ما تزال صامدة في خطها السياسي الثوري ، فان هذا لا يعني على الاطلاق ان المشكلة قد انتهت .. فان العدو لا يصمت ليل نهار عن اشاعة البلبلة في صفوف شعبنا متسلحا في معركته الجديدة باكثر ادوات التشتيت الفكري تخفيا والتواء .. والمثل القريب في هذا الصدد هو الصورة المضللة التي روجتها دعايات الاستعمار عن موقف الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي عامة .. فلم يكن الهدف من وراء هذه الصورة الا اشاعة فقدان الامل في أصدقائنا ، وتوجيه الاعتماد كل الاعتماد على اعدائنا .. هذا المثل الصارخ يوضح الى اي حد يمكن للعدو ان يهز خطنا السياسي ويبعثر قوانا الايديولوجية ويشتت بناءنا الفكري .. لهذا السبب ، اقول : ان المهمة العاجلة امام التنظيم السياسي هي « تحديد الايديولوجية الثورية » لشعبنا في خط سياسي واضح ، وبرنامج تفصيلي دقيق للعمل ..

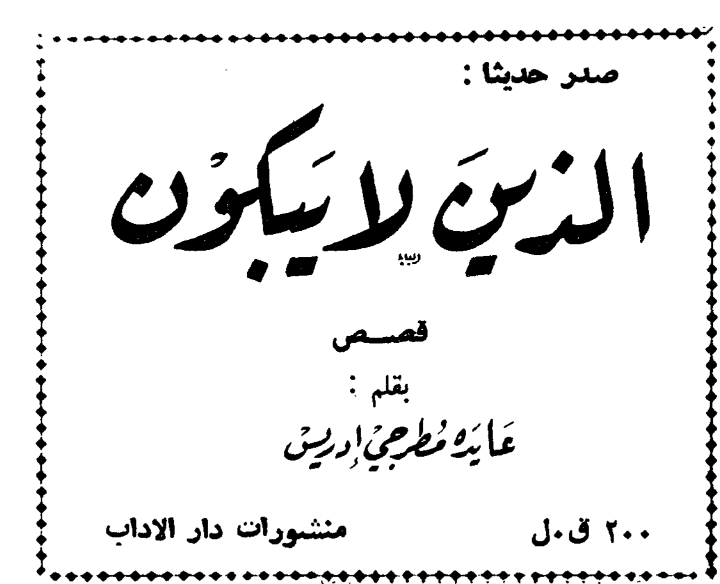
وهنا يأتي دور اجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزيون . فلقد امتد العدوان الثقافي الاستعماري على طول الجبهة الفكرية المصرية حتى تأثرت اجهزتنا الاعلامية في صميم تخطيطها تأثرا ضاريا .. فكم من افلام مكتب الاستعلامات الاميركي المهداة مجانا قد عرفت طريقها الى قنوات التلفزيون المصري ، وافئدة وعقول المصريين .. وكم من البرامج الاميركية التي اجتذبت في تقديم المواد المختلفة من مسلسلات بوليسية وجنسية اسهمت بدورها في تخريب الوجدان المصري والذوق المصري.. الى عديد من المخازي التي حرفت بعض برامج الاذاعة وبعض الصحف عن كونها اداة توعية في خدمة الشعب الى خزينة سخية للنهب العلني « والمشروع » وسرقة وعي المواطنين . ولعلها صحيفة محددة ، ومحطة اذاعية محددة هي التي اشاعت في صفوف الجماهير اثناء المعركة الاخيرة وبعدها ما بلبل افكار الكثيرين ..

اما دور النشر التابعة للقطاع الخاص في مصر والبلدان العربية الاخرى ، فان مسؤولياتها الرئيسية هي تصفية حساباتها نهائيا مع المؤسسات الاجنبية . ويلي ذلك ان تعمل بغير عزلة عن القيادات الثقافية المناضلة سواء منها من اعتلى مقعدا شرعيا او من بادر مبادرة فردية مخلصة بوازع من ضميره الحر . عليها كذلك ان تخطط لنفسها وفقا لاحتياجات المرحلة الخطيرة التي نعيشها ولا تترك نفسها لعشوائية الشعار التقليدي « اكبر ربح ممكن في اقصر وقت ممكن » .. ان تنسيق العمل بين القطاع الخاص والقطاع العام ، بين المنابر الرسمية والمنابر غير الرسمية من اهم الواجبات التي يجب ان تشارك فيها جميع الاطراف بانصبة عادلة ..

اما البلدان التي تكاد تخلو من مؤسسات ثقافية على الاطلاق ، وهذه تعرضت للعدوان الثقافي مثل غيرها ، بل واكثر لخلو ارضها من الدفاع الذاتي .. فانها مطالبة اليوم اكثر من اي وقت مضى بأن تبدأ بناءها الثقافي الوطني المستقل ، ولا تعتمد بشكل مطلق على امدادات الدول الشقيقة بمجلاتها وافلامها . ان هذه الامدادات والافلام تستطيع ان تقدم خدمة عظمى لهذه البلدان اذا شاركت في « بناء » ثقافة وطنية لها .. فلا تعود جماهيرها مجرد قراء مستهلكين وكتاب مهاجرين .. بل تصبح ارضها قاعدة لبناء ثقافي راسخ يتفاعل مع بقية الابنية والثقافات، ولكنه ليتدعم ويقوى اساسه الداخلي والذاتي فوطن بلا بناء ثقافي هو اكثر الاوطان عرضة للسقوط ..

واذا امكننا ان نتحرر ونحرر ذواتنا المنفردة بخصائصها النوعية المستقلة ، فاننا سنتحرر في نفس الوقت ذاتنا الكبرى الجامعة لاروع ما فينا من ايجابيات والموحدة لاعمق ما فينا من جوهريات .. وهذه الذات العربية هي التي ستقف كالطود في وجه أي عدوان جديد ، وهي نفسها التي ستطهر الارض العربية من ادران العدوان القريب والبعيد.. علينا فحسب ان ندرك في كل خطوة نخطوها أن العدوان قائم وان المعركة مستمرة ... وبالتالي فان « تصفية اثار العدوان » في كافة مجالات حياتنا ـ والثقافية من اهمها ـ هي اخطر المهام العاجلة في الوقت الراهن ..

القاهرة — غالي شكري



أربع جدران مهزومة

قصة بقلم عبد الرزاق المطلبي

« الى وجه الانسان الضائع في الدم ... الـــى روح الانسان المختنق بين جدران مدن اميركا الكبيرة ... حيث أنفاس العوز جريمة تشرد كبرى ... !! » .

وكعادته جلس في كرسيه ازاء باب المقهى ، ولكنه لم يذرع الشارع بعينيه .. بل نسي حتى عادته في مد نظراته الى رفيقيه في ذلك الركن .. ومن حوله خيوط زرقاء باهتة تتلوى لتصنع له ناقوسا يحشر نفسه فيه من دخان سيجارته المنفعلة .

انسابت يده مندسة تحت سترته لتخرج عددا من اوراق حائلة اللون وقلما .. بسط احدها على الطاولة امامه وسيجارته تشرف على الانتهاء من صنع الناقوس ممدة على منفضة معدنية لامعة .. رفـــع رأسه ونقل عينيه في كل مكان وروحه تنفتح على رأسه ملاحقة بعض الصور والكلمات .. قبل شهر كتب الى امه العجوز في عمان.. وقبل اسبوعين كتب الى اخيه في بيروت وعمه في دمشق ، وخاله في العراق .. خاله لا يكبره الا بعامين فقط ، وامه تنتظر بين يوم واخر انغلاق اخر حلقه في عمرها .. ومع هذا فان شيئا يفرز الابر في قلبه .. يشعر به يؤنبه .. كان ولا يدري كيف .. نسي اخته ما يقارب الثلاثة اشهر ولم يكتب لها .. قالت له في اخر رسالة مختومه باسم ((غزة)): « اليس من القسوة أن تجلس وحدك تفكر ولا تدري ماذا حل بأهلك..؟! أنا يا أخي أفكر بهذا .. أفكر به دونما وعي .. ماذا تقول أنت ؟؟ » تحركت يده بالقلم وحطت على أول سطر في أعلى الصفحة .. كتب « أختي نوال الحبيبة .. تحية شوق واحترام .. ها هو قلبي كعادته يشتد خفوقه فلا أسمع الكلمات التي تدور في ذهني .. ليتك تسمعينه لتعرفي مبلغ لهفي على لقياك ولقيا الجميع .. خاصة أمي .. » بقيت يده نائمة على الورقة وسن قلمه تتحفز .. تذكر رسالة كل أسبوع .. هكذا .. حينما بدأها أول مرة أرادها تسلية يلعب بها في هذه المدينة الغريبة .. ثم ضحك من نفسه وهو يحار في ما يكتبه على غلافها من عنوان ، وما لبث أن طفح شيء في صدره ليسكت ضحكته ، وتحركت يده تخط العنوان .. « نيويورك . الامم المتحدة .. » تردد قبل ان يكتب .. لكنه كتبه .. العنوان .. رغم وجوده هو في نيويورك .. وفي هذا الركن من هذا المقهى الذي احتل من زمن لا يعلم بدايته هذه الزاوية من هذا الشارع الخلفي .. ومع هذ فشيء أشبه بالنشوة داعب مشاعره .. ومع سخريته من نفسه .. ومع شعوره الـــذي يشبه شعور رجل ولد له ولد كسيح بعد طول تلهف .. ومع وجوده على بعد عدد من الشوارع عن بناية الزجاج العالية الكبيرة .. ذات الاروقة المتشعبة التي سمع بها دون ان يراها .. والتي علقت علـــى جبهتها لافتة كبيرة كتب عليها بعدة لغات وبخط كبير « الامم المتحدة .. » فانه مضى يكتب الرسالة كل اسبوع ...

كانت سيجارته قد ماتت وتناثرت جدران الناقوس .. أولع أخرى ليصنع الجدار الضبابي من جديد .. فهو لا يستطيع الكتابة دون أن يخفي نفسه داخل ناقوسه الخاص ، ولا يدري كيف خطـر لـه ذلـــك الخاطر .. حينما عدل وقبل اسبوع فقط عن الكتابة الى الامم المتحدة وبدأ يرسم خارطة بلده فلسطين .. يرسم الخارطة ويكتب عبـــارة « فلسطين وطني الضائع .. » ثم يودعه في صندوق البريد .. هل تساءل عن مصير رسالته مرة ؟! لا يدري .. فالسؤال عن كل شيء معلق أمامه دائما ..

كان الليل يتكثف في ذلك الشارع .. والاضواء الكهربائيـــة البارقة تمزق الظلام .. ولكنه يستشعره .. يحس به نسيجا قاتما.. فضفاضا .. يحوي كل شيء .. نعم يحوي كل شيء .. حتى الافكار الكامنة في الرؤوس الثقيلة تعوم على سطحه الكثيف رغم الاضواء المزيفة التي تكاد تحيله بنورها الساطع نهارا .. رمى نظراته الـــى الوجهين الصديقين أمامه وحنى ظهره يواصل كتابة رسالته الى أخته .. فكر فيما سيكتبه .. ان لهفة عارمة تحرك قلبه .. تشد مشاعره.. ومع هذا فهو مسوق لان يكتب نفس الكلمات التي طالما كتبها قبلا .. وأحس بقلبه ينعصر في صدره .. الكلمات باردة .. وهو يريد أن يقول أشياء غير ما قاله قبلا .. ماذا ؟! ويثور على نفسه رغم انطباق شفتيه.. أحقا لم يجد جديد في حياتي .. ؟؟ وتشرد عيناه عن الورقة المبسوطة أمامه ملتمسا بعض أفكاره على أرض الشارع اللامعة .. قال الرجـل ذو العين الواحدة والرجل المبتورة : « ان المانيا لي .. المانيا الحبيبة .. مثل جنة الفردوس للراهب المنقطع في صومعته .. تصور أن لي فيها أبا وثلاثة أخوة وبنت عم .. و ... » كتب في رسالته « لا أدري ان كنا سنجتمع ثانية .. ولكن .. » وتوقف القلم .. تناثرت كلمات الالماني « أنا هنا .. حسنا .. ولكني لا أعرف أين هم من المانيا .. ولا هم يعرفون أين أنا .. » أدار رأسه عنه باشمئزاز .. فهو يعرف قصته التي رددها بعدد الليالي التي دخل المقهى فيها .. بدأت موسيقى الفالس تتوغل في المقهى .. انشق في ذهنه الشارع الجانبي الاخر الذي يقع المرقص العتيق فيه .. وتخيل الاجسام اللدنة تتمايل وتتعانق وتتقافز .. والارجل تتسارع .. حينما دخل المرقص أول مرة اندهش .. وتساءل متعجبا كيف يرقصون هكذا .. كلهم في حركة واحدة ومع الايقاع .. بيد أن دهشته راحت وهو يرقص .. بل تقطعت كـــل الخيوط التي تخيلها أول مرة تنطلق من العازفين لتشد الراقصين .. كتب « لو كنا نستطيع أن نجتمع مرة واحدة في السنة .. الفكـرة رائعة .. ولكن تنفيذها .. » سمع الرجل الذي يتنفس سعالا يقـول « أما أنا فقد رحت وراحت ايطاليا يوم أطبقت علي أذرع معسكـــر الاعتقال فيها .. في ايطاليا نفسها .. » قال في نفسه « هذا الايطالي المصدور .. كل عظمة في جسمه تئن وهي تتشوق الى ايطاليا .. » كتب « انت تعرفين أن هذه الرسائل تشوه عواطفنا .. ومع هـــذا فنحن نترقبها بلهفة .. » .

تكسر ناقوسه اللامرئي للمرة الثانية وابتلع الهواء خيوطه تاركا سيجارته جثة ممددة من رماد .. قال الالماني لرفيقه « لا أدري لمـــاذا يولع هذا الشرقي سجائره ما دام يتركها للهواء يمتصها .. » لـــم يكترث ...

اختلطت ضربات جافة مع الانغام الراقصة .. لم يرفع رأســـه رغم اقترابها .. ترددت أصوات صارخة في رأسه .. ثم سمـــع « أنت !! » ارتفعت عيناه .. كانت امرأة عجوز تصرخ بصوت كفحيح مبحوح ونصف الكلمات تظل في بطنها .. لم يفهمها أول الامر.. صعد عينيه بها .. كانت وجها مخددا جافا واطرافا هزيلة معروقة .. يدها

اليمني تمسك بيد فتاة صغيرة .. تلبس ملابس ذات ألوان عديدة متنافرة وتنظر حولها بنظرات بلهاء .. قالت له : « هكذا انتم..تكتبون وتكتبون ولا تريدون أن تكفوا .. لقد ملت حبيبتك رسائلك الكاذبة.. أنا أقول لك ملتها .. فابحث لها عن شيء اخر يثير لهفتها .. » تفحص وجهها مرة ثانية بقلق .. وبحركة حذرة مدت يدها بعلبة مفتوحة من الصفيح وقالت « هيا ضع شيئا . ضع حتى أصلي لاجلها .. » اخرج قطعة نقد صغيرة ووضعها في علبتها فرنت مع آخريات .. خيل له انه يعطيها لعجوز في بلده تشتري بها رغيف خبز .. ولربما لديها طفلة كهذه .. أو أطفال بدون أب .. وجمدت مقلتا عينيه وهو يتخيل بها أمه .. لكن أمه في عمان وهذه .. تحرك سؤال في صدره « ماذا يمنع من أن تكون أمي .. والصغيرة ابنة أخي ؟! » وتفحص الوجه ببشرته البيضاء الجافة وعينيه الزرقاوين .. وتنهد .. قالت لرفيقيه « وانتما .. ضعا .. قدما ما عندكما ليرزقكما الله راحة الاخرة .. أعطيا مساكين الله لينظر لكما يسوع المسيح .. » طفق الالماني يحرك يده على الطاولة ويضحك .. قالت له « تضحك أيها الاعرج المبقور الرأس .. كان عليك أن تموت بدل أن تجلس هنا ونصفك في مكان اخر .. » استرسل في قهقهته .. والتفتت الى الايطالي « وأنت أيها الدودة المتعفنة ألا تريد أن تضع شيئا .. امنحنا ليمسح يسوع روحك بكفه بدل قذفنا بسعالك القذر .. » قال لها الالماني « يا لك من كلبة سليطة .. كان عليك أن تبحثي عن مهنة أخرى وأنت تملكين مثل هذا اللسان .. » « وأنت .. ما كان لك أن تجلس هنا .. بل كان عليك أن تبحث عن ساق وعين أخرى .. » « يا للعجوز المتوحشة .. » « لاكن متوحشة ما دام كل ما حولي متوحشا .. أما أنت فعليك أن تبحث عن مكان اخر ما دمت لا تستطيع دفع شيء لعاجزة مثلي .. » قال الايطالي وهو يضع قطعة نقود وسعاله يسبقه اليها « يا أمي .. اذهبي أنت واستلقي على فراشك ودعي غيرك يشتغل .. » قالت بنبرة قاسية « من .. ؟ ادع من ؟ ليس عندي غير ابني وقد أخذوه الى بلاد بعيدة ليحارب فيها .. ماذا يسمونها .. ؟ فيتنام .. حسنا أخذوه من سنة الى فيتنام ولم أعرف عنه شيئا .. وقبل مدة فرت زوجته مع رجل اخر وتركت هذه الطفلة .. تركتها معي .. فماذا أفعل ؟ » هزا رأسيهما في حين أنشأ هو يحدق فيها من جديد .. حملق في الاعين حوله .. لا دمعة .. بل لم تطرف .. خيل له كأن كل شيء تحجر .. قال الالماني « اذن فأنت أيضا بانتظار راتبك » أخرج قطعة نقود وقذف بها الى العلبة « لربما أمي الان تستجدي مثلك وعيناها ترقبانني .. » « أين هي .. ؟ » « لا أدري .. في مكان ما من ألمانيا .. » « وحيدة .. ؟ » « لا .. معها أهلي .. تركتها في الحرب الاخيرة .. ولا أدري ماذا حل بعد .. » حك شعر رأسه ثم قال « وهذا المصدور اللعين .. أخذوه من بيته ليحارب ثم اعتقلوه في بلده .. ولم يتركوه حتى استلبوه اخر ما اختزنه في جسمه ثم جاء الى هنا بعد ان جلب معه جراثيم صدره .. » أجاب الايطالي بكلمات تقطعها نوبات سعاله الحادة الملحفة .. « اللعنة عليها .. معسكرات الاعتقال تلك .. » فبصقت بنفور محاولة الابتعاد .. بيد أن الايطالي أخذ يسعل بشدة واتصل سعاله حتى انقذف الدم من فمه وأنفه .. ووقع على الارض يخور ..

قفز الفلسطيني من مكانه وركض يستدعي سيارة اسعاف ... وانحنى الالماني عليه تاركا عكازيه يسقطان الى الارض .. جس نبضه والفزع يلون وجهه ويوسع عينيه .. وسرعان ما نقلوه الى المستشفى.

واستطاع الاطباء وقف النزيف .. لوى رقبته ينظر حوله وحركة أنفاسه اللاهثة تهز كل جسمه .. رأى وجهي صديقيه .. الالماني .. الفلسطيني .. تحركت شفتاه ليناديهما لكنه لم يستطع .. لم يعرف اسميهما .. فقد نسوا كل الايام التي التقوا فيها أن يتنادوا الاسماء .. بل لم يتعارف أحدهم مع الاخرين حسب الطريقة .. هكذا .. كل ينظر الى الاخر .. كلمة من هنا وكلمة من هناك .. راح الالماني يمسح على جبهته بحنان والفلسطيني ينظر الى عينيه .. مال وجه المريض الى الناحية الاخرى .. وما لبث أن عاود الطواف بالوجهين حوله .. كانت عيناه تنطقان بما يعتمل في صدره .. كل ما له في الحياة وجهان .. وجهان قريبان اليه غريبان عنه .. تمتم بالايطالية بكلمات غير مفهومة .. نظر الالماني الى وجه الفلسطيني ثم الى وجه المريض .. آمرًا كفيهما على جسمه يطمئنانه وخرجا .. والتقيا بالمرأة العجوز .. سألت « ها .. كيف حاله ؟ » قال الالماني « يدنو من الموت .. » نظرت اليه والى رجله المقطوعة وعكازيه المثبتين تحت ابطيه .. الى وجهه وعينه الفارغة .. الى الشرخ في أعلى محجره .. وهزت رأسها فيما كانت تدلف الى داخل المستشفى .

في اليوم التالي .. كان الاثنان جالسين .. الفلسطيني يحاول تكملة رسالته الى اخته وفي ذهنه تدور بعض الكلمات التي يود تسجيلها في رسالة وطنه الاسبوعية .. موسيقى الفالس تعلو حتى تطغى على كل الانفاس .. تذكر المرات التي اجتمع فيها الثلاثة هنا.. الايطالي .. زفر والملامح الشاحبة المعروقة ترتسم أمامه .. مرة سأل الايطالي رفيقه الالماني : « ألم تتنبه لجارنا هذا .. ؟ انه ساكت دائما .. » فرد عليه ذاك « طريقة جديدة للهرب من الدنيا .. » « سوف أسمعه قصتي ليحكي لنا شيئا عن حياته .. » « لا فائدة .. فهو لا يعرف غير زرع الكلمات في رأسه ليكون حصادها على وريقاته تلك.. » « يبدو انه غريب .. » « شرقي ؟؟ » « يبدو » تذكر ما انبثق في خياله لحظتها .. تمنى لو يأتي بمرآة يثبتها أمامهما لينظرا نفسيهما.. استشعر شيئا من الاسى .. فات كل شيء وانتهى .. وليس له الان غير هذه النظرات الفارغة يتبادلها مع الالماني الحزين .. قال في نفسه « حزنه يكثر كلما مرت الساعات .. فهو منذ الساعة التي فقده بها انطفأت عيناه .. لا بد أنه فقد به الاذن الوحيدة التي تسمع صوته المشروخ .. » تذكر رسالته .. كتب « المصائب كثيرة في هذه الدنيا يا أختي .. بالامس .. » راح يكتب قصة رفيقيه ..

انتبه وأنغام الفالس تلعب في جو المكان .. أرجل تتحرك بسرعة مختلطة بحركة بطيئة لعصا عجوز مهزوزة .. كانت تسير ممسكة بذراع الطفلة بين شرطيين مشدودي الملامح .. تصفع الناس والاشياء بنظرات حادة قاسية .. وحينما قربت منهما حيتهما بصمت وتقطيبة نقمة تنعقد في جبهتها .. تبادلا نظرات طويلة .. ثم جذب كل منهما نفسه من مكانه ليسير وحيدا في شارع مقفر ..

عبد الرزاق المطلبي

حوار مع سارتر حول العدوان

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥٨ ـ

شنت على نطاق واسع في فرنسا ضد القضية العربية ، ان العناصر الموالية لاسرائيل ومن بينها بعض الذين عارضوا حرب الجزائر ، ركزوا على اتهام مصر بأنها بلد فاشي وقارنوا الرئيس جمال عبد الناصر بهتلر . لقد زرتم بلادنا وقابلتم جمال عبد الناصر فهل ترون ان هناك اساسا ما لذلك الاتهام وهذه المقارنة ؟

وارتفع صوت سارتر بحدة وهو يقول : انني أعتقد ان هذا الاتهام في غاية السخف وانه من ذلك النوع الذي يتولد عن اندفاع أهوج والذي يتعين اهماله وادانته تماما . لقد وصفت شخصيا الرئيس جمال عبد الناصر ليس فقط في المؤتمر الصحفي الذي عقدته في القاهرة حيث يمكن الظن ان حديثي كان من قبيل المجاملة ، وانما كذلك في مؤتمري الصحفي باسرائيل وامام المسؤولين الاسرائيليين أنفسهم ، وصفته بأنه سياسي واع وقدير وحكيم ، يعتبر واجبه الاساسي كرئيس للدولة هو خلق ظروف اجتماعية أفضل عن طريق بناء الاشتراكية في مصر . ولقد لمست بنفسي خلال حديثي معه مدى اهتمامه العميق بالمنجزات المصرية ومقدار وعيه الكبير بما تواجه البلاد من مشاكل التنمية حتى في الداخل مثل الزيادة الكبيرة في عدد السكان . وكان حديثنا يدور حول هذه القضايا . ولقد تكلم الرئيس جمال عبد الناصر عن مشكلة اسرائيل بطريقة غاية في الشمول والعمق والاتزان . وليس بالتالي ثمة وجه للمقارنة بين رجل الدولة هذا الواعي تماما بالواقع والاهداف والمصاعب وبين هتلر ولا حتى بينه وبين أي دكتاتور من اولئك الذين يحكمون هنا وهناك في العالم حاليا . ليس ثمة وجه للمقارنة اطلاقا . ولا شك ان محاولة بناء الاشتراكية قد بدأت حتى الان على نحو ما بقيادة من أعلى وربما كان مرجع ذلك عدم النمو الكافي للوعي الطبقي في مصر . والان بعد هذا الحدث الكبير الذي شهدته البلاد عندما أعلن عبد الناصر يوم ٩ يونيو تنحيه فتمسكت به الجماهير الشعبية بقوة يثبت ان عبد الناصر يجد خلفه القوى الشعبية الهائلة التي تسنده . وهذا دليل على الوحدة الثورية التي تتم تحت قيادته . واذا كانت الوحدة الثورية تؤكد نفسها في مثل هذه الظروف التي وصفها هو بالنكسة ، فانه يجب أن نذكر في نهاية الامر ان الكوارث والنكسات هي دائما تصنع الثورات .. تصنع الثورات القوية .

قلت :

ـ أود لو امكنكم أن تفسروا لي حقيقة الدوافع التي تحرك هذا الاتهام بالذات في الدعاية المعادية العرب في فرنسا على وجه خاص ؟

ـ ان ناصر مكروه في قطاع كبير من الرأي العام الفرنسي وأعني به قطاع اليمين بالذات وجزءا من القطاع اليساري .. وهو مكروه بقدر ما أثبت أنه تقدمي . فالفرنسيون اليمينيون لا يغفرون له انه ساعد جبهة التحرير الجزائرية في نضالها من أجل استقلال الجزائر . ومن ناحية أخرى توجد ثمة أنواع من العناصر اليسارية مثل « غي موليه » لا تغتفر له اطلاقا هزيمتها في حرب السويس . والواقع انه يجب أن نفهم هذا التماثل في الموقف . فلم يكن لفرنسا نفس المصلحة التي كانت لانكلترا في السعي لقلب نظام جمال عبد الناصر على اثر تأميم قناة السويس . ولكنها كانت تريد قلب النظام الذي كان يساند الجزائريين . وبعبارة اخرى كان الدافع الحقيقي لمغامرة السويس عند الفرنسيين ، هو الرغبة في القضاء على نظام تقدمي كان يساعد الجزائر . ومن هذا الحقد تولدت الدعاية التي تريد أن تصور من عبد الناصر دكتاتورا هتلريا .. صورة زائفة وحقودة .

وانعطف الحوار مرة اخرى الى الحرب والعدوان فتساءلت : لقد ادنتم في محكمة راسل التي عقدتموها اخيرا في السويد استخدام اسلحة الابادة الجماعية مثل النابالم . ولقد استخدمت اسرائيل في عدوانها المفاجىء ضد البلاد العربية النابالم ضد العسكريين والمدنيين معا . ويفاخر ديان بهذا ويعتبره أمرا طبيعيا في الحروب . فما هو رأيكم في هذا الموقف وفي تصريح ديان بأن اسرائيل لا يعنيها في قليل او كثير مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين يتزايد عددهم اليوم باستمرار بسبب طرد مئات الالوف الجدد من جانب اسرائيل .

واعتدل سارتر في مقعده وكأنه قاض يتلو حكما : انني أعتبر بوضوح ان استخدام النابالم في أي مكان سواء في فيتنام أو ضد المصريين والسوريين والاردنيين عمل اجرامي في جميع الاحوال .

قلت : هل أفهم من ذلك انك تعتبر « ديان » مجرم حرب ؟

هتف بلهجة قاطعة : نعم .. الجنرال ديان مجرم حرب بسبب استعمال النابالم وبصفة خاصة بسبب الرغبة في التوسع .

وتريث سارتر برهة قبل أن يستطرد : من الامور الغريبة انني حين القيت في تل ابيب حديثا عن محكمة راسل كان ديان بين الحاضرين في مقدمة الصفوف . انني لم أره ولم أتحدث اليه ولكنني علمت بأنه كان هناك . ولست أدري لماذا حضر ، ولا ماذا كان يبغي ؟ على العموم فيما يتعلق بتصريحاته التي أشرت اليها ورفضه الكامل لعودة اللاجئين الفلسطينيين الى وطنهم فانني أعتقد ان هذا الموقف ضار للغاية لا من وجهة نظر الفلسطينيين فحسب بل بالنسبة للاسرائيليين أنفسهم . انني أعتقد ان المأساة التي تقع عندهم هي عكس ما يحدث في البلاد العربية . فغرور العسكريين الاسرائيليين بما فعلوه خلال الحرب قد ترتب عليه ان القوى الرجعية والمتعصبة دينيا هي التي تستولي حاليا على السلطة تماما .

ان من الامور الواضحة لدي الان ان أول ما كان ينبغي على الحكومة الاسرائيلية أن تفعله أن تناقش وتحدد فورا موعد انسحاب قواتها الى قواعدها الاصلية أي الى حدود سنة ١٩٤٩ . ولكن من الواضح ايضا انهم لا يفعلون هذا في حين انني أتصور انه يجب أن يفعلوا هذا خلال ثلاثة أيام على الاكثر .

كذلك يتعين علينا أن ندين بشدة الاتجاهات التوسعية التي ظهرت في اسرائيل حيث انه من المسلم به اليوم ان الحروب المشروعة هي حروب التحرير وحدها. وليست بجال حروب التوسع والاحتلال . ولكن ضم اي مناطق بالقوة مثل ضم مدينة القدس العربية فهو عمل جنوني تماما . ومن هنا أقول انني أعتبر استخدام النابالم في الحرب ، كما أعتبر الاتجاه التوسعي اذا ما تحددت معالمه ، أعتبرهما أمرين اجراميين .

قلت لسارتر : لقد استخدمت الان في حديثك عبارة « ان الحروب المشروعة هي حروب التحرير وحدها » ...

وقاطعني : تماما .. أليس كذلك ؟

واستأنفت : تماما .. وهنا أريد أن أثير معك نقطة جوهرية .. ألا تعتبر ان نضال الشعب الفلسطيني المطرود من أرضه من أجل العودة الى وطنه ، نضالا تحريريا مشروعا .. أم انك تضعه ، كما تضعه الدعاية الصهيونية، في اطار الاعمال الارهابية ؟

أجاب : ان ما أعتبره أنا شخصيا من قبيل الاعمال الارهابية لا ينطبق على نضال الشعب الفلسطيني من اجل العودة . اننا هنا بصدد نضال من أجل الاستقلال . وهذا النضال هو الذي سيحمل الجميع دون استثناء بما في ذلك الدول الكبرى على الاقرار بأن القضية الفلسطينية قضية أساسية . وأعتقد فيما يخصني ان مشكلة الدولة الاسرائيلية مشكلة ثانوية . اما المشكلة الاساسية فهي عودة الفلسطينيين الى وطنهم . وارتباط الاسرائيليين والفلسطينيين بشرق أوسط تقدمي .

قلت : هل تقصد هنا الطوائف اليهودية والعربية ؟

قال : تماما . وان الشرق الاوسط الذي يتكون بهذا الشكل يمكنه أن يجد حلا لمشكلاته بعيدا عن الحرب .

وهنا طرحت على سارتر ظاهرة الاستقطاب في القوى الدولية بسبب العدوان فقلت : لقد اصبح واضحا الان ان اسرائيل تتمتع اساسا بمساندة الاستعمار العالمي وهي تقف اليوم في جبهة مع اميركا وبريطانيا والمانيا الغربية ، وذلك في مواجهة جبهة مكونة من الشعوب العربية والقوى الاشتراكية والعالم الثالث .. كيف تحلل هذه الظاهرة ؟

وجاء تحليل سارتر على النحو التالي : انني أعتقد ان اسرائيل ، بكل أسف ، من حيث انها قد نشأت بفعل مهاجرين قادمين من الغرب .. وانها حين وجدت كدولة تمتعت بعون القوى الغربية .. هذا فضلا عن رفض العرب لاي تعامل معها .. بهذا كله أصبحت اسرائيل اليوم موضوعيا الى جانب الاستعمار . ومساندة اسرائيل يقوم بها اليوم الانكلو أميركيون وبصفة خاصة الاميركيون . هذا واقع وكما قلت لك هو واقع تاريخي تطور من تلقاء ذاته . وهنا أختلف معك في ان هذا كان منذ البداية ثمرة تواطؤ مباشر مقصود من جانب الاسرائيليين . بعبارة أخرى نحن الان بصدد واقع موضوعي تكون تاريخيا ، وفي تقديري انه ربما كان من الممكن ان تسير الامور في غير هذا الاتجاه عام ١٩٤٨ ولكن ما حدث كان غير ذلك . ومن ناحية أخرى فانني اعتبر من المنطقي والمشروع تماما ان يعلن العالم الثالث والقوى الاشتراكية تضامنها مع العرب حيث ان العرب مناضلون من اجل الاستقلال والسيادة القومية ضد المصالح الاستعمارية وبصفة خاصة المصالح البترولية . وانا واثق كذلك ان الاستعماريين يحرصون على استخدام اسرائيل ككلب حراسة ولكنني ألح شخصيا على اعتبار ان هذا الدور ليس في مصلحة الاسرائيليين. ان مصلحة الاسرائيليين عكس ذلك . انها في القضاء على الالتحام الموضوعي الذي أشرت اليه . وان دولة تتكون من عنصرين ساميين ، عرب فلسطين واليهود ، لن يكون لها عندئذ طابع استعماري او غربي او عنصري.

وتساءلت : هل تعتقد ان حرب ٥ يونيو الاسرائيلية الاستعمارية في الشرق الاوسط قد وضعت نهاية المفهوم التقليدي للتعايش السلمي ؟

اجاب سارتر : الحقيقة انني أعتقد ان سياسة التعايش السلمي قد تهددت بالفعل منذ حرب فيتنام . وأعتبر اننا الان على مشارف حرب عالمية ثالثة . ولست ارى — في تقديري — عنصرا يسمح بتطور العالم الثالث في ظل السلام الا القنبلة الصينية . ذلك انني لا أعتبرها من عوامل الحرب ، بالعكس انها عامل من عوامل توازن الرعب . وحين ينجح الصينيون في صناعة الصواريخ ، حيث يصبحون دولة ذرية مهيبة ، سيحس العالم الثالث بان عنده وسائل الدفاع ويمكن بذلك أن تسير الامور في مجرى يختلف عن مجراها الحالي . انني أثق تماما بكلمة الصين بأنها لن تبدأ باستخدام القنابل الذرية . ولكن امتلاك الصين للقنبلة الذرية سيطلق حرية الحركة لاولئك السبعمائة مليون الذين يمثلون الى نحو ما مصالح العالم الثالث والذين يتهددهم دائما كون سمائهم مفتوحة للانتقام الذري . وعندئذ سينشأ توازن جديد قائم على الرعب يتوافر في ظله ضمان لجهود العالم الثالث من اجل الاستقلال والارتقاء بمستواه الاجتماعي والتنمية. ولا ينبغي ان يفسر كلامي هذا على انه موقف موال للصين أو معاد للروس .

— هل لان الاستعمار الاميركي قد حقق موضوعيا بالفعل مكاسب كثيرة اخيرا ؟

— لقد كسب الاستعمار الاميركي كثيرا في الفترة الاخيرة ، بالدقة لان الصين لم تملك بعد وسائل وقفه .

— هل يمكن القول بأن الاستعمار الاميركي نتيجة حركته التخريبية العدوانية الشاملة هذه قد اصبح مسؤولا عن خطر اندلاع الحرب العالمية الثالثة ؟

ـ طبعا ..

وعاد الحوار من جديد الى جوهر الصراع العربي الاسرائيلي عندما قال سارتر :

ـ ان القضية كما ترى هنا في الغرب معقدة .. وهذا ما ألح على أصدقائي العرب أن يدرسوه ويبحثوه . ان القضية هنا هي قضية يهود عاشوا سنوات الاحتلال في فرنسا وما شهدته من الرعب والمجازر والذين لمسوا تواطؤ الفرنسيين والالمان في ذلك الوقت فنبتت عندهم فكرة مغادرة هذا العالم الغربي بدل فكرة الاندماج فيه. لقد استبدت بهم فكرة البحث عن مكان يكون لهم ويقبلون فيه .. ولست أعني بذلك طبعا ان النتيجة المنطقيـــة لمثل هذا التفكير ان تكون اقامة دولة اسرائيل على حساب العرب وانما أردت فقط أن أكشف لكم عن شعور اولئك الناس . حقا انه من الصحيح ايضا ما تقولونه انتم من ان الغربيين تخلصوا من عقدة الذنب ازاء اليهود بارسالهم عند العرب الذين لم يكونوا طرفا في الموضوع ولا يتحملون بحال مسؤولية مذابح اليهود .

ـ يا سيدي .. لقد قلت الان ان هؤلاء اليهـــود الغربيين هاجروا من اوطانهم لانهم كانوا يريدون مكانــا يقبلون فيه هربا من الاضطهاد . ولكنهم هبطوا فــــي الواقع على فلسطين بالقوة وتمتعوا في هذا المكـــــان بامتيازات على أساس انهم يهود وذلك على حساب غيرهم من الناس أهل البلاد الاصليين الذين اما طردوا وامــا ظلوا تحت الارهاب لا يتمتعون بأي امتياز في بـلادهم لانهم اولا واخيرا غير يهود !

ـ اذا تحدثت عن هذا فانني قلت في اسرائيل واقول هنا من جديد ان وضع العرب في اسرائيل هو وضـــع مواطنين من الدرجة الثانية وليس في هذا أي شك . هناك مشكلتان مرتبطتان معا كل الارتباط ويجب حلهما قبل كل شيء . وهما المشكلة الفلسطينية بمعنى هؤلاء الذين طردوا ، ومشكلة العرب داخل اسرائيل . وهـــي مشكلة صعبة لان السلطات الاسرائيلية منحتهم شكليـــا حقوق الديمقراطية البورجوازية . فهم يتمتعون بحـــق الانتخاب وهذا لا يسبب أي مشكلة للاسرائيليين الذين يبلغ عددهم ٢٠٥ مليون يهودي في حين أن عدد العرب ٣٠٠ ألف فقط ، ومعنى هذا امكانية وجود بعض النواب العرب ولكنهم بالطبع أقلية ضئيلة جدا لا تستطيـــع أن تفعل شيئا . وليس هناك أي حزب عربي ... غر مسموع . ويجب على العرب ان ينضموا الى الاحزاب الاسرائيليــة فقط ، وكذلك اتحادات الطلبة وغيرها .. ومن هنــــا العنصرية . ومن الواضح كذلك ان من الناحية الاقتصادية لا يمكن ان يحصل العرب على وظائف ذات درجـــــات عالية ، والاغلبية منهم يعملون في مقاولات البناء .

ـ ماذا قالوا لك هناك عندما أعلنت الحق القومـــي للشعب الفلسطيني في العودة ؟

ـ لقد تناقشت في ذلك مع بن غوريون مثلا .. وهو ضد .. ضد . هم ضد . من المحتمل ان يوافــق على هذا ما أسميه باليسار الاسرائيلي ولكنه خـــائف . يخافون هناك ان تنفجر البلد لو عاد اللاجئون . وعــلى العموم اليسار ضعيف .

ـ هذا هو بالدقة منبع العدوان . طرد اهل البلاد واقامة دولة عنصرية بالقوة المسلحة مستندة الى القوى الاستعمارية واحتكاراتها .

ولم يعلق سارتر بشيء ، ومضت فترة صمت . وكان واضحا ان كلا منا قد فرغ راسه من القضـــايا او الاسئلة التي يريد طرحها . وقطعت الصمت قائـــلا بمزاح : عندما كنت أعمل محاميا كان كل نقاشي فــي موضوع قضائي ينتهي بسؤال : هل لديك أقوال اخرى ؟

وابتسم سارتر وقال :

ـ نعم أريد أن أنهي هذا الحديث بما أعتقد انـــه فهم خطأ . بمعنى اني أريد ان أؤكد لاصدقائي العــرب ان ما وقع بسبب البيان الذي وقعت عليه قبل الحرب لا يعدو ان يكون مجرد سوء تفاهم .

لقد قلت من قبل في مصر وفي اسرائيل اني انطلق من نقطتين : ضد ابادة الاسرائيليين ، ومـــع الاعتراف بالحقوق القومية الكاملة للفلسطينيين جميعا في العودة الى الوطن . قلت هذا في المرتين .. ولم افعل شيئا اخر في الوقت الراهن ، واكثر من ذلك فان لي رأيا محددا وهو اني أقف الى جانب الانجازات التقدمية لمصر والعالم العربي كله . انني الان كما كنت دائما . لقد أسيء فهم موقفي وأسيء فهم البيان وتأويله . لقـــد أردت فقط الاشارة الى عدم موافقتي على اتخاذ أسلوب الحرب . وكان يبدو لي وقتذاك ان قرار اغلاق خليج العقبة مـن شأنه أن يزيد من خطر الصدام المسلح .

ـ ولكن من المؤكد انك تعرف الان حقوق المصريين المشروعة بالنسبة لموضوع خليج العقبة .

ـ اعرف كل حقوق المصريين . ولكن كما قلـت كنت افكر وقتذاك في المسألة من ناحية التوقيت وليس كمسألة حق .

ـ ولكن جاء تعيين مناحم بيجين وديان في الوزارة الاسرائيلية كتدبير مبيت للحرب والعدوان .

ـ فعـلا .. منذ تعيين ديـان كـانوا قـد قرروا العدوان . ليس هناك شك في ذلك . قرار تعيين ديـــان كان قرارا باعلان الحرب .

وعلى باب البيت صافحني سارتر مودعا وهو يقول:

ـ ارجـو ان تنقل للشعب المصري وجميع الشعوب العربية تضامني معها في هذه المرحلة . انني أفهم جيدا جراحها وأشاركها مشاعرها وأتمنى لها الاستمرار فـي نضالها . كما اتمنى للرئيس جمال عبد الناصر أن يلقـى دائما ما تأكد اخيرا من تأييد الجماهير الشعبية ليواصل نضاله وانجازاته .

عـــن « الاهرام »

مصطفى الخولي

«أولاد حارتنا» ومشكلة الشر

بقلم ماهر البطوطي

أما أن الحارة هي الدنيا ، وأن أولاد حارتنا هم البشر ، وأن الجبلاوي هو الاله ، وأن جبل ورفاعة وقاسم هم الانبياء الثلاثة ، فهذا لا شك فيه ولا مراء ، ومن يقول بغير هذا فقد أنكر أحداثا واضحة لا لبس فيها ، وأغمض عينيه عن حقائق أدبية لا زيف فيها ولا بهتان ، وأوقع نفسه في متاهة يستحيل عليه معها أن يطابق بين أحداث الرواية وبين أي تفسيرات أخرى ..

ولقد أثارت الرواية ضجة لا تزال تتردد أصداؤها حتى الان وبعد مرور ثماني سنوات على نشرها لاول مرة ، كما أثارت حيرة عريضة بين القراء وبين النقاد الذين تعرضوا لها أكبر من تلك الضجة وأكثر عمقا. والضجة والحيرة انما جاءتا من محاولة اغفال الاحداث ، هذه المقالات القصيرة التي نشرت في الصحف والمجلات عقب صدور الرواية في كتاب ، فهي بالعرض والتقديم أشبه ، ولم تحتو على أي نقد أو تحليل . أما تحميل النص تخريجات لا تمت له بصلة ، فأوضح مثل عليها الجزء الذي كتبه الاستاذ الناقد غالي شكري عن « أولاد حارتنا » في كتابه المسمى « المنتمي » ، حين مس القضية الاساسية في الرواية ـ قضية الدين والعلم ـ مسا رفيقا ، وتجاوزها الى المفهوم الذي شرع ينقد به الرواية وهو جاهز مسبق في ذهنه ، مفهوم المادية التاريخية والمنطق الجدلي ، فاذا هذا العمل الادبي الهام يتحول بين يديه ـ مثلما تحولت كل كتابات نجيب محفوظ الاخرى ـ الى وثيقة اجتماعية تضاف الى وثائق الماركسية ، واذا الناقد ينقل القارىء عن هذا العمل الى متاهات فكرية لا تمت له بصلة ولا تضيف مثقال ذرة الى فهمه له وتذوقه لاسراره .

والرواية جديدة في كل من بنائها الفني ومضمونها ، فقد كان بناؤها شيئا جديدا على الادب العربي الحديث ، ومضمونها جديدا على الموضوعات التي كتب فيها نجيب محفوظ . وحتى لا أستبق الاحكام، سأقوم الان بنقد الرواية عن طريق المقارنة والتحليل الموضوعي لشكلها الادبي وأفكارها الفلسفية .

بدأ محفوظ عمله في التأليف الروائي بمرحلة الرومانسية التاريخية ، حين كان يعتزم كتابة تاريخ مصر القديم في شكل روائي ، أخرج منه بالفعل « عبث الاقدار » و « رادوبيس » و « كفاح طيبة »، ثم مات في نفسه هذا الاتجاه ليتحول بعد ذلك الى الواقعية برواية « القاهرة الجديدة » ، وظل على هذا المنوال حتى انتهاء «الثلاثية» . وقال نجيب محفوظ انه حين ذهب المجتمع القديم ذهبت معه كل رغبة في نفسه لنقده ، واعلن انه لم يعد لديه ما يقوله أو يكتبه ، وظل على هذه الحال من عام ١٩٥٢ الى ١٩٥٧ « لم أكتب كلمة واحدة ، ولم تنبعث في نفسي رغبة في الكتابة ، وكنت أعتبر المسألة منتهية تماما حتى وجدتني أكتب « أولاد حارتنا » وأنشرها سنة ١٩٥٩ » . جاءت أولاد حارتنا اذن بعد مرحلة انتهى فيها نجيب محفوظ من المرحلة الواقعية التي استغرقت كثيرا من كتاباته ، وانتهى معها اهتمامه الواقعي بمشاكل المجتمع ونقده ، وأصبح يسعى نحو مدى أوسع وأكثر رحابة ، فجاءت روايته التالية تجديدا شاملا في كل من الشكل البنائي الذي تقوم عليه ، والمضمون أو الخلفية الفلسفية التي تكمن وراءه . فمن الناحية الاولى ، اتجه المؤلف الى الشكل الاليجوري الذي يخط الاحداث على نهج معين سابق ، هو نهج تاريخ الرسالات الالهية الثلاث ، وهذا ما سنبحثه بالتفصيل فيما بعد .

أما من الناحية الثانية ، فتعتبر الرواية التعبير التام لنجيب محفوظ عن مأساة الوجود الانساني كما أراد أن يسجلها . ولقد ترددت هذه الرؤيا العامة لدى المؤلف كثيرا في بعض رواياته السابقة كالثلاثية مثلا ، ولكنها لم تستبن في رواية ولم تشغل بها تماما الا في « أولاد حارتنا » . تلك الرؤيا التي تقوم عليها الرواية هي مشكلة الشر في الوجود والوضع الانساني في هذه الدنيا . وربما كان هذا الاساس الذي فجر منه محفوظ هذه الرؤيا هو سبب تحرج الجميع من الكتابة عنها وتحرجهم من نشرها مرة أخرى في كتاب .

ولقد شغلت هذه المشكلة بال المفكرين والفلاسفة والادباء جميعا منذ بدء ظهور التفكير الديني ، ومنذ بدأ المفكرون يتفلسفون ومنذ بدأ الادباء والفنانون يعبرون عن ذواتهم . فدائما ما تنشأ مشكلة من التعارض الواضح بين النظرية والواقع ، والمشكلة الدينية ليست استثناء من هذا . وفي مشكلة الشر ، يكون التعارض هنا بين ايماننا بالاله ـ العلة الاولى ـ وبين واقع التجربة ، بين ايماننا باله هو الحب كل الحب والقدرة كل القدرة ، وبين سيادة الشر وعلو طالعه في الدنيا التي خلقها هذا الاله . ولو اننا كنا ننظر الى الاله باعتبار أنه قوة عليا تسيطر سيطرة استبدادية وذات نزوات لا يمكن تعليلها ولا تفسيرها لما نشأت هناك مشكلة مثل هذا النوع على الاطلاق . ولكن ما دامت الصفات المتعلقة بالاله صفات أخلاقية وصفات قوة وبأس ، وما دمنا ننظر اليه باعتباره محبا للانسان وحاكما للكون ، لذلك تقفز امامنا المشكلة وتقف لنا وجها لوجه : اذا كانت الطيبة والقدرة الالهية صفتين ثابتتين ، لماذا يكون هناك شر اذن ؟ كما يتعين علينا أن نواجه المعضلة التي سبق أن أثارها أبيقور مرة أخرى : لو أن الاله يريد أن يمنع الشر ولكنه لا يستطيع يكون غير قادر ، ولو أنه يستطيع ولا يفعل ذلك فهو شرير ، ولو أن له كلا من القوة والقدرة ، فلماذا يكون هناك شر ؟ وسيادة الشر تمثل حالة ضد الايمان بقدرة الاله وطيبته ، وعلى هذا يجب أن يمر ايماننا بفترة التجريب . وان ما يجعل الشقاء والمعاناة في الدنيا اكثر احباطا ان معظمها ليس له معنى أو غرض ، وانها تتوزع دون أي مراعاة للقيمة الاخلاقية . ولقد اشتكى « توماس هكسلي » من ذلك بقوله : « اذا كان هناك قضية مستمدة من حقائق الحياة الانسانية اتفق عليها المفكرون في كل زمان ومكان فهي أن من ينتهك القواعد الاخلاقية ينجو دائما من العقاب الذي يستحقه ، ويزدهر حال الشرير بينما الصادق الورع يشحذ رزقه ، وتنزل خطايا الاباء على الابناء ، وتعاقب الطبيعة الجهول معاقبتها للخاطىء المتعمد ، والالاف من المخلوقات البريئة تقاسي من اجل جريمة غير مقصودة ارتكبها انسان واحد ... وعلى هذا فاذا حكمنا على الكون من وجهة النظر الاخلاقية فانه يبدو كونا فاسدا » . وهذه اللامبالاة في توزيع العقاب والثواب ـ وهو منشأ عقدة المشكلة في رواية أولاد حارتنا حين اختار الجبلاوي أدهم ليكون ناظر الوقف دون سبب ظاهر ـ هو الذي يظهر الاله بمظهر القسوة في معاملة الانسان . يقول جون ستيوارت ميل : « لو أن العدالة هي قانون كل الخلق ، وكان الخالق قادرا ، اذن لتوزع الشقاء والسعادة على الدنيا ، فيتساوى نصيب كل فرد فيها على حسب أعماله الطيبة والشريرة تماما ... ولا ينكر أحد أن الدنيا التي نعيش فيها تختلف عن ذلك تماما » .

أما حالة الانسان في هذه الدنيا التي يسودها الشر وتضطرم فيها مثل هذه المفارقات ، فأفضل تشبيه لها هو تلك اللوحة الوصفية التي وردت في كتاب « كليلة ودمنة » . يقول « برزويه » في ترجمته :

« فالتمست للانسان مثلا ، فاذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج الى بئر ، فتدلى فيها ، وتعلق بغصنين كانا على سمائها ، فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر . فاذا حيات اربع قد اخرجن رؤوسهن من اجحارهن ، ثم نظر فاذا في قاع البئر تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فياخذه ، فرفع بصره الى الغصنين فاذا في اصلهما جرذان اسود وابيض وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران ، فبينما هو في النظر لامره والاهتمام لنفسه ، اذ ابصر قريبا منه كوارة (خلية) فيها عسل نحل ، فذاق العسل ، فشغلته حلاوته والهته لذته عن الفكرة في شيء من امره وان يلتمس الخلاص لنفسه ، ولم يذكر ان رجليه على حيات اربع لا يدري متى يقع عليهن ، ولم يذكر ان الجرذين دائبان في قطع الغصنين ومتى انقطعا وقع على التنين . فلم يزل لاهيا غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك » (1) .

والنموذج الاعلى Archtypal Pattern للشر في الوجود والعبثية التي تقوم عليها الحياة وشقاء الانسان فيها هو كتاب ايوب . ويقص علينا هذا الكتاب كيف كان ايوب رجلا كاملا ومستقيما يتقي الله ويحيد عن الشر ، ورغم ذلك فقد ابتلاه الله بالشيطان فصب عليه من لعنته واحرق حرثه ونسله وخرب دياره واصابه بقرح رديء من باطن قدمه الى هامته . وكان جواب ايوب على هذه الاحداث التي لا يجد لها تفسيرا هو الجواب الذي يقدمه الدين وهو ان لله حكمة في تصريف شؤونه يقصر التصور الانساني عن ادراكها ، ولذلك فلا يجب ابدا ان يجرؤ احد على مناقشة اي شيء ياتي من عند السماء . وهذا المثل هو التعبير الكامل للشر الذي يصيب الانسان دون ذنب جناه وبغض النظر عن سلوكه وافعاله . ولكن هذه المشكلة مشكلة ازلية مستمرة ، وقد شغلت بال عديد من الادباء والمفكرين في العصر الحديث، وكان لكل منهم نظرة خاصة اليها وطريقة ذاتية في الاتجاه الذي يتخذه كل منهم نحوها . ولقد فجر دستويفسكي رأيه في هذه المشكلة في رواية « الاخوة كرامازوف » على وجه الخصوص . وفيها يعترف المفكر الروسي العظيم بوجود الشر في الدنيا بل وبسيادته وسيطرته عليها ، ولكنه يقبل وجود هذا الشر ويسلم بهذا الوجود ، ويقابله بضرورة ان يحب بنو الانسان بعضهم بعضا ويتعاطفوا في مواجهته . يقول « ايفان » في هذه الرواية : « انني اقبل الله واقبل حكمته ، وهدفه ، اللذين لا نعرف عنهما شيئا . انني اؤمن بالكلمة التي ينشدها الكون ويناضل من اجلها ... ويلوح انني اسير على الطريق المستقيم الان ... الا انني في النتيجة لا اقبل عالم الله » . ويحكي ايفان ان المسيح قد عاد الى الارض مرة ونزل في اشبيليه ، الا ان المفتش العام القى القبض عليه واودعه في السجن . ويناقش المفتش المسيح وهو في السجن في صعوبة تنفيذ الوصايا التي اوصى بها بني البشر ، لان مشاكل الانسان غير قابلة للحل ، ويهدده بانه سيضطر الى اعدامه . وفي مقابل هذا الموقف الذي يؤكد ان الشر لا حل له ، يميل اليه المسيح ويقبل شفتيه الشاحبتين ويقول له : « كلامك معقول وقوي ، الا ان حبي اعظم » .

كما تناول الفكر الوجودي الحديث المشكلة وعالجها في عديد من الاعمال الادبية التي تعبر عن اتجاهات معينة حيالها . تناولها « البير كامو » في روايته التي نال عليها جائزة نوبل للاداب « الطاعون » . و « الطاعون » من اولها الى اخرها بحث حول مشكلة الشر . وتتركز المناقشة الرئيسية عن هذه المشكلة في النصف الثاني من الرواية ، وخاصة في الفصل الذي يموت فيه الطفل البريء بالطاعون . والطاعون هذا هو رمز للشر الذي يكتسح العالم بدون مبرر (2) ، الشر الذي صوره المؤلف في الرواية بانه : « قطعة الخشب الهائلة التي تلف وتدور فوق المدينة تخبط خبط عشواء ، ثم ترتفع ثانية وقد لطختها الدماء وتستمر تبعثر الالم البشري من اجل بذر ينتهي بحصاد الحقيقة » (3) .

هذا الشر لا سبب له ، ولا يدرك احد من الذين يتلقون ضرباته مدى استحقاقهم له ، فهم « مقضي عليهم بسجن لا يمكن تصور مداه من اجل جريمة غير معروفة » (١٢٧) . ويوضح « كامو » ان الشر أعمى ، وأنه قد يأتي من اقرب الاصدقاء ، وكما صور في روايته « الغريب » أصدقاء البطل « ميرسو » يحاولون انقاذه من تهمة القتل بالشهادة في صفه اثناء محاكمته فيزيدون من التصاق التهمة ضده دون ان يقصدوا ذلك . يعود فيقول في « الطاعون » : « ان الشر الموجود في العالم يرجع كله تقريبا الى الجهل دائما ، وان طيبة النفس اذا لم تتوفر لها الاستنارة قد تؤدي الى نفس الاضرار التي تنتج عن الشر » (١٦٨) . وتتجلى عبثية العالم وسيادة الشر فيه ولامعقولية هذا الشر في المشهد الذي يصيب الطاعون فيه طفلا صغيرا بريئا ويموت به . وفي ثنايا الاوصاف المرهفة والتفاصيل الدقيقة التي رسم بها « كامو » هذا المشهد تأكيد لهذه العبثية وتلك اللامعقولية . يقول المؤلف عن « تارو » و « ريو » بطلي الرواية ، و « ريو » هذا هو الراوي ويقوم مقام « كامو » نفسه : « لقد شاهدا من قبل اطفالا يموتون ، فان الهول الذي بدا منذ اشهر لم يكن يتعب نفسه في الاختيار ، ولكن لم يحدث قط لهما ان تتبعا آلام الضحايا دقيقة بدقيقة كما يفعلان الان منذ الصباح . ولا شك ان الالام التي صبتها الاقدار على هؤلاء الابرياء لم تكف يوما عن الظهور في اذهانهم بمظهرها الحقيقي، أي على انها فضيحة . ولكنهما — حتى الان على الاقل — كانا يشعران بتلك الفضيحة بصورة تجريدية على نحو ما ، لانهما لم يكونا قد رأيا ابدا عن قرب ولمدة طويلة احتضار احد الابرياء . وفي تلك اللحظة اخذ الطفل يتلوى من جديد ، كما لو كانت افعى قد عضته في معدته ، وراح يئن أنينا خافتا . وظل هكذا ثواني عديدة ، غائر الجسم فريسة للرعشة والاهتزازات التشنجية كما لو كان هيكله الواهي ينحني تحت ضغط ريح الطاعون العاتية وينحطم تحت نوبات الحمى المتكررة . وانتهت تلك الازمة ، وبدأ الطفل يسترخي قليلا ، وبدا ان موجة الحمى قد انسحبت وتركته يلهث على شاطىء رطب مسمم قد تشابهت فيه الراحة والموت ، ولما عاودته موجة الحمى من جديد للمرة الثالثة وبعثت في جسمه شيئا من الاضطراب ، كور الطفل جسمه وتراجع الى نهاية الفراش وسط آلام اللهب الذي يحرقه . وأخذ يهز رأسه في جنون وهو يقذف بغطائه بعيدا عنه وتدفقت الدموع الغزيرة من بين جفونه الملتهبة ، واخذت تسيل على وجهه الجامد . وفي نهاية الازمة ، كانت قد خارت كل قواه ، فضم ساقيه اللتين برز العظم منهما وذراعيه اللتين ذاب ما عليهما من لحم خلال هذه الساعات الثماني والاربعين . وبدا وسط سريره المخرب كما لو كان مصلوبا غريب الشكل » (٢٧٢ — ٢٧٣) .

ويشابه هذا الوصف المعجز لحالة الطفل البريء الذي يعاني من اثار المرض المخيف وصف معاناة المسيح على الصليب ، ودق مسامير الصلب في يديه وقدميه وتركه يتعذب فوق تل الجلجلة .

ويقول الطبيب ريو عن الطفل : « اذا قدر له ان يموت ، فانه سيكون قد عانى من العذاب اكثر مما عانى غيره » (٢٧٤) . ويموت الطفل فيلتفت ريو الى الاب « بانلو » الذي يمثل الدين ويقول له : « اما هذا على الاقل فانه كان بريئا ، وانت تعرف ذلك جيدا » (٢٧٧). وحين يقول له الاب : « اني افهمك جيدا ، ان هذا يدعو للثورة لانه يتجاوز ادراكنا ، ولكن قد يكون من الضروري ان نحب ما لا نستطيع فهمه » يرد عليه ريو : « لا أيها الاب ، ان فكرتي عن الحب بعيدة عن ذلك ، وسأظل حتى الممات ارفض ان احب هذا العالم الذي يلقى فيه بالاطفال تحت عجلات التعذيب » .

---

(1) ص ٩١ — ٩٢ كليلة ودمنة ، ترجمة عبد الله بن المقفع عن بيدبا الفيلسوف الهندي . طبعة مكتبة الهلال بالقاهرة .

(2) يقول المؤلف : « ولكن ما معنى هذا ؟ ما معنى الطاعون ؟ انها الحياة ، هذا كل ما في الامر » ص ٣٨٩ ، الطاعون ، ترجمة كوثر عبد السلام . طبعة عالم الكتب .

(3) المرجع السابق ، ص ١٢٣

ويأتي بعد ذلك الفصل مباشرة رد كامو المباشر على تلك المشكلة ، وهو نفي وجود الالهة . وقد عبر عن ذلك بالحيرة والشك اللذين انتابا « بانلو » رجل الدين بعد مشاهدته معاناة الطفل البريء ، فيرى انه اذا كان من العدل أن يصعق الرجل الماجن ، فليس هناك ما يبرر تعذيب الطفل ، وأنه ليس هناك على ظهر الارض ما هو أهم من تعذيب طفل ولا من الشفاعة التي يجرها وراءه هذا التعذيب او البحث عن المبررات التي سافت اليه . ومن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أن خلود احدى المتع يمكن أن يكون عوضا عن لحظة من عذاب البشرية ؟ كلا ، فسيبقى الاب وجها لوجه امام المشكلة وفاء لتلك المفارقة التي يعتبر الصليب رمزا لها ، سيبقى وجها لوجه أمام عذاب طفل . وبعد تلك الحيرة يمرض الاب بحمى غريبة ويرفض العلاج ويموت آخر الامر . ويحرص كامو على أن يبين أن الاب لم يمت من الطاعون المنتشر في أرجاء المدينة، ليثبت أن موته قد جاء نتيجة طبيعية لعجزه عن الاستمرار في الحياة مع كل هذه المظاهر التي تثبت تناقضا واضحا مع كل ما يؤمن به ويعتقد فيه . وهذا الموت هو رمز كامل لبطلان الاعتقاد في وجود الالهة ، أو هو الصيحة الجافية المنكرة التي أطلقها نيتشه قبل ذلك معلنا موت الالهة ، ورددها نجيب محفوظ بعد ذلك مع تغيير جوهري في النتيجة ، كما سنبين فيما بعد .

ولكن « كامو » ـ ككل مفكر أصيل ـ اذ هو يعترف بوجود الشر وغلبته على حياتنا ، لا يقف امامه مكتوف اليدين مستسلما ، بل هو يقدم اتجاهه ويوضحه في الرواية . واتجاه كامو نحو المشكلة هو الالتزام بكفاح الشر . يقول الراوي في الطاعون : « وقد دأب كثير من الهداة الجدد في مدينتنا يقولون أنه لم يعد هناك جدوى من أي شيء، وأنه ينبغي أن نجثو على أقدامنا . وكان « تارو » و «ريو» واصدقاؤهما يجيبون على ذلك بما شاءوا ، ولكن النتيجة كانت دائما ما قد عرفوه ، وهي أنه يجب علينا الكفاح بطريقة أو بأخرى ، ولا ينبغي أن نجثو على أقدامنا ، المهم هو حماية أكبر عدد ممكن من الناس من أن يموتوا ، ومن أن يذوقوا الفراق الابدي ، ولم يكن هناك سبيل الى هذا الا سبيل واحد ، وهو مكافحة الطاعون ، ولم تكن هذه حقيقة مرضية ولكنها منطقية » (١٧٠) . ويشترك كامو مع دستويفسكي في تقديم الحب والعاطف ليقفا في وجه الطاعون الذي يجتاح الدنيا ويغلف الانسان بلهيبه . ففي محادثة بين « رامبير » و « ريو » يقول الاول : ـ « اه ! لست أدري ما هي مهنتي على وجه التحديد ، وربما كنت مخطئا لانني اخترت الحب » . وواجهه ريو يقول بقوة : « ـ كلا ، لست مخطئا » (٢١٤) . كما يقول ريو بعد أن سأله تارو عما اذا كانت لديه فكرة عن الطريق الذي ينبغي اتباعه للوصول الى السلام « ـ نعم، انه التعاطف » (٣٢٤) .

وفنان عظيم اخر دارت معظم كتاباته على هذه المشكلة هو « ارنست همنغواي » . فاذا ما انتقلنا اليه نجد ان الحالة تختلف والنظرة تختلف . فهمنغواي ـ على نقيض كامو ـ لا ينكر وجود القوى السماوية ، ولكنه ينتهي الى نفس النهاية التي انتهى اليها ، ولكن تمرده على السماء لا ينتج عن أي نزوع عقلاني بل صدر عن الارادة التي رفضت الايمان به . ومع اعتراف همنغواي بوجود العلة الاولى للكون فانه يحدد موقفه منها بالنظر الى مشكلة الشر تلك ، فيقرر أن هذا الشر صادر عن الالهة . وقد اثار همنغواي اتجاهه هذا في روايته الشهيرة « وداع للسلاح » . ويتركز الشر عند همنغواي في الموت ، الموت الفجائي العنيف الذي يحيل الحياة الى عبثيه والوجود الى لاعقلانية مطلقة . وهو يصور لنا الحياة في هذه الرواية شرا لا طائل من ورائه ، فبعد أن جاهد بطلها « فردرك هنري » وناضل في سبيل الفوز بحياته الهانئة ممثلة في شخص حبيبته كاترين ، تموت بين يديه في لحظة وتذهب دون أن تترك وراءها شيئا ولا حتى وليدها ... أي بلا أي أمل في بعث جديد . والمهم هنا أن كاترين هذه تموت بلا سبب يدعو الى موتها على الاطلاق ، وهذا ما يوضح احساس همنغواي بمشكلة الشر ، وتساؤله ذلك السؤال الازلي : « ما سبب ذلك ؟ » .

يقول همنغواي في « وداع للسلاح » : « حين يواجه الناس العالم بقدر وافر من الشجاعة فان على العالم أن يقتلهم لكي يكسرهم. وهكذا فانه يقتلهم . ان العالم يكسر الناس جميعا ، وبعد ذلك ينشىء لكثير منهم في مواطن الكسر أنسجة عظمية جديدة . اما اولئك الذين يستعصون على الكسر فانه يقتلهم . انه يقتل ذوي الصلاح البالغ ، واللطف البالغ ، والبسالة البالغة على حد سواء . فاذا لم تكن واحدا من هؤلاء ففي ميسورك أن تثق أنه سوف يقتلك ، ولكن لن يكون ثمة أيما داع للعجلة » (٤) . ثم يحكي بطل القصة كيف أنه كان يوما في المعسكر يذكي النار بقطعة من الخشب ضخمة يغطيها النمل من كل أطرافها ، وما أن بدأت الخشبة تشتعل حتى اندفع النمل نحو المركز حيث كانت النار ، ثم ارتد على اعقابه نحو الطرف الاخر ، حتى اذا أصبح هذا الطرف مغطى كله بالنمل سافط في النار . وخرج بعضه من النيران وقد احترق جسده ونشوه ، ولكن الكثرة العظمى منه سقطت في النار . ولم يفعل البطل شيئا ، وكان أمامه أن يرفع قطعة الخشب وينظفها من النمل قبل أن يدفع بها الى النار ، وهذا هو السلوك الديني الحميد ، ولكنه لم يفعل الا أن قذف الخشبة بكوب من الماء لم يزد النمل الا احترافا وعذابا . والرمز ظاهر في تلك اللوحة الوصفية كلها ، أما الغامض فيها فشخصية البطل الذي افاد النقاد بعد ذلك أن المؤلف انما قصد به في هذا المشهد القوى العليا التي تتلذذ بعذابات البشر ولا تأبه لها .

ماذا اذن يقدم همنغواي أمام هذا الشر للقوى العليا ؟ انه يقدم ما يقدمه دائما في قصصه ورواياته ، يقدم مجالدة الانسان وعزمه وتحمله كل هذه الشرور والمصائب بصلابة وأمل ، هذه الصلابة والمجالدة التي تضفي على الانسان صفات تجعله يرتفع الى مصاف الالهة ذاتها وان يكن مغلوبا مهزوما . ومثله في هذا مثل العجوز الذي صارع قوى الشر في عرض المحيط ، ثم عاد بخفي حنين بعد أن تكالبت عليه قوى الشر وأفقدته رزقه كله ، ولكنه لا يتحطم بل يفكر في حياته المقبلة والاستعداد للخروج في غزوة صيد جديدة بعد أن يتجهز لها مرة أخرى . وشعار همنغواي في هذا الامر أنه قد يهزم الانسان ولكنه لا يتحطم أبدا . وهذه المجالدة الفريدة التي لا يحدها حدود والتي نبتت في الانسان نبتا جوهريا أصيلا هي التي تمنح الانسان قوة تمكنه من مجابهة الشرور بتعرية الحقائق وتفهمها .

كل هذه المقارنات تمهد وتوضح للموقف الذي اتخذه نجيب محفوظ من مشكلة الوجود الكبرى في روايته الفاصلة «أولاد حارتنا». فماذا يقول نجيب محفوظ اذن ؟ وما هو اتجاهه ؟

لقد عجز نقاد الرواية عن فهم المغزى الذي عناه المؤلف من وراء تصوير سقوط ابليس ثم زلة آدم ثم الحركات الدينية الثلاث وترتيبها الواحدة وراء الاخرى . ما هو الغرض من تقديم مثل هذا البناء ، من الانتفاضات الدينية التي حاولت أن تطهر النفوس الانسانية من الاوشاب التي غطتها والادران التي علقت بها ، ثم يعود الحال بعدها الى ما كان عليه ان لم يكن اسوا ؟ لماذا ركز المؤلف على دور الرسالات السماوية في هذا العالم ، وقدمها في تفصيلاتها الدقيقة ؟ الرد هو لتصوير حرب الخير ضد الشر ، حرب النور ضد الظلام ، حرب الحكمة ضد الجهالة . كان الاوان قد آن لمحفوظ في مرحلة رواية « أولاد حارتنا » أن ينعطف الى المجال الفلسفي ويفجر في رواية أو بالاحرى في « رؤيا فلسفية » المشكلة التي طالما ألمح اليها في رواياته السابقة وألح اليها في رواياته اللاحقة ، المشكلة الخالدة ، مشكلة الشر . وفي اعتقادي أن الوسيلة الكبرى المباشرة التي اعتمد عليها نجيب محفوظ في تبيان واظهار أبعاد المشكلة هي الشكل والتركيب البنائي للرواية . ولنتتبع ذلك في تفصيلات الرواية لنرى في كل سطر أقتبسه منها رأي المؤلف واتجاهه .

---

(٤) ص ٣٦١ ، وداع للسلاح ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت .

يفتتح الجزء الخاص بجبل (موسى) وحال الحارة بائسةوالبشر فيها على أسوأ الاحوال الممكنة . ويتساءل الراوي « كيف انتهى الامر بحارتنا الى هذه الحال ؟ » ويجيء الرد « لقد وعد الجبلاوي أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته . وشيدت الربوع ووزعت الخيرات وحظي الناس بفترة من العمر السعيد . ولما أغلق الاب أبوابه واعتزل الدنيا ، احتذى ناظر الوقف مثاله الطيب حينا ، ثم لعب الطمع بقلبه فنزع الى الاستئثار بالريع . بدأ بالمغالطة في الحساب والتقتير في الارزاق ثم قبض يده قبضا مطمئنا الى حماية فتوة الحارة الذي اشتراه . ولم يجد الناس بدا من ممارسة أحقر الاعمال وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا في البؤس والقذارة . وعمد الاقوياء الى الارهاب والضعفاء الى التسول ، والجميع الى المخدرات . كان الواحد يكد ويكدح نظير لقيمات يشاركه فيها فتوة ، لا بالشكر ، ولكن بالصفع والسب واللعن . الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع ، أما الاهالي فتحت الاقدام » (٥) .

هكذا بدأ الحال ، هكذا زرع الشر أول بذوره في الدنيا ، ثم نبتت وفرعت ، فضرب بأطنابه في كل مكان . ثم يصور المؤلف محاولات الاصلاح وتغيير هذا الشقاء والبؤس والشر الى خير وسعادة . فجاء « جبل » أولا يحاول تغيير الاوضاع وادخال الخير الـى النفوس واشاعة الروح الجديدة في الاحوال السائدة في أيامه . وكانت وسيلة جبل الى هذا التغيير تختلف اختلافا جوهريا عن وسائل من تبعه من المبشرين . كانت وسيلة جبل وسيلة مادية في جوهرها ، فقد التزم بالمجاهدة والمحاربة من أجل انتزاع حق عشيرته في الوقف ، كما كانت عدالته مبنية على العدالة المادية التي تصر على الانتقام للمظلوم مـن الظالم بمثل ما وقع على الاول من ظلم . وقد استعان جبل لتحقيـق بغيته بكل أنواع الحيلة والدهاء والقوة ، وهذا يتناسب مع ما أتى يبشر به قومه من نعيم وان يفيء عليهم من نصيبهم في ريع الوقف . ثم جاء رفاعة بعد أن ساء الحال بالناس مرة أخرى وعادوا الى سابق عهدهم ان لم يكن أسوأ ، ولكنه جاء بوسيلة أخرى مخالفة تماما لما جاء به جبل ، جاء برسالة الخير للناس أجمعين .. وكان جبل قـد قصره على عشيرته فقط فبسطها رفاعة للبشرية كلها ، وكان جبل يدعو لملكة الارض والتمتع بأموال الوقف ، فدعا رفاعة الى نبذ المال وبشر بملكوت السماء . وكان جبل يقول العين بالعين والسن بالسن، فقال رفاعة من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر .

جرب جبل « الارضية » علاجا أبديا لشرور الحياة ، فلم تجـد نفعا ، وجرب رفاعة الروحية علاجا لها ، فباءت هي الاخرى بالفشل . وحين جاء قاسم كان الحال قد عاد الى ما كان عليه من سوء ومـن اضطراب ، ومن تملك الناظر والفتوات للامور ، بينما يرزح البشر تحت أثقال الذل والنفاق والشر . جاء قاسم يحاول علاج داء البشرية المزمن ، وكان دواؤه مزيجا من وسيلتي جبل ورفاعة ، أخذ عن جبل الملكة الارضية فاوصى بها خيرا ، ونادى بما نادى به رفاعة مـن جنات النعيم في السماء للمتقين . واتخذ في سبيل تنفيذ ارائه بمبادىء الروح والارض فأوصى بالاخاء والتسامح ، ونصح بالتسلح والقـوة في مواجهة الاعداء . كان قاسم « التركيب » Synthesis الذي قال به هيجل ، وجاء التركيب القاسمي من « فضية » Fhesis جبل و « نقيضة » Anti Fhesis رفاعة . فهل أفاد ذلك في تحقيق الخير الاسمى ، وهل نجح كل هذا في جعل الارض صورة من السماء؟ وهل دام الحال على ما كان عليه ؟

في كل مرة ، كان الحال يعود أسوأ مما كان . فبعد النور الذي جاء به جبل ، يقول الراوي انه كان يمكن ان يستمر الخير على الارض، « لولا ان آفة حارتنا النسيان » . وآفة النسيان هـذه تسبب انتكاس كل مثل طيب . وحين كان الزمن زمن رفاعة حتى عاد كـل شيء شرا وسوءا ، ففي كل يد مخلب وفي كل لسان سم ، وفـي القلوب الخوف والضغائن ، اما الهواء النقي ففي خلاء المقطم او في البيت الكبير حيث ينعم الواقف بالسلام وحده » . (٢٢٨) وحين مات جبل جاء زنفـل ثم خنفس ، وعاد الناظر والفتوات الى التربع على العرش والى اضطهاد الاتباع وبخسهم حقوقهم كأنما لم يظهر من يسمى جبل ، او كما يقول المعلم شافعي ابو رفاعة : « ... الحقيقة ان جدنا في البيت اعتزل ، وان ناظر وقفه بريع الوقف استأثر ، الا ما يهب للفتوات نظير حمايته ، وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه في بطنه ، كأن جبل لـم يظهر في هذه الحارة ، وكأنه لم يأخذ عين صديقه دعبس بعين المسكين كعبلها » . (٢١٥) واستمرارية الشر يعترف بها الجبلاوي نفسه فـي لقائه مع رفاعة : « اما جبل فقد قام بمهمته وكان عند حسن الظن به ، ولكن الامور ارتدت الى اقبح مما كانت عليه » . (٢٤٧)

وحاول عرفة ان يعيد ايقاد شعلة الخير بين البشر ، وهو اذ ينجح في الحارة فانما يعني ذلك نجاح ارائه ومبادئه في الدنيا ، وقد «تمخضت المقابلة عن عهد جديد في الحارة ، فقد اعترف بالرفاعيين كحي جديد مثل حي جبل فيما له من حقوق وامتيازات ... وحظي رفاعة في موته بما لم يكن يحلم به في حياته من التكريم والاجلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها كل لسان وتتغنى بها الرباب » . (٣٠٤) واستبشر الناس بعد رفاعة خيرا ، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة ، وقالوا بثقة واطمئنان ان اليوم خير من الامس ، وان الغد خير من اليوم . ولكـن آفة هذه الحارة هي النسيان ، فقد ذهبت جهود رفاعـة ايضا ادراج الرياح ، وما ان حل عهد قاسم ـ ثالث الانبياء الداعين الـى الخير ـ حتى كان الشر قد اطبق بانيابه على الدنيا من جديد . وحين نتامـل افتتاحية جزء « قاسم » من الرواية ندرك كيف استغل نجيب محفوظ افتتاح كل جزء من اجزاء جبل ـ رفاعة ـ قاسم ـ عرفة بفقرة تبيـن سوء الحال مما يؤدي الى اقامة نظرية استمرارية الشر وازليته فـي الاذهان . ففي ايام قاسم « لم يكد يتغير شيء في الحارة . الاقدام مـا

(٥) ص ١١٦ ـ ١١٧ ، « أولاد حارتنا » ، منشورات دار الاداب، بيروت ، ١٩٦٧ .

زالت عارية تطبع آثارها الغليظة على التراب والذباب ما زال يلهو بين الزبالة والاعين . والوجوه ما زالت ذابلة مهزولة ، والثياب مرقعة ، والسنانم تتبادل كالتحيات ، والنفاق يصم الاذان » . (٣٠٩) وقاسم ذاته ، ناجى نفسه وعرف بسيادة الشر ، ورأى في خطراته كيف كانت نهاية الطيبين من اهل الحارة مؤسفة دائما . وحاول قاسم في ايامه ان يصد تيار الشر ويزرع الخير حتى قال كثيرون من اولاد حارتنا ان الحارة قد آن لها ان تبرأ الان من آفة النسيان ، وانها ستبرأ منها الى الابد . وهذا الاعتقاد هو المعادل الايديولوجي او هو الرمزي لحقيقة ان النبي محمد هو خاتم الرسل والانبياء .

هكذا يصور لنا نجيب محفوظ صراع البشرية ضد الشر طوال هذه العصور ، منذ جبل حتى قاسم ، وفي كل مرة كان ينهزم الانسان ويسود الشر ويعود الحال لما كان عليه سابقا . والشر هنا كان دائما ينحصر في الانسان وفي علاقاته وفي عاداته ونظمه الاجتماعية ، فان ما كان يسبب العودة الى الاحوال السيئة دائما هو نفوس الناس وتطلعاتها ثم سيطرة بعض منها على بعض واستئثارها بالسلطة وبالتحكم مما يجعلها في موقف يسمح لها بان تضطهد الاخرين وتسلب حقوقهم . وهذا الشر شر انساني يتعلق بالطبيعة البشرية ويرجع الفرد الى التحكم والى الاستئثار من الاموال . ولكن هذا الشر الارضي – ان صح هذا التعبير – ان هو الا نموذج مصغر لمثال اكبر ، مثال الشر الميتافيزيقي ، الشر الازلي المتاصل في اساس الوجود . وقد اظهر نجيب محفوظ هذا الجانب من الشر في الصمت الذي يغطي العلة الاولى . لقد عرف المؤلف بوجود الالهة ، باعترافه بوجود الجبلاوي ، ولكنه حدد موقفه منها في عبارات وفي مواقف كثيرة في الرواية . يقول الراوي « اليس من المحزن ان يكون لنا جد مثل هذا الجد دون ان نراه او يرانا ؟ اليس من الغريب ان يختفي هو في هذا البيت الكبير المغلق وان نعيش نحن في التراب » . (٦) ثم هناك موقف الازلة الاولى في التاريخ ، وهي ما نتج عنها الشر وانبجس منها ابليس . وهذه الزلة قد سببها الجبلاوي نفسه باختيار ابنه ادهم ليدير الوقف نيابة عنه . وهو قد اختار ادهم وقدمه على الابن الاكبر ادريس – دون اي سبب ظاهر مفهوم . وتلخص عبارات : « يقول في عدم اكتراث » و « قاطعه الاب ببرود » التي يتردد ذكرها في وصف الجبلاوي في هذا الموقف ، اتجاه نجيب محفوظ من شعوره بجبروت الاب وسيطرته ومشيئته ، خاصة اذا علمنا ان المؤلف يستخدم « السطوة والبرجل » في كتابة عبارات مؤلفاته . وسوف يتضح هذا الاتجاه من الاوصاف التالية لجبلاوي التي نأتي ان نتبعها بعضها وراء البعض لترسم المعنى الكامل لهذا والمقصود منها دون تعليق ، فهي ابلغ من اي تعليق . يقول الراوي عنه حين يخشع ادهم لاوامر الجبلاوي : « انه على جبروته كان يستخفه طرب الثناء » . (١٨) ويجول في ذهن ادهم عن ابيه « لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك احب اليك من لحمك ودمك ؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وانت تعلم اننا نداس بالاقدام كالحشرات ؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك ؟ » (٥٥) ويردد ادهم قوله : « وهذا الاب الجبار كيف السبيل الى استعطافه لينى » (٥٩) ويعمد أدريس الى اغاظته فيقول له « وان اباك ليسمع الصراخ كما سمعه ولكنه عاود النوم كمن لا قلب له » . (٦٦) ويفتح الابناء عيونهم على الحقيقة الرهيبة ، فيقول همام لقدري : « ان اباننا يكدح وراء عربته وامنا تكد طوال النهار وشطرا من الليل ، ونحن نعاشر الاغنام حفاة شبه عراة ، اما هو (الجبلاوي) فقابع وراء الاسوار ، بلا قلب ، متمتع بنعيم لا يخطر على بال » . (٧٠) ويتحير جبل هو الاخر من هذا الصمت : « وحارتنا لم تعرف يوما العدالة او السلام . هذا ما قضى به عليها منذ طرد ادهم واميمة من البيت الكبير ، الا تعلم بذلك يا جبلاوي ؟ ويبدو ان الظلم ستشتد كثافة ظلماته كلما طال بك السكوت فحتى متى تسكت يا جبلاوي ؟ الرجال سجناء في البيوت والنساء يتعرضن في الحارة لكل سخرية ، وانا أمضغ المهانة من صمت » . (١٢٦)

ويسأل « حمدان » « جبل » بعد لقائه الاخير مع جبلاوي : « ألم تسأله عما يمنعه من اجراء العدل بنفسه ؟ أو عما جعله يعهد بالنظارة الى قوم لا يحسنون القيام على حقوق الناس ؟ » (١٧٩) وتقول عبدة زوجة المعلم شافعي أبي رفاعة انه في هذا البيت « جدك صاحب هذه الارض بما عليها ، الخير خيره والفضل فضله ، ولولا عزلته لملأ الحارة نورا » . (٢١٨) وحين يقول جواد لرفاعة عن الجبلاوي : والله لسو فتح ابوابه ما بقي احد من اهل حارتنا في داره القذرة » ، تقول « ام بخاطرنا » . « لنفعل مثله ، فانه لا ينشغل بنا نفسه » . (٢٢٠ – ٢٢١) ويقول رفاعة نفسه : « اين أنت يا جدي ؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة ! لماذا لا تخرج ولا مرة ؟ لماذا لا تحطم ولو كلمة ؟ الا تدري ان كلمة منك تغير حارتنا من حال الى حال ؟ ام يرضيك ما يجري بها ؟ » (٢٢٤) ويستبين هذا الاتجاه تمام الاستبانة من مشهد مقتل رفاعة : « ومضى حندرسه نحو الخلاء بحذاء سور البيت الكبير فرفع رفاعة عينيه الى البيت الذي رآه مظلما كالسماء . وظلت عينا رفاعة مرفوعتين نحو البيت . ترى هل يدري جده بحاله ؟ ان كلمة منه تستطيع ان تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيدهم . انه قادر على ان يسمعهم صوته كما اسمعه اياه في هذا المكان » . (١٦٤) ولكن القساة يقتلون رفاعة ليسمع القارئ صدى الصوت المنطلق بالهتاف من اعماقه « يا جبلاوي » كما صاح المسيح على الصليب : « الهي ، الهي ، لماذا تركتني » !!

وقاسم هو الاخر يقول له زوجته حين يخبرها ان الجبلاوي قد اختصه برسالته . « ولماذا لا يحقق ارادته بنفسه وهو صاحب الوقت وسيد الجميع ؟ » (٣٥٥) وهو نفسه : « مد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير ، بيت الجبلاوي ، الغارق في صمته كأنه لا يبالي بصراع الابناء من اجله » (٤٢٦) وفي ايام عرفة كذلك يظل هذا الاتجاه سائدا ، فيقول « سعرون » . « يا جبلاوي ، حتى متى تلزم الصمت والاختفاء . وصاياك مهملة واموالك مضيعة ، انت في الواقع تسرق كما يسرق احفادك يا جبلاوي ... يا جبلاوي الا تسمعني ؟ الا تدري بما حل بنا ؟ لماذا عاقبت ادريس وكان خيرا الف مرة من فتوات حارتنا ؟ يا جبلاوي ! » (٤٧٥) ويقول عرفة هو الاخر : « هل سمعت عن احفاد منتنا لا يرون جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق ؟ وهل سمعت عن واقف يعبث لمابنون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا ؟! » (٢٤٢)

مما تقدم يمكن أن نستخلص بوضوح الاتجاه الذي يقفه الراوي من مشكلة العلة الاولى . ان ما يحيره اكثر ليس الشر الذي قد يكمن فيها ، ولكنه الصمت . انه يعرف بوجود الالهة – خلافا لألبير كامو – كما انه لا يعرف كومنفوي بأن الشر هو السماء ، وانما هو الصمت التام الذي يثير لديه التساؤل . واتجاهه من موقف علاقة الشر بالالهة هو موقف اللاادرية ، وهو يذكرنا بما ذهب اليه ابيقور الفيلسوف اليوناني حين يذكر أن الالهة موجودة لا شك في ذلك ، غير أنها قد انشغلت عن البشر باعمالها الخاصة ولم تعد تأبه لهم ولا تعيرهم أي التفات ، منهمكة في سعادتها الخاصة .

واضح اذن أن الدين في رأي نجيب محفوظ لم ينجح في مداواة امراض البشر وفي التقليل من وطأة الشر في دنيانا الارضية . لقد تعاقب على الدنيا ثلاث من الرسل السماويين يحاول كل منهم بطريقته ان يقدم الدواء ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثا وطارت مع الرياح . وآية هذا الفشل التام واضحة في افتتاحية الجزء الرابع من الرواية بعنوان « عرفة » ، اذ نجد انه بعد جبل ورفاعة وقاسم ، عاد الحال كما هو لم يتغير . وبعد ان قال كثيرون في عهد قاسم ان حارتنا قد آن لها ان تبرأ من آفتها ، نجد في افتتاحية « عرفة » ان « المتأمل لحال حارتنا لا يصدق ما تقول الرباب في المقهوات . من جبل ومن رفاعة ومن قاسم ؟! واين الاثار التي تدل عليهم خارج نطاق القهوات ؟ اما العين فلا ترى الا حارة غارقة في الظلمات وربابا سفنى بالاحلام . وكيف آل بنا الامر الى هذه الحال ؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع ؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء

الفتوات المجانين ؟ »» (٤٤٧)

عاد الحال كما كان اذن ، وفشل الدين في احلال الخير والسعادة على الارض ، «« اما أهل الحارة فانقلبوا الى ما كانوا عليه في الزمان الاسود ، بلا كرامة ولا سيادة ، تنهكهم الفاقة وتتهددهم النبابيت وتنهال عليهم الصفعات . وانتشرت القذارة والذباب والقمل ، وكثر المتسولون والمتعوذون وذوو العاهات . ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم الا اسماء واغاني ينشدها شعراء المقاهي المسطولون »» . (٤٤٨)

واذا كان الدين قد فشل في هذا المجال ، فما الحل اذن ؟ ماذا يقول المؤلف في ذلك ؟ ان اجابته على هذا السؤال تكمن في الجزء الاخير من الروايه ، المعنون «« عرفه »» . الحل الذي قدمه هو شخصيه عرفه ، المعرفه ، العلم . العلم هو الحل الذي يقدمه نجيب محفوظ علاجا لمشكله البشريه الازليه واحلالا للخير على هذه الارض وعلى بني البشر . عرفه اذن هو الحل ، عرفه ابن التنجيم والسحر الذي ابتدى لا يعرف له اب ، انبثق ونبع من لدى حي الرفاعيين (اشارة الى ان العالم المسيحي هو الذي قام بصياغة العلم الحديث وتطويره) رغم ان الاحياء الاخرى تنازع انتسابه اليها . وقيمه هذا العلم تبدى في قول رفاعه عن حجرته التي احالها الى معمل علمي : «« ان اي معمل ممن يحسبون انفسهم معلمين في هذه الحارة لا يستطيع ان يدرك خطوره الاشياء التي تصنع في هذه الحجرة المعتمة القذرة ذات الروائح الغريبة ... ان اعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجره ، المجانين لا يدركون قيمة عرفه الحقيقيه ، لعلهم يعرفونها يوما ما ، وعند ذاك يجب ان يترحموا على امي لا ان يعرضوا بها كما يفعلون »» . (٤٦١)

هذا العلم هو الذي سيتمكن يوما من القضاء على الفتوات انفسهم وتشييد المباني وتوفير الرزق لكافه اولاد الحارة . ورأى العلم في الدنيا والدين معروف . يقول عرفة عن دنيانا الارضية : «« هذه الحارة المغرورة الجاهلة ! ماذا تدري من الامر ؟ لا شيء ، ليس لديها الا الحكايات والرباب ، وهيهات ان تعمل بما تسمع ، ويظنون حارتنا قلب الدنيا ، وما هي الا ماوى البلطجية والمتسولين ، وكانت في البدء مرتعا قفرا للحشرات »» . (٤٩٧) ان هذه الفكرة الكوبرنيكية الداروينية عن الدنيا والارض من «« التيمات »» الدائمة التي تتردد في فكر نجيب محفوظ وتجد صدى دائما في معظم كتاباته ، بالاضافة الى انه يصرح كثيرا بانه قد تاثر بداروين وبكتابات سلامة موسى عن نظرية التطور . وكمال عبد الجواد نفسه (وهو يمثل صورة من نجيب محفوظ) قد اصطبغ تفكيره بالنظريات العلمية اصطباغا تاما ، واصبح يرى الدنيا من خلال منظار العلم والتطور . وتذكرنا عبارة عرفة السابق اقتباسها بعبارة كمال عبد الجواد الاكثر صراحة ووضوحا عن موقف الدين والعلم: «« وعن الصفوة المختارة من ابناء السماء فقد رفعوا الارض الى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء اخوهم كوبرنيكس فانزل الارض بحيث أنزلها جارية صغيرة للشمس ، ثم تلاه اخوه «« داروين »» فهتك سر الامير الزائف واعلن على الملأ ان اباه الحقيقي هو حبيس قفص ، الذي يدعو للتفرج عليه في الاعياد والمواسم »» . (٦)

ولكن نجيب محفوظ لا يكتفي باحلال العلم محل الدين هكذا ببساطة ، ولكنه اذ يقدم لنا العلم انما يصبغه بصبغة خاصة تتفق ورؤياه الفلسفية الخاصة ، محملا اياه معاني مختلفة كثيفة متشابكة . وهذه المعاني والرموز التي قصدها المؤلف هي ما جعلت من شخصية عرفة شخصية غامضة مغرقة في الغموض تحار الاذهان في تفسيرها واستيعابها . ولا عجب في هذا ، فالجزء الخاص بعرفة هو القاعدة التي ترتكز عليها الرواية والمسمار الذي يربط بين اجزائها والقسم الذي يخلع معنى وترابطا على ما سبقه من الاقسام . واذ المؤلف يريد ان يقدم لنا هذه الشخصية كما يريدها ان تكون ، فانه يدخلها في تجاريب عديدة توضح لنا جوهرها في النهاية . فعرفة يتسبب في قتل الجبلاوي ، العلم قد قتل الالهة ، مثلما قتلهم كوبرنيكس وداروين ، الاول بهدم نظرية ألوهية الارض والثاني بهدم نظرية الخلق الانساني . ولكن المؤلف يقدم لنا جوهر نظريته الاصيلة هنا ، فان العلم لم يكن يهدف الى قتل الدين او الالهة ، بل انه لا يمكنه القيام وحده دون وجود الالهة ! هذا ما يقوله المؤلف صراحة حين يذكر ان هدف عرفة لم يكن قتل الجبلاوي ، وانما هو قد اقتحم عليه مركز سلطانه لكي يستكشف ويحل طلاسم وجوده والغازه ، كما يقوله حين يصور مدى جزع عرفه وفزعه عندما يدرك انه هو المتسبب في وفاة الجبلاوي . وعند ذلك تتبين حقيقة النظرية التي يلملم المؤلف اطرافها لتتضح في النهاية متكاملة متناسقة . انه يقول ان العلم وحده لا يمكن أن يعيننا وان ينجح في حل مشكلات البشر ، بل لا بد أن يكون مستندا الى دعامة رفاعة فور علمه بتسببه في وفاة الجبلاوي في العمل على رد الحياة اليه .

وبعد وفاة الجبلاوي ، يتردى عرفة الى المكان الذي تردى فيه العلم في العصر الحديث الذي امتلأ بالشك والالحاد والايمان بالعلم وحده دون اي قوى روحيه او اي معتقدات معنوية اخرى . فعرفه بعد ذلك قد اصبح ذيلا لناظر الوقف «« قدري »» ، وعمل تحت امرته وطوع بنانه ، اي ان العلم بدلا من أن يبني الخير والسلام على الارض ولبني البشر ، اصبح سلاحا في يد الحكام الطغاة يرهبون به الضعفاء ويمكنون لانفسهم في الارض . واصبح العلم يستخدم في سبيل الشر ، في سبيل انزال الاذى بالبشر ، وافضل مثل على ذلك هو اختراع الاسلحة النووية المهلكه ، والتي يقابلها في الرواية اختراع الزجاجات التي اصبحت في يد الناظر سلاحا ارهابيا يرهب به اهل الحارة بل ويرهب به عرفه نفسه . ولا يمكن للعلم الذي سيبني الحياة ويرسي دعائم الخير في الارض ان يستمر هكذا أداة للشر والدمار ، لذلك فهو لن يكون بذي فائدة في هذا المضمار والحالة هذه ، ولذلك فانه يموت هو الاخر . ان العلم الذي لا يضع نفسه في خدمة الانسان ورفاهيته يدمر نفسه بنفسه ولا يكون له من وجود . وهكذا يقتل اعوان الناظر «« عرفة »» وزوجته ويلقيان مصرعهما . وان طريقة قتلهما لتدل دلالة بالغة على ان العلم الذي لا يحسن استخدامه يكون قد دفن وأهيل عليه التراب حتى لو نجح في اختراع الات التدمير والخراب .

أي علم اذن يريده نجيب محفوظ ؟ انه يذكر ان عرفة قد لاقى نفهما كاملا بعد وفاته وان اعوانه قد بشروا به منقذا للبشرية ، فاكبر اهل الحارة ذكراه ورفعوا اسمه حتى فوق اسماء جبل ورفاعة وقاسم. عرفة هذا هو عرفة الذي ندم على وفاة الجبلاوي ، وكان يعمل على رد الحياة اليه ، عرفة الذي ادرك بشاعة خدمته للناظر واستمراره في استخدام نفيسة في يد قوى الشر . عرفة الذي اصبح مقترنا في اذهان اولاد الحارة بعد ذلك بالسلام والخير . أي علم يريده اذن نجيب محفوظ ويبشر به ؟ انه العلم المتحد بالقيم والمعتقدات المعنوية . وهكذا يصرح نجيب محفوظ عن رؤياه الفلسفية التي طالما ترددت هي الاخرى في اعماله ، اتحاد العلم والدين ، الجسد والروح ، المادة والروح . الدين وحده لا يجدي ، والعلم الذي يقتل الدين والروح ينقلب على نفسه ولا ينجم عنه الا الدمار والخسارة . وحل المشكلة هو في التوافق والانسجام بين العنصرين ، وتوافق الالوان واتساقها في قوس قزح متكامل يندمج فيه العلم والروح في تناسق يؤدي الى السلام والخير ، وهو الحل الوحيد امام البشرية ، اذ لا سعادة في الاغراق في المادة ، ولا تكامل في الاغراق في المعنويات . وهكذا يدين محفوظ ايا من الاتجاهين وحده ، ويبشر بوحدة تجمعهما معا ، وهذه الوحدة هي التي ينتظرها اولاد حارتنا ، وهي لا بد منبثقة اخر الامر .

ولقد استحدث نجيب محفوظ بهذه الرواية شكلا ادبيا قديما لا وجود له في ادبنا الحديث ، ولا اعتقد انه سيكون له وجود بعد ذلك الا فيما ندر من اعمال . هذا الشكل هو الاليجورية ، وهو الوصف الوحيد الذي يمكن اطلاقه عليها بحق ، فقد أخطأ من وصفها بالرواية التاريخية او الاسطورية أو الرمزية ، فهذه كلها اشكال بعيدة عن واقع

(٦) قصر الشوق فصل ٤٠ ص ٤٢٩ .

الشكل الفني لاولاد حارتنا . والاليجورية هي العمل الادبي الابداعي الذي تنقل سطوره معنى اخر يتجاوز معناها الحرفي. وتتميز الاليجورية عن الرمزية بأنها اشمل من الاخيرة وتتمشى في كل ثنايا العمل الادبي وفي شكله البنائي ، اما الرمزية فهي تتحقق في وصف يقابل وصفا اخر او في موقف يقصد به موقف اخر ، ولا تكون في بناء كامل جميعه . وتتميز الاليجورية عن الاستعاره Metaphor بانها اطول تشعبا وتتحقق في التفاصيل الدقيقة . وافضل مثال على الاليجورية في الادب العربي هو كتاب « كليلة ودمنة » الذي عربه « ابن المقفع » والفه بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة لدبشليم ملك الهند وجعله على السنة البهائم والطيور صيانة لغرضه فيه من العوام وضنا بما ضمنه عن الطغام ، وتنزيها للحكمة وفنونها ، ومحاسنها وعيوبها .

لذلك فقد نبه المؤلف القارىء الى ما يلزم مطالعه من اتقان قراءته والقيام بدراسته والنظر الى باطن كلامه ، وانه ان لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه . اما اشهر اليجوريات الادب العالمي فهي رواية « مسيرة الحاج » . Pilgrims Progress « لجون بنيان » الانجليزي ، الذي صور فيها البطل كريستيان يحمل وزرا على ظهره وهو يسعى خارجا من مدينة تسمى الدمار قاصدا المدينة المقدسة ، وهو يلقى في طريقه من المصاعب والعقبات الشيء الكثير ، ولكن هذا لا يثبط من همته ولا يجعله يحيد عن هدفه حتى يصل اليه اخر الامر . والمدينة في هذه القصة هي الدنيا ، والوزر هو الخطيئة والمدينة المقدسة هي السماء التي تغفر الذنوب والخطايا . وهكذا الحال في كل الاليجوريات المعروفة ، فهي تكون ذات ظاهر معروف وباطن خفي يحتاج الى تفسير . ولكن هذا التفسير لا يكون بعسير على الافهام ، بل هو في متناول كل قارىء بما فيه من تطابق والتزام مع الفكرة التي يكتب المؤلف حولها .

ولكن اليجورية نجيب محفوظ تختلف اختلافا بينا عن هذه الاليجوريات السابقة في انها لم تنسج احداثا من وحي الخيال ، انما سارت في احداثها وفق احداث تاريخية دينية معروفة والتزمت بها حتى في التفاصيل الدقيقة . وهذا النسج القصصي على منوال سابق سبق ان انتهجه روائي انجليزي شهير هو جيمس جويس في روايته « عولس » Ulysses (٧) حين كتبها على منوال « الاوديسة » لهوميروس اليوناني ، فجعل كل فصل فيها يطابق فصلا اخر ورد في الاوديسة ، وكل حادثة تشير الى حادثة اخرى في النموذج الاعلى . ولقد قصد جويس في بنائه روايته على هذا المنوال عدة اهداف ، منها ان يقدم رؤيا جديدة للعالم الحديث والانسان الحديث ، فهو حين يصور الاشياء والاحوال في عصرنا على نفس النمط الاوديسي ، يقدم لنا رؤياه عن اختلاف القيم والاهداف في هذا العصر عن العصر اليوناني القديم ، ويحمل احداث وشخصيات الرواية معاني ونظرات اشمل واعمق . فبطل الاوديسة عولس العظيم ذو الامجاد والفتوحات انقلب في رواية جويس الى ليوبولد بلوم اليهودي الضعيف الذي تخونه زوجته ولا يستطيع حيالها شيئا ، و « بنلوبي » الزوجة الوفية المخلصة في الاوديسة صارت « ماريون » الشهوانية التي تخون زوجها بمناسبة وبدون مناسبة . وهذا التزاوج في النظيرة هو ما يعطي « عولس » جويس قوتها وروعتها ويضفي عليها الاهمية البنائية والتكنكية التي اكتسبتها .

رأينا هنا مدى اهمية وضرورة مثل هذا البناء بالنسبة لرواية جويس ، فماذا كان هدف ونتيجة هذا التكنيك الذي اتبعه محفوظ ؟

الحقيقة ان بناء نجيب محفوظ لروايته على نسق الاديان السماوية الثلاثة قد ادى الى جمود في الاحداث وتحجر في الشخصيات ، فقد تقيد المؤلف تماما بسير التاريخ وبما يرويه عن الشخصيات ، فلم يضف من رؤياه ومن ابتكاره على أي حادثة او على اي شخصية بما يمكنه من اثارة معنى جديد أو تحميل هذه الاحداث والشخصيات باتجاه جديد يخلع اصالة عليها . وربما كان تناوله لشخصيات دينية مقدسة هو ما جعله يحرص كل الحرص على عدم المساس بجوهرها . ولكن هذا الجمود الذي اتصفت به الاحداث والشخصيات يعوضه الفصل الاخير عن عرفة الساحر ـ العلم الحديث ـ اذ هو قد حمله ببذور فكرية تنسحب جملة وتفصيلا على كل كلمة خطها قلمه في الفصول السابقة من الرواية . على القارىء اذن لكي يدرك الفن البنائي الفريد في أولاد حارتنا ان يتناول الفصول السابقة على الفصل الاخير كمجموعة واحدة ، يقابلها بعد ذلك فصل عرفة ، ليدرك الماهية الفلسفية التي قصدها المؤلف واخضع البناء والتنسيج الروائي اخضاعا تاما لخدمتها ، وهي تلك الماهية التي اوضحناها سابقا عند الحديث عن المضمون الفلسفي للرواية .

والى جانب هذا البناء الفريد في اولاد حارتنا ، هناك الرمز المحكم البارع . والكلام عن الرمز في الرواية سيتيح الفرصة لاثبات بعض الفروض التي سلمنا بها في المقال ، وهذا هو السبب الذي سأسمح لنفسي من أجله ببعض الاستطراد عند الحديث عن رموز بعض الشخصيات المعينة . واول هذه الرموز شخصية الجبلاوي ، وهي اهم رمزيات الرواية ، واذا ثبت مقابلها الموضوعي ثبتت . بالتالي جميع الفروض المترتبة عليه . والجبلاوي انما يرمز للالهة ، فالى جانب المشهد المعروف في بداية الرواية من سقوط ادريس (وحتى الاسم على وزن الشخصية المقابلة لها ، ابليس) واصطفاء ادهم (آدم) ، ثم زلة ادهم واميمة وهبوطهما الى الحارة ، هناك تلك الاوصاف التي تذكر عن الجبلاوي . فماذا في هذه الاوصاف ؟ تعال مثلا نرى ما يذكره ابناء الجبلاوي في فاتحة الرواية عن ابيهم : « وما يقلقهم ألا انه جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وانهم حياله لا شيء » (١١) وادهم يقول عنه : « لاشيء يعادل شدة ابي الا رحمته » (٢٦) وهي كلها اوصاف لا تخلع الا على الالهة . ومن يشك في ذلك فليرجع الى لقاء جبل بالجبلاوي : « مضيت في نجوالي في ظلام دامس ، فحتى النجوم توارت وراء السحب ، وما ادري الا وانا اوشك ان اصطدم بشبح هائل ، توهمته اول الامر احد الفتوات ، ولكنه بدا لي شخصا ليس كمثله احد في حارتنا ولا في الناس جميعا ، طويلا عريضا كأنه جبل ، فامتلأت رهبة وهممت واذا به يقول بصوت عجيب : « قف يا جبل » (١٧٦) وهو يقول لجبل : « اني ارى في الظلام منذ اعتدت التجوال فيه قبل ان توجد الحارة » (١٧٨) والحارة هي الدنيا والاله وحده هو الذي كان قبل أن توجد الدنيا والكون كله ملك له . ويرد ذكر الجبلاوي أكثر من مرة باعتباره « ذلك الجبار الذي دان له الخلاء » ، ويقول قاسم عن حواره مع جواب الجبلاوي : « فسألته هل يدري (أي الجبلاوي) بما يجري في حارتنا ؟ فأجابه بانه يعلم كل شيء ، وبان المقيم في البيت الكبير يستطيع ان يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع في حارتنا » (٣٥٢) . ومن هو الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة الا الاله ؟!

ولعل افضل الصور الرمزية التي ابدع فيها المؤلف في رسمه لشخصية الجبلاوي الاله هي ذلك الوصف الذي يتردد دائما كالنغمة الغلابة Lei Fmotif في كل ما يتصل بمقام الجبلاوي ، وصف ينمي بالسلام والجلالة والرهبة والجمال ، وهي صفات تخلع كلها على الجبلاوي عند ذكره ، صفات السماء والجنان التي تحيط بالجبلاوي . فمثلا حين ذهب همام مع عم كريم بواب الجبلاوي الى المنزل الكبير ليلاقيه هناك ، يقول المؤلف : « تبع همام عم كريم فاجتازا المشى تحت عريشة الياسمين متجهين نحو السلاملك . بدا الليل في الحديقة شيئا جديدا ، لطيفا رطبا مترعا بنشوات الازهار والرياحين فانسكب بروعته في اعماق روحه . وامتلأ الشاب بشعور جلال وافتتان ، وحنين مودة عميقة للمكان ، وبأنه مقبل على أجل لحظات عمره » . (٨٦) وعند

(٧) يذكر نجيب محفوظ في حديث له مع « فؤاد دوارة » انه من الانجازات التي انمها في وقت فتوته قراءة « عولس » لجيمس جويس وشرحها الذي كتبه ستيوارت جلبرت . ومما لا شك فيه ان هذه الرواية قد اثرت تأثيرا عميقا على نجيب محفوظ .

لقاء ادهم بالجبلاوي يقول : « اقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصي على الادراك والتحديد » . (١١٠) وحين زحف عرفة في الفصل الاخير الى منزل الجبلاوي ليكتشف سره يقول : « وما زال في زحفه حتى برز رأسه من ارض الحديقة داخل البيت الكبير . استقبل انفه شذا عجيبا كأنه خلاصة خلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة في ندى الفجر » . (٤٩٠) ويمضي في قوله : « وبعد قليل شم رائحة بخور زكية افعمت قلبه قلقا وحزنا غريبا لم يدر له من سبب ولم يعد يشك أنه في مخدع الجبلاوي » . (٤٩٢)

وهذا التكرار في الوصف يؤدي الى خلق جو من الرمزية يغلف شخصية الجبلاوي بحيث لا يكاد يعادله جو اخر في روايات نجيب محفوظ كلها من حيث البراعة الفنية . وهناك ايضا براعة في رسم شخصيات جبل ورفاعة وقاسم ، وخلق المعادلات الايديجورية للاحداث التي وقعت للانبياء الثلاثة ، كجعل جبل يحترف مهنة الحواة ، اشارة الى حية موسى التي انطلقت تسعى . ورفاعة ايضا رسم بدقة بالغة ، فبكلمات قليلة يوحي المؤلف بعديد من الافكار التي ما كان ببالغ مراده من الايحاء بها الا بالاستطراد والاسهاب ، اولا مزية الاليجورية التي تجعل المؤلف يرسم على مثال سابق يساعده في بث الافكار التي يريدها في ذهن القارىء الواعي ، حتى أن معتقد المسيحيين ببنوة المسيح للاله يوحي به ، اذ يقول شاعر الربابة لرفاعة : « ما اشبهك بجدك » . (٢١٩) كما يذكر انه قد « تنوقل ايضا ان جثته (أي جثة رفاعة) ظلت ملقاة في الخلاء حتى حملها الجبلاوي بنفسه فواراها التراب في حديقته الغناء » . (٣٠٣) وهو ما يقابل الاعتقاد في بقاء جثة المسيح في قبرها ثلاثة ايام قبل ان يرفعه الله الى السماء . كما عمد نجيب محفوظ ايضا الى صياغة بعض عبارات الجزء الخاص برفاعة في اسلوب يشابه اسلوب الانجيل تمام المشابهة ، منها « فسألته اتطمع في المال الكثير ؟ فاجابها بانه في تطهير الحارة يرغب لا في المال الكثير » . (٢٣٤) وايضا عن لقاء رفاعة بياسمينة : « وجدها في جلباب بني ذي كلفة بيضاء حول الطوق وفوق نهضة النهدين ، وحافية ، وعارية الساقين وجدها ايضا » . (٢٢٣) وعلى نفس النسق ، يقول قاسم لعمه : « لن اقلع عما في رأسي ولو ملكت اتوقف كله وحدي » . (٣٦١) وهي صدى لما قاله النبي محمد من انه « لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الامر ما تركته أو اهلك دونه » .

هذا هو نقدي لهذه الرواية العملاقة ، اعتمدت فيه على ادوات المقارنة والتحليل ، وعلى من يختلفون معي في التفاسير الرمزية التي قدمتها في هذه المقالة ان يتذكروا الفصل الذي كتبه الروائي الاميركي العظيم «هرمان ملفيل» في تحفته الخالدة « موبي ديك » Moby Dick بعنوان « العملة الذهبية » . ففي هذا الفصل (فصل رقم ٩٩ صفحة ٢٦٥ طبعة كولنز) يصف المؤلف عملة ذهبية مستديرة كبيرة الحجم دقها الكابتن « اهاب » بطل الرواية اسفل صارية سفينته ، وقد نقش على صفحتها رسم يمثل الشمس تسطع على قمم ثلاثة جبال يجري امامها واد والى جانبها صورة ديك . وينظر اليها القبطان فيرى في هذه القمم كبرياءه ، وفي الشمس عاطفته وفي الديك مجده . وينظر اليها مساعده فيرى في الصورة رمزا للثالوث المقدس ، ويرى فيها ثالث علامة من علامات الفلك ، ويرى فيها آخر من عبدة النار رمزا لمعبوده الشمس فيخر ساجدا امامها ، وهكذا . ومغزى ذلك ان قوة الرمز في كثرة عدد التفاسير التي يحتملها ، وتعدد التشبيهات التي يمكن ان يقوم مقامها . ومهما تعددت الشروح والتفسيرات حول « اولاد حارتنا » ، ومهما تناقضت في مدلولاتها ومضموناتها ، فان هذا لن يغض من قيمة هذا العمل الفني الكبير الذي اضاف جديدا الى التراث الادبي العربي ، واسهم اسهاما كبيرا في الفن الروائي الحديث .

القاهرة — **ماهر البطوطي**

مسرحية « أيوب » لميخائيل نعيمة

أيوب ليس بروميثيوس !

بقلم الدكتور أسعد رزوق

> « لست أشك قط في أننا سنرى عندنا ، عاجلا أو آجلا ، مسرحا وطنيا تمثل عليه مشاهد حياتنا القوميه . انما يقتضي لذلك قبل كل شيء أن يحول كتابنا أنظارهم الى الحياة التي تكر حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعجرها وبجرها ، وأفراحها وأتراحها ، وجمالها وقبحها، شرها وخيرها ، وأن يجدوا فيها مواد لاقلامهم – وهي غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها » .
>
> **من مقدمة الطبعة الاولى لتمثيلية « الاباء والبنون »**
>
> **نيويورك ، ١٩١٧**

تأتي مسرحية « أيوب » بعد خمسين عاما في حياة مؤلفها الادبية والفكرية وكأنها تحقيق لرغبة ووسيله للتعبير عن نظرة فلسفيه معينة. فقد حول ميخائيل نعيمة نظره الى سفر أيوب ليستمد منه المواد الخام لمسرحيته . وعمد الى تأليف هذه المسرحية التي « تكاد تكون بكاملهـا خلقا من عندي » (المقدمة ، ص ١٤) بفعل عوامل عديدة لـم يجد سبيلا الى حصرها وتحديدها . انما اكتفى بذكر أبرزها الذي جـاء بمثابة قانون ايمانه وخلاصة نظرته الفلسفية الى طبيعه الكون ومكانه الانسان وسط نظامه الروحي أو الخلقي الذي يميزه عـن نظـام المحسوسات الصارم :

« رغبتي الدائمة في التفتيش عن الاسباب القريبة والبعيدة التي من وراء الاحداث كبيرها وصغيرها ، وبخاصة تلك التي يتعرض لهـا الناس باستمرار ، أفرادا وجماعات . فأنا رجل يؤمن أعمق الايمـان بأن الكون الذي نحن منه وفيـه ، بجزئياته وكلياته ، وبأبعـاده الاسطورية ، والفراغ الهائل الذي يغلف كل منظور وغير منظور فيه ، والذي ندعوه « الفضاء » – ذلك الكون هو كون منظم ومدبر تنظيمـا وتدبيرا يتجاوزان حدود العقل والخيال . ولكننا نحسهما في كل ما يجري فينا وحوالينا ومن فوقنا وتحتنا » .

(المقدمة ، ص ١٠)

غير ان هذا العامل البارز – وهو الذي يطالعنا في شتى كتابات المؤلف – قد لا يكون وحده وراء هذه العودة الى التأليف المسرحي خلال نصف قرن . فالمسرحية تأتي بمثابة تحقيق لرغبة في تخطي الانتاج المسرحي الاول وتصميم على تلافي الاخطاء والهفوات الفنية فيه . واذا كان الدكتور نديم نعيمة قد عبر ، في دراسته الشاملة عن المؤلف، عن أسفه بأن نعيمة « لم يقم بعد بمحاولة جدية أخرى في الكتابة المسرحية، بحيث يتمكن المرء من رؤية المدى الذي توصل اليه في تغلبه علـى عيوب تمثيلية « الاباء والبنون » ، فقد جاءت مسرحية أيوب تبيح لـه ولنا ذلك . فالمسرحية الاولى كانت تدور حول « جانب ضيق مـن موضوع حيوي وواسع » في حياة الامم عامة و « شرقنا على الاخص» : « الخلاف الابدي بين الاباء والبنين والتباين الدائم بيـن القديـم والحديث » . وقد اخذ عليها الدكتور نعيمة في دراسته مآخذ عـدة : فالجودة الادبية تقابلها رداءة مسرحية في بعض مشاهدها والتمثيل المسرحي غلبت عليه الالقائية ، بينما اشخاصها متداخلة تنقصهـا الملامح المميزة وتحتاج الى مزيد من الفردية الحية لكي يتسنى لهـم التعبير الحركي بدل التعبير اللفظي . ولاحظ ، علاوة على ذلك، عدم تمكن المؤلف من المحافظة على موقف موضوعي ازاء الاشخاص الشبان. وهي مآخذ وملاحظات توصل الى معظمها خلال اخراجه التمثيليـة المذكورة على المسرح .

مما يضع النقد والتقييم الحالي بما يشبه المأزق : فليس مـن السهل تناول المسرحيه ومحاوله انصافها من الوجهة المسرحية الصرفه ما لم يجر تمثيلها واخراجها فعليا على خشبة المسرح . اذ ان الاضواء التي يسلطها المخرج على اشخاصها ومشاهدها في تبرانهم وحركاتهم هي السبيل الافضل للحكم على عمل مسرحي من هذا الطراز . ولقد أدرك ميخائيل نعيمة شيئا من ذلك عندما أشار في مقدمة الطبعة الاولى لمسرحية « الاباء والبنون » بقوله : « ولذلك يتوكأ المؤلف على الممثل ، والممثل على المؤلف ، وغير خفي أن أفضل الروايات في يد ممثل ضعيف تضيع كل قوتها ورونقها . وبالعكس – فالممثل الحاذق يلبس أحيانـا أبخس الروايات حلة جمال وقوة » .

فلنتساءل اذن عما حدث لمادة المسرحية الخام ، أو لسفر «أيوب» التوراة على يد ميخائيل نعيمة ؟

لا شك أن قصة أيوب كما ترويها التوراة على صورة ذلك الحوار الشعري الرائع ، الذي تسبقه مقدمة نثرية وتليه خاتمة نثرية ، هـي أقرب ما تكون الى الدراما الفلسفية . وهي تدور حول مشكلة الالم والظلم والشر في العالم التي تحتل مكانة بارزة في تفكير الانسان منذ القدم حتى أيامنا هذه : اذن كيف يقف الله العادل ، وهو مصـدر الخير ، مكتوف الايدي حيال ما يقاسيه البشر الذين على صورته من العذاب والظلم والالام ؟ وكيف يمكننا أن ننظر الى قضية العقـاب والثواب في حياة الانسان ومن زاوية هذه المشكلة الرئيسية ؟ ولمـاذا يتعذب الرجل الصالح والصديق ، كما هي الحال في محنـة أيوب التقليدية ؟

وقد أشار الاستاذ نعيمة في مقدمته للمسرحية « سفر أيوب وهذه المسرحية » بأنها تدور حول الصراع بين الانسان وربه ولا تلتفت الى مجالات الصراع الاخرى : بين الانسان ونفسه ، بين الانسان والانسان أو بين الانسان والطبيعة . بينما نجده في المسرحية التي بين ايدينـا يعمل على تلافي هذا النقص بادخال عنصر الصراع النفسي في شخصية تليدة ، مثلا ، وهي واحدة من بنات أيوب جعلها تنجو من الكارثة . ولا تخلو شخصية الام ، زليخة ، في ثورتها وتمردها من بعض أبعاد هذا

الصراع . وربما جاز لنا اعتبار النزاع بين ولديه ، عوصيب وبالاق ، احد مظاهر الصراع بين الانسان وأخيه . وفي شخص « سرحبيل » الحائك الذي بلغ الثمانين من عمره ، والذي خلقه الاستاذ نعيمة وأودعه الكثير الكثير من ارائه الفلسفية ــ الشعرية ، حتى انه جعله بمثابة « مفتاح السر » في عقدة المسرحية ، يمكننا العثور على تلك الملامح الرئيسية لنظرة المؤلف في العلاقة بين الانسان والطبيعة وفي الوحدة والتداخل والحياكة الدائمة » التي تميز نسيج الكون والانسان.

« حرفتي .... هي أعجب حرفة . انها حرفة المسكونة بأسرها . أنت تنسج باستمرار . أنا أنسج باستمرار . كل ما في الكون ينسج باستمرار ، في الليل وفي النهار . عن وعي وعن غير وعي. حياتنا حياكة دائمة يا سيدي . ويتداخل النسيج بعضه في بعض واذا بالناسج هنا يغدو نسيجا هناك . نحوك . نحاك . واذا الكون كله نول هائل . واذا الذي ينسج عليه نسيج هائل . واذا أنت وأنا وكل ما في الارض والسماء والفضاء ذلك النسيج » .

(ص ٥٦)

ومما تجدر ملاحظته أن شخصية « سرحبيل » هذه متأصلة في فكر المؤلف الى حد بعيد . حتى أن الفصل الرابع والاخير من المسرحية يقدم لنا سرحبيل وراء نوله يدفع المكوك ويدندن كلمات قصيدة « الحائك » (ترجمة نثرية لمنظومة أنكليزية للشاعر نعيمة) التي تعود الى عام ١٩٢٩ ويضمها ديوان « همس الجفون » . وعلاوة على هذه القصيدة نجد قصيدتين غيرها في الديوان تمت كل منها بصلة وثيقة الى موضوع مسرحية أيوب : قصيدة « التخير والشر » (١٩٢٢) حيث يبصر الشاعر في حلمه مناجاة بين شيطان وملاك : « لولا جحيمي اين كانت سماك » ، « انا توأمان » ... « من جوهر واحد » . وقصيدة « العراك » (١٩٢٣) التي يشهد فيها قلب الشاعر عراكا بين الشيطان والملاك فيرتفع تساؤله الى ربه : « أفي الاكوان من رب سواك » ولم يلبث أن يتساءل : « والى اليوم اراني في شكوك وارتباك

لست أدري أرجيم في فؤادي ام ملاك »

(ص ٩٦ ، همس الجفون)

ينقلنا ذلك الى شخص أيوب . فقد تخيله المؤلف على صورة أمير عربي وتصور ارض عوص على انها قريبة من مدينة البتراء الشهيرة. وهذا أقرب ما يكون من الحقيقة التاريخية على ما يبدو . فقد نبه كثير من الباحثين الى أن سفر أيوب يخلو من اللون اليهودي وشخصية أيوب ليست يهودية . حتى ان المكان باقي الاشخاص هي أيضا غير يهودية . مما حدا ببعض الباحثين الى اقتراح جذور أدومية Edomite ومن المعروف أن النبطيين حلوا محل الادوميين وجعلوا عاصمتهم في القرن الثاني مدينة البتراء . كما واننا نعثر في نصوص الادب الحكمي البابلي (أو السومري) على أكثر من صياغة شعرية لقصة الرجل الصالح الذي يقاسي العذاب وينتهي الى التسليم بذلة وخضوع ، سالكا سبيل النواح والبكاء والتضرع والاستغفار ، حتى يستجيب له الهه الشخصي الذي يحميه ويشفع به . ولا ندري بالضبط ما هي الصلة التاريخية بين سفر أيوب من جهة وتلك الاسفار البابلية لقصة المتألم الصالح .

وقد استدرك الاستاذ نعيمة مسالة الاله الشخصي او « الرب » ــ كما يسميه ــ واستعان باكثر من رب واحد ــ « أرباب الناس » ــ فحل بذلك عقدة عويصة في مسالة نسبة الشر الى الله . فهو يميز بين الله الواحد (لا نظير ولا نقيض ــ فوق الخير والشر . لا يدركه العقل) من جهة وبين أرباب الناس من جهة ثانية . ويعتبر هؤلاء الارباب بمثابة « أرواح تسهر على تطبيق النظام السرمدي » . وبذلك تسنى له اعتبار الشيطان (الرب الاحمر) واحدا من الارباب ، يقوم بوظيفة المجرب أو الممتحن . لأن نسبة الشر والقصاص والعقاب الى الله الواحد توقع في ورطة صعبة . حتى ولو كانت الحال في محنة أيوب الصالح أن الله أراد امتحانه ، فلا بد من السؤال التالي : « هل كان الله يسمح بالامتحان لو لم يعرف نتيجته سلفا ؟ وما دام يعرف النتيجة سلفا ، فلماذا يمتحنه اذن ؟ وقد أثار هذه التساؤلات الشاعر أرتشيبالد ماك ليش في مسرحيته الشعرية عن أيوب (J.B.)على لسان المهرج (Nickles) وجعله يردد : « يتألم لكي يرى الله . يرى الله لانه يتألم » !!

ونحن نجد الشاعر الالماني غوته في مأساة فاوست ، مثلا ، يحاكي التوراة في سفر أيوب ، اذ يجعل فاتحة المسرحية حوارا بين الله والشيطان حول حب الانسان لله وقدرته على الوفاء له ، بينما يزعم الشيطان انه قادر على اغواء العالم فاوست ، ويأبى عليه الله ذلك .

اما أيوب نعيمة فقصة امتحانه تتراءى لنا من خلال حلم يتعلق بأيوب ، « لا بل رؤيا » ، تذكرها سرحبيل في نهاية الفصل الثاني من المسرحية . ماذا رأى سرحبيل ؟ أرباب الناس ، في المكان المعلق ، يتنازعون على الانسان و « يتصرفون كانهم أسياد الجماعة » . فالرب الابيض خلق الانسان على صورته وزرع في نفسه بذور الشهوات وجعل لكل شهوة نقيضها ثم مكنه من « الشهوة الغلابة » ، حيث يعي زوال الصراع بين النقيضين ، والرب الازرق ينظر الى الانسان كطفل يجهل طبيعة الاشياء ويعزو المرارة والالم الى الاقدار . بينما يرهن قلبه للاشياء ويقع في قبضتها . اما الرب الاحمر (الشيطان) فلا يجد أيوب مختلفا عن أمثاله من الناس بشيء : « انه مملوك ما يملك » و « قلبه مرهون لما يملك من خيرات الارض » . ومن خلال تنازع الارباب الثلاثة حول أيوب يطلب الرب الاحمر من زملائه السماح له بامتحان الرجل البار : (« امتحنه في ما شئت وكما شئت » ، انما « لا تفصل روحه عن جسده » .)

وفي سفر أيوب نجد شبيها لهذا المشهد في مطلع الاصحاحين الاول والثاني : « وكان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا في وسطهم ليمثل أمام الرب » . وبينما نجد سرحبيل يرى ذلك في الحلم ، تطالعنا المسرحية في فصلها الاول بمشهد تليدة وهي مضطربة النفس . وقد « تملكها خوف عظيم » . مم تخاف تليدة ؟ ما هو مصدر قلقها أو شعورها المبهم ؟ شعورها ليس وهما أو حلما ولا هي قلقة على عرسها القريب . احساسها مرهف ، كأنها تتوقع الكارثة من حيث لا تدري ما هي طبيعتها أو ما هو مصدرها . أيوب هو الانسان الواحد الذي يهمها أمره . وقد جعل المؤلف شعور أيوب مشابها لشعور تليدة ، لكنه وضع مسالة تفسير الشعور على عاتق سرحبيل الحائك : « الرجل الوحيد الذي يستطيع تفسير ما نحن به».

ربما كان شعور تليدة المبهم وقلقها على ابيها هو وسيلة المؤلف المسرحية للوصول الى غاية الكارثة التي بات حلولها قريبا . لكن هذا التوارد في الشعور بين الابنة وابيها يجعل العلاقة بينهما مثارا للجدل والتكهنات . غير أن الزوجة تعبر في غضبها عن ناحية أخرى من حياة أيوب : أفسد أولاده عن طريق الغنج والدلال وبذر ماله في اللهو والعربدة . وها هما يقتتلان اذ يتهم الواحد الاخر بالزنا مع زوجته . وهي التي تطلق التحدي بوجه أيوب فيجعلها المؤلف تتهكم على الله (« اصم . أبكم ») وتنسب ما يوشك أن يحل ببيت أيوب الى ايمانه بالهه .

وفي اللقاء مع سرحبيل ــ الفصل الثاني ــ يحمل المؤلف شخصية الحائك الشيخ بشتى المعاني الفلسفية والصوفية حتى انه يغدو « سر المسرحية الحبيل » بمختلف المعاني والتفسيرات . وليس من شك هناك بأن سرحبيل يكاد ينطق بلسان المؤلف ويعبر عن ارائه وافكاره . وحين يسأله أيوب تفسيرا لقوله : « نحوك نحاك » ، يطلع عليه بفلسفته في الامور التي لا تفسر ، لان التفسير يفسدها . تماما

يرى سرحبيل في شخصه ؟ اكثر من حائك : « حائك عوالم . حائك اكوان » ! و « الصانع الذي يفرغ نفسه في كل ما يصنع » . فالعباءة التي يحيكها تختصر الكون وتحتويه ، والانسان خيط « في نسيج الكون الهائل » ، بينما الكون « كله فيك وفي مثلما نحن فيه » . ومما يسترعي الانتباه في حوار سرحبيل وأيوب أن المؤلف يلجأ الى الدفاع عن الصوفية السرحبيلية من زاوية الانتقاد الكلاسيكي الذي يوجه الى الحلولية . وفناء الذات في الكون . فالذوبان لا يعني فقدان الكيان والشخصية والذاتية والفردية : « يذوب الملح في الماء ، ويبقى الملح والماء » ، والقطرة في محيط الكون متصلة باختها وبالمحيط كله .. الخ، أي على غرار نظرية اتصال الاشياء بعضها بالبعض الاخر . كما نلقاها في النزعة الصوفية لوحدة الوجود أو في قصيدة تنيسون عن الزهرة النابتة في شق الجدار (Flower in the Crannied Wall) !

ولا تقف فلسفة سرحبيل عند هذا الحد من الاتصال الكوني ، بل هي تلقن أيوب ، الذي جاءه بخصوص الاشباح السود التي تلاحقه وتلاحق تليدة : « ألا ترى يا سرحبيل أن شيئا ما يحاك لنا في الظلام »، درسا فلسفيا في المسؤولية والارادة والحرية . وهو من الدروس التي رددها لسان شوبنهور في نظرته للارادة على أنها مصدر العذاب في العالم ، والتقى في كثير من تعاليمها مع بوذا في نظرته التي تحصر معرفتنا بالوجود بتلك الظواهر المنتظمة في « سلسلة العلل » . فالارادة الواحدة (ارادة الكون) تتبدى في مظاهر عديدة ، لكنها بلا شعور وبلا عقل ، انها ارادة عمياء ! وهي « كلمة السر » التي تكشف لنا عن حقيقة الوجود . وقد عبر المؤلف عن بعض من ذلك في صياغته لفلسفة سرحبيل عن الوعي المتبادل والتمرئي الذاتي في الاخرين على الشكل التالي :

« .... انك مسؤول الى
حد ما تعي نفسك في غيرك ، وغيرك في
نفسك . وانت حر الى حد ما تعي حريتك
في حرية غيرك ، وحرية غيرك في حريتك .
ولك أن تريد ما تشاء ، فيكون لك ما تريد ،
اذا لم تعاكس ارادتك ارادة الكون . لنا
ارادة وللكون ارادة . ارادة الكون وحدها
هي التي لا تقهر . وهي وحدها التي لا تنفك
تعبث بما نريد ، فتسعدنا حينا ، وحينا
تشقينا الى أن نعيها كامل الوعي في ارادتنا ،
أو نعي ارادتنا فيها . فلا نحوك غير ما
تريد . ولا نريد غير ما تحوك . القضية ،
... ... ، هي قضية وعي
اولا واخرا . فهنيئا للذين يحوكون ويعون
ان ثوابهم وعقابهم في ما يحوكون . اولئك
يتحكمون في اقدارهم الى حد بعيد »

(ص ٦٢ – ٦٣)

اما أيوب فقد اصغى الى ذلك كله ولم ينفد صبره . وحين ساله سرحبيل عن معرفته بأسباب عائلية أو صحية أو نفسانية قد تكمن وراء شعوره بان « شيئا ما يحاك لنا في الظلام . وفي غفلة منا » اجاب بالنفي . وهنا تذكر سرحبيل حلمه المتعلق بأيوب ، وترك له تفسيره : « لعل شيئا ما يحاك لايوب في الخفاء » . فالساعات حبلى بالمفاجآت – على حد قول سرحبيل . وها هم الرسل الاربعة يدخلون حاملين انباء الكارثة التي حلت بممتلكات ايوب وبيته وعائلته ونجاة تليدة وحدها . ولا يختلف رد فعل أيوب المباشر عنه في سفر التوراة .

في الفصل الثالث للمسرحية ، وهو من الذروة في تصاعدها المأسوي ، نجد أيوب يتمرغ في الرماد وقد عراه الهزال وتفشت القروح في جلده .. بينما راح يحك جسمه بقطعة الخزف . فيرتفع نداؤه المستغيث « حتى متى يا رب ، حتى متى ؟!! » وتنفجر زليخة ، في تقززها منه ، تتهدد الله وتتوعده وتتحداه : « جدف ومت » ! بينما ياتي جواب أيوب بالقبول والاذعان ، اذ كيف نقبل الخير من الله ولا نقبل الشر ! لكن زليخة في تمردها ورفضها تتجرأ على السؤال : أي شر صنعنا حتى يعاقبنا الهك ؟ فماذا يكون جواب أيوب ؟ – « سؤالك هو الشر بعينه » .

زليخة : « بل الشر ان لا تسأل : ما هو الشر ؟
أيوب : الشر هو ما أنت فيه .
زليخة : بل هو ما أنت فيه .
أيوب : لعله ما نحن كلانا فيه . انه رفضك الوجه الاخر لاي شيء » .

ان زليخة في نظر أيوب تتهرب من دفع الثمن ، ثمن المعرفة التي تجعل أيوب يقبل الخير والشر على السواء . والثمن هو الالم والصبر على الالم . وليس مفتاح المعرفة سوى الصبر متى اقترن بالايمان . وأيوب لم يتعلم ذلك من أصحابه الذين لازموه للمواساة فزادوه بلبلة في حديثهم عن التانيب والقصاص وكثرة الاثام . بل توصل الى ذلك في صفاء نفسه خلال مهادنة الالم : « طفل هو الانسان مولود المراة » ، « قليل الايام كثير الشقاء » ولا تجوز محاكمته كالراشدين . ويرى أيوب أن ربه يؤدبه ويمتحنه كي يتسنى له بلوغ الرشد ، لان « الله لا يعبث ولا يلهو » . وحين تدخل تليدة عليهما لا تخاف عدوى الرماد : « رماد أيوب الذي كان ، والشهادة لايوب الذي سيكون » ، لان رماد الالم هو مصهر التجدد والبعث ووليمة العرس . وكأننا بتليدة ، واسمها يدل على شخصها المسرحي ، تعانق أيوب عناق الحياة : « حي هو أيوب . وحي هو رب أيوب » !

في هذه اللحظة بالذات يظهر سرحبيل ليقول لايوب انه جاءه مدفوعا بالمحبة له ، بينما أصحابه قد جاؤوه بدافع « الشفقة المستعلية والمأخوذة بحسناتها ازاء مساوىء الغير » . ومحبة سرحبيل لايوب تصدر عن محبة سرحبيل لنفسه : « نحوك — نحاك . لذلك احبك . احبك لانني أحب نفسي » . ويصل به « حديث النول » لدرجة حب الموت ، طريق الخلود و « الباب الذي أطل منه على عدم الفناء » . وحين تطرح عليه تليدة سؤالها عما يمنعه من الموت بارادته اذن (الانتحار) ما دام الامر في « قبضته » ، يجيبها بلسان « موافيت » الولادة والموت « ليست في قبضتي » . وما أن يتعلم أيوب درسه من سرحبيل : « كيف استخدم الاشياء دون أن أدعها تستخدمني » ، أي ما أن يتحرر أيوب من عبودية الاشياء التي تاخذ بخناقه ، حتى نشهد ولادة أيوب الجديد ينتصب وسط رماده ويخرج من مصهره ظافرا .

ومن خلال صفير العاصفة الهوجاء تخاطبه أصوات الارباب الثلاثة لتفهمه سر ذلك الشيء الذي يحاك للانسان في الخفاء ! فالصوت الاول (الرب الابيض) ينبئه بان لا حياة له « الا في حياتنا » ومتى

تصفى من جميع أشوافه وفك قبضته عن ملك الارض تعيده صفوة الشوق الى ربه « للذوبان فيه » . والصوت الثاني (الرب الازرق) ينبه أيوب بأن عظمة الانسان هي « ما اودعناه فيك من نفوسنا » وان الخيبة والوجع جاءت نتيجة افتتانه بالمباهج والمغريات وانشغاله عن « المصباح » الذي أعطي له خلال سيره في الطريق نحو باب الموت ! اما الصوت الثالث (الرب الاحمر ، الشيطان) فقد راح يبشر أيوب بأن البلوى لم تكن سوى السبيل لرده الى رشده ، أو سوى ذلك الامتحان الذي اجتازه بصبره وايمانه . لذلك كان انعتاقه من بلواه ورد اليه ضعف ما خسره من متاع الدنيا وزيد في اجله « مئة وأربعين عاما » على أمل أن يستكمل نضجه ويعود في صفائه الى ربه أو أربابه . فخر أيوب ساجدا « ها انذا ذليل » ، وقد تمنى لعينه أن ترى ربه بعد أن سمعته الاذن قبل اليوم .

وفي الفصل الرابع والاخير يرجع سرحبيل الى ما كان عليه في الفصل الثاني ليدفن وراء قوله : « انا هو القول . وانا الخيط والنحات » . وتتم المسرحية بينما سرحبيل « ماض في حياته » .

اما الانطباع الاول الذي نخرج به من دراسة المسرحية فهو ذلك الاكثار من النظريات والافتراضات التي غالبا ما طغت على الحساسية التمثيلية فكادت تقضي على الحركة وتذيب العقدة الدرامية التي تتمثل في مأساة أيوب . فكيف يتحول أيوب فجأة من رجل بار وصديق الى حياة التبجح والعربدة وهل شاء المؤلف لذلك التحول أن يتم عبر شخصية الامير العربي ؟ والحق أن ما حاكه المؤلف حول نسيج شخصية سرحبيل جعل أيوب يتلاشى حتى يكاد يفقد كل بعد مأساوي ويقنع بذله وتسليمه . ولا ننس ان المؤلف لا يتوقع من قارىء المسرحية أو مشاهدها أن يتقبل ذلك النسيج الهائل من نظرياته وافتراضاته (كما ذكر ذلك في خاتمة المقدمة) . واذا كانت قناعته في أن يتبنى تصورنا « في قضية العقاب والثواب » ، فقد جاءت هذه المسرحية طبقا لتلك القناعة . اما اذا خطر لقارىء « أيوب » أن يدخله الى عالم القرن العشرين ، فما عليه الا أن يتحلى بصبر يفوق صبر أيوب ، لان أيوب ميخائيل نعيمة لا يختلف في جوهره عن أيوب في سفره التوراتي ، وقد يدانيه في عنف حواره مع الهه . اما تلك القوى التي تتحكم بأيوب فقد أضفى عليها المؤلف فوق ما تطيقه من النظريات والافتراضات . ولا يفوتنا أن ننوه بان شعرية اسلوب المسرحية وتلك السلاسة والعذوبة التي تسري في عباراته تحبب للقارىء اسلوب التوراة وتقربه من أسماع المشاهد وفهمه . ولقد تبين أن شخصية زليخة ، مثلا ، تتمتع باقناع مسرحي ووضوح متبلور اكثر من غيرها . بينما نجد أيوب وكانه تعرى من صراعه الداخلي فجاء سرحبيل يقضي على صميم صراعه مع الرب ويبتلع في قوله خيوط صراعه مع أصحابه خلال مؤاساتهم له في البلوى . ويمكننا القول بصورة عامة أن الشخصية المسرحية لدى ميخائيل نعيمة ما زالت أسيرة النموذج الفكري الالفائي الى حد بعيد ولم تخرج الى مسرح الحياة بكل بلورتها وزخمها الحركي . فهل يكون مرد ذلك الى طبيعة المسرحية الفلسفية ؟ أم الى طبع المؤلف الذي يفتتن بالتعليم والحكمة على حساب تنويع الحساسية التمثيلية وتعميقها في مختلف الابعاد والاتجاهات ؟ الاجابة عن ذلك تبقى مرهونة بعمل المخرج المسرحي الذي قد يكتشف فيها الكثير ويطوعها على خشبة المسرح المعاصر .

ولنتذكر اخيرا أن أيوب ليس فاوست ولا هو بروميثيوس ! فهل يكون ذلك الامير العربي الذي تخيله مؤلف المسرحية ؟

اسعد رزوق

صدر حديثا

باباهمنغواي



بقلم ا. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب اقبل على همنغواي يطلب منه حديثا ادبيا وهو يقول له : « اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة » فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقا يلازمه كظله طوال اربعة عشر عاما ، حتى موته .

و « بابا همنغواي » هو الكتاب الذي اصدره هوتشنر اخيرا عن حياة همنغواي وكتبه باسلوب روائي شبيه باسلوب همنغواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحارا ، ولم يقتل خطأ وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى في كتابه والمتعلقة بحياة همنغواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ . .

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط الان على هوتشنر بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها العالم الادبية .

منشورات دار الاداب

مذكرات طه حسين

منشورات دار الاداب ـ بيروت

***

اوشك الدكتور طه حسين عميد الادب العربي على بلوغ الثمانين من عمره الذي امضاه دارسا باحثا واديبا منتجا ومربيا للاجيال الطالعة معنيا برفد افهامها بالجديد المبتكر والقديم الاصيل من معطيات الفكر والادب والثقافة في عموم ضروبها ومتنوع الوانها .

ان ما انهد للاسهام في مجالاته والعمل في ميادينه ، من تأليف وتدريس ونقد ، هذا المكفوف ، لتنكص دونه همم افراد مجتمعين من المبصرين وتعيا به ممكناتهم وطاقاتهم ، لكنه الجلد الشاق والصبر الطويل والعزم المكين هي جماع العدات التي تسلح بها ومكنته من الانتصار على عقبات الحياة وتخطي ازماتها ومجاوزة مشقاتها واهوالها ، فهو بدع في ضروب تحصيله واكتسابه معارفه والمامه الواسع باسرار بعض اللغات الاجنبية ومن بينها واحدة قديمة تكاد تغدو اليوم في عداد المهجور والملوي عنه من موروثات الشعوب والاجناس المنقرضة او التي اوشكت على الانقراض والانعدام والتلاشي ، اعني اللغة اللاتينية ، بالاضافة الى احاطته الشاملة بدقائق اللغة العربية . وهو بدع ايضا في عصاميته التي تحولت به من صبي ناشيء في الريف المصري الى طالب ينهل العلم في رحاب الجامع الازهر فجامعة القاهرة وجامعة السوربون فى قلب باريس ، مغالبا في هذه الحالات كلها ما يصادفه من عقبات الطريق ويكمن في شعابه ومفاوزه من الارزاء والمحن والخطوب والكوارث . واخيرا هو بدع متفرد بهذا الاسلوب المشحوذ المات الى الاصالة والاشراق والعذوبة والجمال ، باوثق الاسباب والصلات .

ان طه حسين في عصاميته وفناء جهده وغزارة علمه واصالة ادبه وتدفق اسلوبه وفي عرفانه بدخائل النفس الانسانية وسبره اغوارها العميقة واكتناهه بواعث ما تنطبع به وتنم عنه من اطوار السلوك العجيب واوجه التصرف المستغرب في كثير من الاحيان ، حتى لقد نفذ الى تصوير اعمق ما يخالج الانسان من نوازع الحب والصفاء والرضى واللين ، ووفق كذلك الى تجسيد ما يساوره ويعتريه من عواطف البغض والمقت والنفور والموجدة ، خلل كثير من نتاجاته المتعددة على اتم ما يقتضيه التصوير التجسيد من الاحكام والصدق والفني بالدلالة الواقعية والمعاناة المستفيدة او المتمرسة المجربة . اقول ان طه حسين في كل هذا صنيعة الذكاء المشبوب والنبوغ المتوقد والفطرة الانسانية الخلاقة المطبوعة على المثابرة والعمل بلا كلل او توان .

ومذكراته التي صدرت مؤخرا تجيء اليوم محتفلة بعصارة جديدة من خبراته وتجاربه وتمرسه بمغالبة الاحداث ومواجهة الخطوب ولقاء الناس الذي لا يحوج هو اخر دراسة او تعلما ، النجح فيه وتوقي ما يستتبعه من المتاعب والاهوال في حالة الاخفاق والفشل ، انما هو فن يكتسب بالممارسة ويقوى بالدربة ويترسخ في النفس بالاستفادة من التجارب السابقة في حالة امعان النظر فيها ومعاودتها بالتذكر والرجوع عليها بالادكار وايلائها بالعناية والملاحظة النافذة ، وهي بعد هذا تتمة او استئناف لما ازجاه من خطراته وذكرياته في قصتيه الرائعتين : الايام واديب .

نماذج بشرية

عبر هاته الذكريات الحبيبة يطل علينا الدكتور طه حسين بتصوره الشائق للكثير من الطبائع والنماذج البشرية الطريفة الحرية بالالتفات والنظر والنفاذ الى اطوارها ومسالكها ، فمن بينها المحسن الذي يجود بالعطاء والاحسان ثم يمن بما اعطى واحسن منعجلا استرداده واسترجاعه، كهذا الشقيق الاكبر الذي راعه في حال ان يضع اخوه الاعمى على عينه غطاء زجاجيا اسود يغطي به اجفانه فيستهون ثمنه ويهديه اخر ذهبيا يخاله اليق بمكانه وارعن لمنزله بين من يخالط من الاصدقاء والخلان ، ثم ينكفيء عليه بعد مدة مطالبا اياه آن يرد عليه غطاءه الذهبي لحاجته الماسة اليه ، فما امض ما ساوره من الارم والغيظ وخالجه من الكرب والضيق وملك نفسه عليه حزنا واشفاقا ، لولا انه يتسلى عن الرزيئة المؤسفة ويلفي عزاء في تصدي رجل غريب للاعلان عن استعداده للقيام بنفقته حين تطلبته الجامعة المصرية بالرجوع الى مصر وتوقفت عن امداده بالمال بالنظر لظروف الحرب .

ومن النماذج الحبيبة المتجردة من الانانية والحسد والمغالبة في الادلال بروح التضحية والايثار وانكار الذات شخصية صديقه الدكتور صبري السوربوني الذي فشل في اجتياز امتحان الليسانس لقصوره وضعفه في فهم النص اللاتيني المطالب بترجمته الى الفرنسية ، فما القى عليه نظرة خاطفة ، حتى طواه وقدم الى الممتحنين ورقة بيضاء ناصعه وغادر المكان ضاحكا منشدا بيتا من الشعر اللاتيني القديم يصور اليأس والقنوط ، لكنه لم يكف عن مسعاه ويقلع عنه بصورة نهائية ، انما يوالي تحصيله وتزوده من اللغة اللاتينية حتى اوفى على الغاية من الفهم والاتقان وتقدم للامتحان مجددا واتيح له الفوز والنجاح، هذا السوربوني لم يستبد به الجزع أو يتملكه الروع والشعور بالخذلان، حين اخفق في الشوط الاول ، انما غمرته الفرحة وغلبه الحبور حين نجح صديقه طه حسين في نفس الامتحان ، « فقد اقبل ذات مساء فرحا يكاد يخرجه الفرح عن طوره مكدوداً يقطع الاعياء نفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى ، ولشدة ما اسرع في صعود السلم الى بيت الفتى في الطبقة السادسة ، فلم يكد يفتح له الباب حتى اعلن لمن فتحه ان زميله قد ظفر بدرجة الليسانس ولم يدخل وانما رجع ادراجه لم يرد ان يستريح » ، فكان رائعا حقا ان يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة املك له وأشد استئثاراً به من اخفاقه هو في الامتحان .

الصوت العذب

والصوت العذب هو صوت الزوجة البرة الوفية ، شريكة الحياة وصديقة العمر التي قاسمته السراء والضراء وشاطرته في المسرات والاحزان ، وتحملت واياه ايام العسر الشديد والمشقة الطائلة والصبر على المكروه ، وهي التي بفضلها قيض له ان يطلع على امهات الكتب والمراجع من تراث اللاتين واليونان والفرنسيين متدارسا اياها متفهما لها محيطا بمدخولاتها فقد امضت معه شطري العمر تقرأ له بصوتها العذب النبرة الجميل الوقع الواضح النطق ، يعيرها هو الاخر سمعه مصغيا لها متشربا ما تلهج به من ثقافات الشعوب الحية ومعارفها المتباينة ومعطياتها الخصبة ، وتتكفل كذلك بتفسير ما يشق عليه فهمه ويتعذر استيعابه من فحاوي لغة قومها حتى استقام لسانه وقوى امكانه من تلكم اللغة العريقة ، وكذا كانت بالنسبة له الملاك العجيب كما ذكر غير مرة الذي بدل بؤسه نعيما وترحه فرحا وشقاءه سعادة ويأسه املا وظلام حياته الداجي نوراً ساطعا وضياء وهاجا ، واستحالت حيرته وانشغال فكره وشعوره بالغربة وسط اولاء الناس ، حتى ما يكاد يألفهم ويأنس بهم ، فقد استبدت به الظنون والاوهام واعتورته الشكوك والهواجس ، على غرار ما استغرق فيه وانجر أليه صنوه القديم ابو العلاء فيلسوف المعرة ، استحال هذا كله بقدرة قادر وبفضل هذا الملاك الملم ذي الصوت المشفق الحنون تعلقا بالحياة واقبالا عليها وزاده ذلك ثقة بنفسه وايمانا بجدارتها للتحصيل واستعدادها للانتفاع بالعلم والسعي في سبيل خدمة الجماعات من حوله به .

ان الصفحات التي اتى فيها الدكتور طه حسين على الاسهاب في سرد ذكرياته الاولى عن الزوجة الوفية البرة منذ مبدأ تعرفه بها وتوشج الاسباب بينهما حتى ازماعه على البناء بها والزواج منها ، وما صاحب ذلك في البداية من امتناعها وتأبيها واعتذارها له عن رد هذا الطلب

الملح فقبولها به واستجابتها له في النهاية ، لتعد من اروع ما كتب في باب تصوير مشاعر الالتياع وعواطف الحرمان وخلجات الاحساس بلذة الحب تلوق ثماره واجتناء طيباته .

وان ينس الدكتور طه حسين شيئا فلا ينس يوم تقديمه استقالته من التدريس في الجامعة ، عقب انخراطه في هيئتها التدريسية بمدة وجيزة بسبب امتناعها عن تلبية طلبه في مضاعفة مرتبه للانفاق على مصاحب له ، يعينه في التحضير ويقوده الى حجرات الدرس ، فرد طلبه وانبىء من بعد بعزم الجامعة على مطالبته بتسديد ما انفقته في سبيل استكمال دراسته في باريس من النفقات الباهظة ، فما كان من الزوجة الا ان الحت عليه بالرجوع عن الاستقالة والاعتذار عنها في حال من الابقاء على ماء الوجه والاحتفاظ بالكرامة ، والقت في روعه انه انجر للوقوع في الشطط وتنكب السداد والايغال في العماية والسرع والفرور ، وخير له ان يعي ان الانسان يخطىء احيانا ويصيب احيانا .

الفلسفة المفسدة

من بين هاته الذكريات الحلوة التي يفيض الدكتور طه حسين في سردها واستقصاء اطرافها واستجماع شتاتها والتنسيق بينها ، صلاته باساتيذه القدامى من علماء الازهر الشريف واقطاب الاستشراق من الفرنسيين والايطاليين ، وداعية الارسطالية في مصر المرحوم لطفي السيد صاحب الجريدة التي فتحت ذراعيها لاحتضان مقالات الكاتب الفتي حيث حظي بتوجيه المعلم الرائد واحتفائه به وحدبه عليه وتسديد خطوه وتوجيهه في التدرب على العطاء الادبي ، كانت اياما لا تخلو في بعضها او في الكثير منها من الانجرار للعثرات والكبوات والوقوع في حماة الاخطاء والاغلاط ، كان تستغل غرارته وسذاجته وطيبته في عهود الطلب والتحصيل ، بل ونزوعه للشهرة وتوقه لاستطارة الصيت وذيوع الذكر ، فقد يسخره المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، لكتابة الفصول الطوال المتتابعة في نقد نظرات المنفلوطي وجره ذلك الى شيء من الفلظة في القول والمخاشنة في الخطاب وتجاوز حدود النقد الموضوعي المقبول الى الشتم المنكر والسباب الغليظ ، وما يزال يحس بالخجالة ويتملكه الضيق والشعور بالندم والاسف ، كلما خطرت في باله مناسبة كتابة تلك الفصول ، ومن قبيل تلكم السقطات والهفوات، جنوحه ذات يوم الى الطعن في تضاعيف مقال نشر له في الجريدة ، الى الطعن في نسب واحد من اصدقائه ، دون ان يفطن الى قباحة هذا المائم وبشاعته ، ومناسبة كتابة المقال ذاك ، تنحصر في وقوع خصام حول سؤال من اسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الادب ، فكان ممن شارك في هذا اللدد واحد من زملائه الازهريين ينتمي الى اسرة كبيرة يباهي دوما بانتسابه اليها ، ونزع طه حسين الى اماطة اللثام عن حقيقة الانتماء ذاك ، فلهج صراحة بان اب الزميل كان من عتقاء تلك الاسرة ، دون ان يستهدف ايذاءه وايلامه والانتقاص منه ، انما « اعجبه هذا التعريض فاستجاب له ولم يراجع نفسه الا حين قرأه مطبوعا ، هنالك اسقط في يده ولم يرض زميله الا بعد جهد وعناء وقد رضي الزميل وصفح ولكن الفتى لم ينس هذا الاثم قط وما اكثر ما ازدرىء نفسه وحاول ان ياخذها بالا تضع كلمة في مقال حتى تفكر وتقدر وتتجنب الايذاء ما وجدت الى ذلك سبيلا » .

ويتردد في اكثر من صفحة اسم الدكتور منصور فهمي مقرونا بالاعجاب والاكبار ، ومنصور فهمي هو ذلكم الجامعي الذي سبق الدكتور طه الى التماس التحصيل في جامعة باريس والظفر بمعونة الدولة او الجامعة المصرية ، لاستتمام هاته البغية ، ويبدو انه كان منطلقا من ايمانه بحرية الفكر في كتابة رسالة الدكتوراه ، فحامت حوله الريب واستهدف بالشبهات واخذ بمواضع التهم المرجفة والمغامز المتجنية ، فحين استدعى طه حسين خريج الجامعة المصرية لمقابلة السلطان حسين كامل قبيل سفره الى باريس ليزوده بتوجيهه وارشاده ، جوبه اثناء تلك المقابلة بتصدي حاكم مصر لتحذيره من دراسة الفلسفة لانها في ملته تفسد العقول وتفسد الذوق ايضا وراح السلطان يسرد على اسماعه حادثة استقبال الطلبة المصريين له في باريس وكلهم كانوا حاسري الرؤوس وفي ايديهم قلانسهم الا واحدا كان حاسر الراس كزملائه ولكنه لم يمسك قلنسوه انما يمسك طربوشا في يده ، وحين استفهم في امرة انبىء انه منصور فهمي طالب الفلسفة الذي كان لزاما عليه ان لا ينزع طربوشه في حضرة السلطان لكنها الفلسفة افسدت عقله وذوقه وخلقه جميعا .

ويبدو ان رسالة الدكتور منصور فهمي التي لم يفصل حولها صاحب المذكرات كانت من الخطورة والاهمية بحيث اثارت في حينها من الضجيج والعجيج ما استهدف جراءه الى سخط الهيئات الرسمية واوساط الراي العام والاضطرار للاقامة خارج الوطن والابعاد عن الجامعة ، حتى اذن له في التدريس في اعقاب ثورة عام ١٩١٩ التي ترتب عليها من تحرر العقول والافهام ما بدد من سحائب الجهل والجمود ومن تحلل الافراد والجماعات من محدودية النظرة وضيق الافق ما راض الاميال المتزمته على الانفتاح وتقديس حرية الفكر بل والكفاح في سبيل انتصارها ، لكن كان لسابقة الدكتور فهمي ابلغ الاثر في انفاذ قرار الجامعة المصرية بلزوم اطلاعها على الرسائل الجامعية التي يعدها المبعوثون الى الجامعة الباريسية قبيل عرضها على اساتذتهم الممتحنين وشروعهم بمناقشتها والتلاحي حولها .

فلتات عبارية

عودنا الدكتور طه حسين خلل نتاجاته العديدة ، في التاريخ السياسي والاجتماعي والنقد الادبي والاعمال الروائية والقصصية والفصول المسهبة التي تنقل لنا نفثات الاحساس وخوالج الشعور والخواطر الذاتية في الحياة والاحياء ، حين تضيق نفسه بها وبهم وتزهد فيها وفيهم وتقنط من التاميل في استحصال الرغائب والظفر بالمطالب والامال منها على فرط رضى منهم دون ان يستهونوا ذلك او يغضوا عنه او يثقل على نفوسهم فيه أو يمضهم الحزن جراءه ويسري الى نفوسهم هذا الشعور البغيض اللئيم اعني الحسد المؤرق لاجفانهم السالبهم الخدر والفمض النازع منهم الروح والجمام ، اقول عودنا الدكتور طه في كل تلكم النتاجات الرائعة ان يطالعنا بتعابيره البديعة وفلذاته المحكمات المائة الى الفصاحة والرواء والاسر والروعة والجمال والتشويق ، بامتن الاسباب والاواصر ، وفي كل مرة يطالعنا منها بالجديد المبتكر النابع من اعماق القلب والنفس والروح جميعا . وما اصدق قول صديقه المرحوم عباس محمود العقاد ، في معرض الحديث عن اسلوب طه حسين ، حيث سطر : انه « يتحدث ولا ينسى انه يكتب ويكتب ولا ينسى انه يتحدث ، واسلوبه الذي اختاره اوفق الاساليب لذلك جميعا واولها من نوعه في اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لاسلوب اخر في اللغات الاوروبية ، ولقد افاد باسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الراي ولم تقنعهم المناقشة ، فراوا ان العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على اسلوب غير اسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع وراوا كاتبا كبيرا يكتبها كما يشاء ، هو ، لا كما يشاء القدماء فتنكتب وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة والفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء وذلك وحده فتح قدير » .

في فاتحة الفصل المعنون : استاذ جامعي بخمسة جنيهات ، يسطر الدكتور طه : « وكانت تلك الايام الطوال الثقال التي قضاها صاحبنا في القاهرة مروعا ملتاعا بعد ان حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد فقد اسلمته هذه الصدمة القاسية الى هم متصل ذاد عنه النوم فلم يكن يذوقه الا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير ، وقد بلغ منه الجهد غايته وانتهى به العناء الى اقصاه ، بعد ليل مسهد وفكر مشرد ونفس قلقة ، فقد عزمت كيف تنسل عن ماضيها ـ الثقيل ووقفت امام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه الى ما كتب لها من سعادة او شقاء » .

رجوت من القارىء العزيز ان يتمعن في ما تطالعه به تلكم القطعة

الرائعة من الاشعارات البديعة والتصوير الشائق والسحر الاخـــاذ والوصف البارع لقلق الانسان وروعه وفزعه ، وهناء الطير ورغادتـــه وحظوته بالروح والجمام ، من الاتعاب . ولعل مـــن اروع اللوحات التصويرية التي استبانت في المذكرات ، الفصل الاخير المعنون : ايمان بالثورة ، حيث تنتهي مذكرات صاحب الايام بالسنوات الاولى من ايابه الى الوطن في اعقاب ثورة ١٩١٩ ، وكان المجتمع منقسما بيـــن انصار سعد وانصار عدلي باشا ، وكان هو منحازا الـــى جانب السلطـــة ممثلة في شخص عدلي باشا ، الذي اخفق في التفاوض مع المحتلين، وراح انصاره واشياعه يفترضون المسوغات ويبتدعون المبررات وينتحلون المزاعم ، لاخفاقه وفشله في المفاوضة حول الجلاء ، من قبيل ان صاحبهم كان « ابيا كريما قد ثبت لهم فلم ينزل لهم عن حق الوطن ولم يقبـــل منهم الدنية وعاد اشم مرفوع الراس » ، بينما يزعم اخصامه واضداده ومناوئوه ان ازدراءه الشعب وممثليه قد اضاع الاستقلال .

وما شان طه حسين بهذا اللدد المرجف والخصام الفظيع ؟!

لقد قفل من فرنسا مخيلا لنفسه ان الادباء والمفكرين هم قـــادة الشعب ورسل العرفان وهداة الامة الى الخيـــر والايمان والحقيقة ، وهم من سجاحة الخلق ورحابة الافق وذكاء العقـــول والافهام ، بحيث لا تتحكم فيهم العصبيات الغلاظ او تستبيهم النوازع الضيقة والافـاق الذهنية المحدودة فتحبسهم في نطاقها وتدورهم في فلكها وتحتجزهـم في مجالها ، انما هم يرتفعون فوق احقاد الجماعات واوغارها ويسمون على ضغائنها وذحولها ، وهم بعد المسكون باعنـــة التوجيه والرعـي والارشاد ، لكن سرعان ما خاب الظن وجار المريد عـــن القصد ونكص المحاول عن المسعى وقنط المعول من التماس الرجاء ابتغاء المامل ، واذا اولاء الادباء والمفكرون ، من قراء الاسفار والكتب الضخام وحملة الاقلام والبراعات بشر لا يختلفون عن عامة الناس في اجتراح الاخطاء وارتكاب المعاصي والولوغ في المآثم لهـــم انحيازاتهم وتعصباتهم وتقلباتهـــم واندفاعاتهم ، وكذا يرى طه حسين نفسه ذات يوم فـــي محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلي وهو يصيح مع الصائحين : يحيـــى عدلي باشا ! « وقد حمل العدليون صاحبهم على الاكتاف حتى وضعوه في سيارتـــه ولا يكاد المستقبلون للمخفق العظيم ، يخرجون من المحطة ، حتى تنهال عليهم اللعنات ويصب عليهم الاستهزاء صبا ثـــم يقذفون بالحجـــارة والعصي ويصاب صاحبنا ببعض الاذى ولولا ان رفيقه كان ماهرا لبقـا لتعرض لشر كثير ، ولكن رفيقه انعطف به الى حارة من الحارات ثـــم نفذ به الى حيث امن الحصى والحجارة والشتم واعاده الـــى داره موفورا مكدودا مع ذلك » .

ولك بعد هذا ان تضحك او تبكي .

تمنيت ان اتناول بالذكر مواضع اخرى ، من مذكرات استاذنا طـه حسين خاصة عرائضه المقدمة الى رئيس الجامعة المصرية قبيل الحرب العظمى ، بصدد طلبه الانتساب الى البعثة ، تلكم المواضع التي تقطر الما ومرارة تنسجر منها النفس تمزقا والتياعا وتعمر جراءه بالحـــزن والاشفاق وتمتلىء مع ذلك ورغم ذلك بالاكبار والاعجاب ، بممكنات هذا الرائد الفذ والمصلح العظيم والاديب الخلاق ، رجوت ان ازجي فنونـــا اخرى متنوعة من فلذاته العبارية ، لولا اني لا املك سبيل النفاذ الـى ذلك والفى الابواب بيني وبينه مغلقة موصدة ، ولا انتحل الدلك عاذرا او شافعا في التطويل والاسهاب واستحثاث القارىء واغرائـــه بتداول الكتاب ، كما يعتمد ذلك ويتوسل به ويتوكل عليه كثير مـــن المقصرين والعاجزين عن استكمال مباحثهم واستتمام مقالاتهم ، خطـــة ابتدعها السلف وترسمها الخلف وعكازة يتوكأ عليها مقطوعو الارجل لكنها لا تقيل من عثار او تنهض من كبوة .

لكن خير ما اختتم به هذا الاستعراض السريع الخاطف العجلان لمذكرات استاذنا طه حسين ، القول انه صاحب طريقة فـــي الاسلوب ليس لها مقلد او مجار وحتى مقترب منها على حد او طرف او ناصية .

وانه ثانيا قدوة العصاميين المتغلبين على الصعاب والمنتصرين على عوارض الياس والتخذيل والتثبيط ، وان الكتـــاب والادباء العـــرب المحدثين ، منذ الحرب العظمى الاولى ، وحتى الوقت الحاضر ، كلهـم عيال عليه ومدينون له بهذا التجديد الخلاق والابتداع الحسن فـــي مجالات الاداء والتعبير والتجسيد ، حتى لقد وضح ان لكل اسلوبــه وطريقته في تصوير عواطفه وازجاء خطراته ورعشاته ، وصياغة مفاهيمه ونظراته ومعتقداته ، في الكون والحياة والاحياء .

ولولا ترسل طه حسين في العبارة وتدفقه في الاسلوب وطواعيته في الابانة ، وتلقائيته في الافصاح والايضاح ، لظل الكتاب المحدثـــون جارين على طريقة القرون الماضية ، ابان عهود التخلف والظلام وانحسار ظلال مدينة السلام ، مترسمين نهجها وما تلزم بـــه من التكلف المشين والتصنع العقيم والصناعة الفجة الخالية من الصدق والعفوية .

الحلة ـ العراق

مهدي العبيدي



لا مكان للقمر
شعر عبده بدوي

***

الشعر الحي الذي يلائم روح العصر ، وحياة المجتمع ، هو الذي يقول ما يستحق ان يقال من غير ضجيج او افتعال . وهناك شعر يقول ما يستحق القول ، ولكن في صخب تنفر منه النفس وينبو عنه الحس، وهذا الشعر لا أرضى عنه ، ولا أميل اليه . وشر منه ذلك الشعر الذي لا يتضمن شيئا ذا خطر ، ثم نرى صاحبه ، من خلاله ، يرفـع عقيرته بالصياح ، وكانه يخطب في حفل عام ! لكن شعر عبده بدوي في ديوانه الجديد « لا مكان للقمر » شعر حي بكل ما في هذه الكلمـة من معنى ، فهو شعر هادف بافكاره ومراميه ، ولكن هدفه ينبع مـــن نفس صاحبه في وداعة وهدوء ، او بمعنى اخر ، فيما يشبه التلقائية ، ولهذا نجد في هذا الشعر ملاءمة صادقة موفقة بين الهدف والتعبير.. انه شعر اليف محبب ، تسمع من خلاله حين تقرؤه همسا موسيقيـــا رقيقا يذكرنا بموسيقى الصالونات ، لولا انه شعر هادف يحقق لنـــا المتعة والفائدة .. وانت تحس ذلك حين تقرا هذه المقطوعة من قصيـــدة « الباقي ابدا » :

فلتسند ظهرك ، ولتضحك عيناك بأشواق عذبه
ولتجمع حولك خلانا قد جاءوا من ارض الغربه
لا تكسر قلبا ، لا تستمطر جفنا ، لا تزرع غضبه
عرش في الصمت باغنية .. وبقاع النفس اغرس حبه
فانا ساظل هنا كف تلقاك بافراح الاوبه

ونحن نلمس في شعر عبده بدوي الى جانب هذا الهمس الاليف المحبب ، عناية واضحة بالرمز والتصوير . الى الحد الذي يجعلنـــا نقول ان شاعرنا يرسم بالكلمات اكثر مما يكتب بها . كما نجد الصور والرموز منبثة في شعره كله بحيث لا تخلو قصيدة من قصائده مـــن عنصري الرمز والتصوير.. وهو لا يستمد رموزه وصوره واهدافه ايضا من شاعر او اكثر من شعراء الغرب او الشرق ، كما يفعل بعض الشعراء المعاصرين ، ولكنه يستمدها من عالمه الشخصي ، ومشاعره النفسية ، ويترجم بها عن احساسه العميق بمشكلاته الخاصة ، ومشكـــلات مجتمعه ازاء تيارات الحياة المتقلبة ، واعاصيرها الجامحة . وموقف عبده بدوي من الانسان ومن العالم ، موقف الحب والعطاء ، فهو يحب بكل ما في قلبه من رقة ووداعة ، وهو يعطي بكل ما في نفسه مـــن طيبة وخير :

اني من عشت تجـــاورني   وكلانا في الماضي فكـــره
غنانا الغيب فاصبحنـــا   فـــي قلب اغانيه ثـــوره
وعلى الامواج تفرقنـــا   والريح تباعدنا جهـــره
لكنـــي توامك البـــاكي   من يفتح في حب صدره

من عـاد النـور لجبهتـه   مـن لامس في عمـق فجره
لـمـا ضمتنا فـي فـرح   دار تتوشـح بالخضره
دار تحملهـا أغنيـة   ونطـوف بآفاق حـره

وبقدر محبته للانسان والعالم فانه يتألم ويسخط حين يجد المعاني الانسانية وقد غاضت من نفس الانسان ، وماتت في قلب العالم :

العالم أضحى ممتلئا   بجميع تفاهات البشـر
فالاعين لا يلقى فيها   خيط لحنان مزدهـر
والاوجه قد جفت حتى   أضحت كبقايا من حجر
والقلب همـوم ميتة   من نور يأكل في الشعر
والعين زجاج ممقـع   لا يجذب شيئا من صور
والماضي رأس قد أضحى   يتأرجح من حول الذكر
والحاضر وهم ألمسه   فيرى كخريف في شجر

ولان شاعرنا يحب المشاعر الوديعة الطيبة ، والناس الودعاء الطيبين ، فاننا نراه يؤثر قريته التي نشأ فيها بالحب ، ويخصها بالحنين ، ويصور الحياة فيها تصويرا رفيقا جميلا ، نجد فيه الفرح الفرير تارة ، والحزن المرير تارة أخرى .. يقول في قصيدة « القرية الخالدة » :

أبصرت بسنبلها الحبا
والخصب يشق له دربا
والبشر يسير بها ونبا
ان يلق الموال العذبا
والنسمة والفجر الرطبا
فالشعب بها حقل لبى
انسان ممتلىء حبا
أطيار . أوراق . قربى
أبصرت بها نكسو ولدى
وتضم لامسي حلو غدى
في قريتنا

وهنا نلمس الفرحة الفريرة بكل ما في القريه من الخير والخصب ، والجمال والحب ، ولكننا نلمس الحزن المرير من أجل الحياة الخشنة التي يحياها الفلاح الطيب المظلوم في قريته التي لم يكن يملك من أمرها شيئا غير أن ينبت لغيره الخصب والثروة ، ثم يحصد لنفسه الفقر والمسغبة : وذلك حيث يقول الشاعر في قصيدته « شارع في الاسكندرية » :

قد جئته من قرية مسكينه
تغفو على أيامها المخشوشنه
الليل في أعماقها لما غفا
هزته أجنحة الفراش اللينه
والفجر تزعجه الفؤوس .. فيرتمي
من خوفه للافق قبل الاونه
والسنبل الذهبي ينمو ضاحكا
في حقلنا .. لكننا لن نطحنه

وهذه اللمسة الاخيرة « لكننا لن نطحنه » هي من أغنى اللمسات المليء بالحب والاشفاق ، ان يضيق بالمدينة المليئة بضجيج الحياة بالايحاء والتأثير .

ومن الطبيعي ، وقد امتزجت نفس الشاعر بقريته هذا الامتزاج وتحجر الشاعر ، حين اضطرته الظروف الى الحياة فيها ، فيقول في قصيدته السابقة :

حملت قريتي الحزينة في دمي
ومشيت نحو بيوتك المزينه
فوجدت فيها غربة ، ووجدتني
طيرا غريبا ليس يلقى موطنه
فهبطت أعماقي اعاشر بينها
يأسي وخوفي والظنون المزمنه
ووجدتني فوق البشاشة والسنا
كوريقة مصفرة متغضنه
وشعرت اني سوف أسقط .. أنتهي
بين الرياح الثائرات المدجنه

قلنا ان شعر عبده بدوي شعر هادف في روحه وجوهره ، ونزيد هنا ان هذا الشعر الهادف ينساب كما ينساب الجدول الرقيق ، ولا يتدفق تدفق النهر الفياض ، وسر ذلك في رأينا يكمن في نفس الشاعر المليئة بالرقة والوداعة والطيبة ، ومن طبيعة هذه النفس ان تكبح ثورتها في أعماقها ، فلا يظهر منها على السطح الا اثر ضئيل يشبه دخان النار حين يرتفع بعيدا عن دائرة الوهج والاوار ، وشاعرنا يعبر عن هذه النفس حين يقول :

لم أرفع صوتي محتجا   لادين العصر واشواقه
فانا قد غصت بضجته   ومضيت اعانق أعماقه
واتوج بالشمس حياة   تتوهج .. تغدو اشراقه
وأمد جناحا مسحورا   والموت يفتح أحداقه
واليوم وعمري أصداء   وبقايا حلم رقراقه
ألقاني أسعد انسان   يستنبت من شوك باقه
ويدق على الموت بكف   وبكف يحضن أوراقه

فهنا نجد شعورا هو أقرب الى المرارة منه الى الثورة . واشهد اني ما رأيت عبده بدوي يثور في قسوة وعنف ، ولكني رأيته حين يثور ، يتحدث في مرارة عما يضيق به ويسخط عليه .

وقد ساعد على ظهور طبيعة الانسياب في هذا الشعر ، بحر المتدارك الذي يستغرق معظم قصائد الديوان ، وفي هذا البحر من الانسياب والترجح اكثر مما فيه من التدفق والاندفاع ، لان وحداته الموسيقية (التفعيلات) قصيرة ومتماثلة . ونحن نلمس هذا الانسياب في قصيدته الساخطة « رغم كل شيء » حين يقول :

العالم أولم مائدة   يائسة قد ملئت مقتا
وظنونا تهتز ، وحقدا   وضياعا قد لمس الموتا
فالناس به جزر غرقى   تتهاوى .. لا تسمع صوتا
قد جفوا كالشجر الذاوي   وانهاروا اوراقا شتى

وبهذه المناسبة أسوق الى القارىء احصائية طريفة ، ففي الديوان اثنتان وأربعون قصيدة ، منها سبع وعشرون من بحر المتدارك ، والقصائد الباقية موزعة بين الخفيف(٦) والرجز ومجزوئه (٣) والكامل ومجزوئه (٣) والرمل ومجزوئه (٢) والطويل (١) .

والشاعر يستعمل مجزوء الرجز مذيلا حين يقول :

لا تذكري في فرحة عذراء كالضوء الوليد

وانا أستعمله كذلك ، ولكن الشاعرة والناقدة المبدعة السيدة نازك الملائكة لا تستسيغ ذلك بحجة انه لم يرد في شعر العرب . وقد حدثت بيني وبينها مناقشة في هذا الصدد دون ان يقتنع احدنا برأي الاخر ، والذي أراه ان التذييل والترفيل جائزان في الرجز لانهما قد وردا بكثرة في الشعر المعاصر بل في شعر طائفة من الشعراء تمتاز باحساسها الموسيقي المرهف ، ولانهما يمنحان النغم بسطا وامتدادا بحيث يلائم الوانا خاصة من المشاعر والانفعالات ، اما التعلل بعدم ورودهما فيما قالته العرب من بحر الرجز ، فليس ذلك بشيء ، لان المعروف ان ما وصلنا من شعر العرب ليس الا القليل بالنسبة الى ما قالوه من شعر .

وبصفة عامة ، فان الشاعر يميل الى الاوزان القصيرة ، وهذا الميل هو احدى سمات الشعر العربي المعاصر المتجدد .

وفي ختام هذه الكلمة أحب أن أبدي بضع ملاحظات لا تغض من الديوان او من صاحبه ، وأجملها فيما يلي :

١ ـ ان شعور عبده بدوي بافريقيته شعور قوي عميق حتى ليطغى في ديوانه هذا على شعوره بعروبته !

٢ ـ ان شاعرنا حتى في شعره الملتزم ، يغوص في اعماق النفس اكثر مما يجوب رحاب الكون ، ويصعد الى افاق الوجود .. انه يغني كما يغني العصفور ، اكثر مما يحلق كما تحلق النسور .

٣ ـ شعره العاطفي يكاد يخلو من توهج العاطفة ، وتوقد الانفعال، ولكنه يعوض عن ذلك بالصور الجميلة ، والموسيقى العذبة ، والكلمات الناعمة ، ومشاعر البراءة . والشاعر هنا في حاجة الى ان يخوض تجربة من تجارب الحب العاصف الملتهب ، ليتوهج شعره العاطفي ويتقد .

٤ ـ في قصيدة « حتى لا يسقط القمر » ورد هذا البيت :

وغدا في القلب وفي عقل   وبعزم الشعب وفي القدره

وعطف النكرة على المعرفة هنا لا يوجد ما يسوغه ، والتنكير يفيد الافراد ، وذلك يضعف المعنى .

٥ ـ في قصيدة « ثم يسقط القمر » بدأ الشاعر بمجزوء الرجز حين قال :

لا تلتفت لبابنا   ان درت حول المنحدر

ثم ختمها بمجزوء الكامل سهوا حين قال :

اني امثل فارسا   متكبرا صلبا عنيد

ومن قصيدة « رغم كل شيء » نجد هذا المقطع :

لا شيء له معنى ابدا   في هذا العالم لا شيء

لا شيء له ظل ابدا   قد يلقي بعض الفيء

والبيت الثاني ينقص تفعيلة عن سائر الابيات ، وواضح ان الشاعر لم يكتب قصيدته على نظام الشعر الحر ، ويمكن ان يلتئم البيت مع غيره حين نقوله على هذا النحو :

لا شيء له ظل ابدا قد يلقي فنا بعض الفيء

ولعل المطبعة هي المسؤولة عن ذلك وليس الشاعر ، على اني احب ان اشير هنا الى ان بحر المتدارك كثيرا ما يخون الشعراء ويخدعهم ، فليحذروه حين ينظمون فيه ، وليراجعوا قصائدهم بيتا بيتا .

واخيرا فاني اعتبر عبده بدوي وجها اصيلا مشرقا في شعرنا العربي المعاصر ، وهو شاعر متجدد بافكاره ورموزه وصوره وكلماته وبناء قصائده ، وبموسيقاه التي يلائم بينها وبين روح العصر ، وذوق المعاصرين ، وبما ادخله في شعره من عنصر الدراما الذي يعتمد على المونولوج الداخلي حينا ، وعلى الديالوج حينا اخر .

واشهد اني احب صديقي عبده بدوي واحب شعره ، ولكني اشهد ايضا اني جعلت هذا الحب بمعزل عن رايي في الشاعر ، وفيما يضمه هذا الديوان ؟

ابراهيم محمد نجا

النرجسة

واذا همت نداءات تعرت في سماك
واذا همت .. وضمتها يداك
ستاويك اكف السهد ان غامت لديا
انا ادري . انها فيك وفيا
غير اني ، حين يحبو الدفء في روحي ظلالا
من رؤاك
تنهض الاغوار في رد الاسار
انا ادري انه يرهق اعماق الكوى روحا خفيا
ذلك الملعون يحيا في رؤانا
انه لا زال يحيا في مرايانا
زمانا

***

ذلك المنشد من شوق الى بركة حب
يغزل الاوهام من لون رؤاه
سمت انظاره انظاره !
عينه في عينه !
ويداه تورقان الشوق يمتد لمرماها خيال
من مرايا الماء بالشوق يداه
اترى تنكره !
ذلك الناشر للحب شباك
انه فيك وفيا
اوصد الشوق وما ضمت يداك

***

اترى تفهم ما فينا
خفايانا .. أسانا
يثقل السهد عيون الليل ، لا يثقل عيني
ابدا .. من قال هذي الريح قد تترع لحني ..
اترى تدري باني
حلكة الظلماء مني
يا عناقيد كروم .. سيجت عتبة داري ..
انا شيء جرحته الريح في يوم بليد
مات في الظل والصيف تراءى
ينثر الاحلام فينا .. في خفايانا حنانا
غير انا ..
نتصداه برعب
ذلك المنشد من شوق الى بركة حب
ذلك الناشر للنفس شباك
انه فيك وفيا
اوصد الجرح وما ضمت رؤاك

دمشق   **آمال الزهاوي**

تتمة : لكي لايبتلعنا التيار

على شعب ما ، هو انتصار على شعوبنا بالذات ، وان كل انتصار نحرزه على الاستعمار يشكل بحد ذاته انتصارا على الاستعمار في كل جبهاته .

واما سبيلنا الى ذلك ، فمنهج ، في اعتقادي ، عقلاني و رافدين اثنين يتمثلان باسلوبين للعمل والتفكير.

الاول : يقوم على اعتبار الشعب هو القائد ، وهو الجندي ، وهو المبتدا والخبر من كل حدث يستشرف صيرورة ، ومن كل صيرورة تقدم لطور تطوري جديد . ومن هنا وجوب تنظيمه وتفتيح طاقاته جميعا .

والثاني : يقوم على منهج علمي ، يقضي على الطوباويات والغيبيات عن طريق التصميم القادر النابع من نظرة صحيحة الى العالم ، تمثل مجمل المفاهيم عن الحياة، عن العالم كله ، عن ظاهراته واحداثه ، وتحدد موقعنا من العالم لكي نؤثر في احداثه ، ونسهم في نضاله التحرري.

وهذا ، لعمري ، لا حدوث له الا بتبني وانتهاج مبدأ الاشتراكية العلمية . ان شعوبا كثيرة في العالم ، ونحن منها ، تناضل الاستعمار لتبني حياتها وتقرر مصائرها . وهي لن تجد في طريقها الانتصارات العظيمة وحسب ، بل ستجد ايضا صعوبات النمو اليومي . وفي هذه الظروف لا بد من معارف عميقة ملموسة يعطيها العلم المعاصر . فالاعمال والمنجزات العظيمة تقتضي اعظم الطاقات ، طاقات الشعب بأسره . وبدون الايمان المطلق بعدالة المثل الاشتراكية تستحيل ايضا الاعمال العظيمة التي تتحقق في مجرى البناء الاشتراكي . فالاشتراكية العلمية تربي هذا الايمان الراسخ بحتمية الانتصار في العالم اجمع . كما ان هذا الايمان ينبثق من المعركة العميقة للقوانين العامة للتطور الاجتماعي ، هذه المعرفة التي شمخت بناء اشتراكيا عاليا في هذا العصر ، وامدت بالقوة القادرة جميع الشعوب التي تناضل لبناء حياتها الجديدة .

اجل ... تلكم حال الامم والشعوب في مجال توكيد ذاتها ، وتوطيد شخصيتها . تشبك الاكف بالاكف ، وتعد للقوة الباغية قوة واعية اعظم قوامها الامثل العنصر البشري الجديد . وتجبه النكبة بالتصميم والعمل الفعال.

وتلكم حالنا نحن ، حكومات وشعوبا عربية ، قبل العدوان الاسرائيلي وبعده . فلقد عانينا عبر تاريخنا المديد ، من كل المحن . غصنا في كل البحور . وتقلينا في كل القدور . وما علينا الان سوى ان نخرج من لجج الدماء طهارى بين الطاهرين ، ماسحين عن وجوهنا غبار الوقيعة والهزال . نازعين من صفوفنا عناصر الخديعة والنكال . ولنعلم بان العدو الجاثم على تخومنا لاشبه بالوباء الساري الذي لا يتفادى شره بغير استئصال جذوره الضاربة بعيدا في تربة الاحتكارات الاستعمارية ، عدوة الشعوب العربية ، وكل الشعوب .

ميشال سليمان

التربية وطريقنا الجديد الى النصر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ ـ

وصناعة الالبان التي اصبحت اكبر مصدر للثروة في الدانمارك ؟ لقد تم للفلاح الدانماركي ذلك بفضل القدرة على التغيير والتجديد التي تخلقها الثقافة وبفضل القدرة على الانتقال السريع من شكل من اشكال الانتاج الى سواه بسبب المرونة التي يولدها التعليم .

الم يذكر كذلك مؤرخو الاقتصاد ان التقدم الكبير الذي تم في اليابان من دون سائر بلدان اسيا منذ نهاية القرن التاسع عشر يرجع الى القضاء على الامية قضاء شبه كامل ؟

وفوق هذا وقبل هذا ، ألم يبين بعض المربين ان الصله وثيقة بين تعليم الكبار وتعليم الصغار ، وان الصغار الذين يتلقون تعليما ابتدائيا او قريبا منه كثيرا ما يعودون الى الامية من جديد اذا كانت البيئة التي يحيون فيها جاهلة . وبذلك يقع هدر كبير في الجهود التي نقوم بها لتعليم الصغار حين يعود قسم كبير منهم اميين بعد ان انفقت الدولة على تعليمهم ما انفقت .

وهل من جديد القول ان نذكر ان الامية انواع ، وان الجهل بالقراءة والكتابة ليس اخطرها وان يكن من اهمها . فهنالك الامية الصحية والامية المهنية والامية الاجتماعية ، وكلها اعباء ثقيلة تجعل قدرة المجتمع على التقدم وعلى النضال وعلى التغيير محدودة ضعيفة .

غير انه لا بد من كلمة تقال في هذا الصدد : لئن كانت مكافحة الامية والثقافة الشعبية امورا ضرورية ، فهي لا تؤتي ثمراتها وقد تنقلب الى جهود ضائعة اذا لم نضع خطة كاملة لذلك ، نتميز عن طريقها الفئة الاجدر بأن نكافح اميتها،ونضع منهاجا طويل المدى واسع النطاق، ونصطفي الاساليب الصالحة لتعليم الكبار . وان لم نفعل فشلت جهودنا وذهب الكثير منها ادراج الرياح .

ان تنمية العنصر البشري ، تنمية الكثرة الكاثرة من ابناء بلادنا ، والجماهير الفقيرة المحرومة من النور والتي تكون حوالي ثلاثة ارباع سكان هذه البلاد ، مطلب اساسي بدونه لا تتحقق أي تنمية حقة ، وتظل عجلة البناء والتصنيع والتقدم والتقنية عجلة معطلة الى حد بعيد . وخطأ ان نزعم ان تربية الكبار هذه ينبغي ان نبدأ بها بعد الانتهاء من تعليم الصغار ، اي بعد اتاحة فرصة التعليم الالزامي لجميع من هم في سن التعليم ، وبالتالي بعد الانتهاء من القضاء على المنبع الاصلي للامية ، نعني المتخلفين عن التعليم من الصغار . فالفرضان في الواقع ، نعني تعليم الصغار وتعليم الكبار ، ينبغي ان يسيرا جنبا الى جنب ، وكل منهما يخدم الاخر كما بينا ، كما ان اغراض كل منهما مباينة لاغراض الاخر .

(٧) ومن بدهيات الامور في النهاية ان نتحدث عن **اهمية التخطيط من اجل هذا كله** . فالتخطيط اليوم هو الترجمة العملية للعمل المبني على العلم . واحوج ما نحتاج اليه **ان نتقن العمل البعيد المدى** وان نجيد التخطيط لغدنا ونترك العمل كفافا يوما بيوم . ان معرفة المنطلق والمسير والمصير سبيلنا الاساسية الى سائر اهدافنا . وان الارتجال والاخذ باسلوب النفس القصير داء الادواء في نهجنا .

ولا بد أن نجاري في هذا الميدان روح العصر الحديث التي تفرض ان نعد لكل امر عدته قبل حين،وان نرسم اهدافنا ونرسم وسائل الوصول اليها قبل امد . ولا بد ان نقول هذه الحقيقة المرة وهي ان التخطيط لخلق دولة اسرائيل منذ اكثر من نصف قرن (منذ ايام هرتزل وبيانه الشهير عام ١٨٩٦) هو الذي يسر في النهاية خلق هذه الدولة الغاصبة .

والتخطيط الذي نرجوه لا يقتصر في الواقع على ميدان دون اخر ، بل قوامه بالذات ان يكون تخطيطا مترابطا متكاملا ، نعني اقتصاديا واجتماعيا وتربويا . فالخطة الاقتصادية ينبغي ان تكون متكاملة مع الخطة التربوية والاجتماعية ، والعكس بالعكس . والتخطيط لا يبلغ مداه الا اذا كان شاملا . وما دمنا في ميدان التربية لا بد من القول ان الخطة التربوية ينبغي ان تقوم معظم اهدافها على أساس تلبية حاجات السوق الاقتصادية والاجتماعية من الخبراء والفنيين والاختصاصيين في شتى المجالات ، وعلى اساس خدمة اغراض التنمية عن طريق اعداد الكفاءات الضرورية لها . وقد سبق ان اشرنا الى ذلك .

ان التخطيط هو المساعد الحقيقي لكل هدف ولكل ايديولوجية . انه هو الذي ينقل الهدف من مرحلة الشعار الى مرحلة التطبيق ، وهو الذي يجنب الايديولوجية مخاطر اللفظية والمزاودة والتهور او مخاطر التصلب والتجمد على حد سواء .

انه هو الذي يرسم خارطة الواقع والممكن والمستحيل ويضع الاساليب الكفيلة بتحقيق ما يمكن تحقيقه . انه هو الجدير بتحقيق امنية شوقي :

لا تتركوا مستحيلا في استحالته
حتى يبين لكم عن وجه امكان

والتخطيط التربوي خاصة ـ ونقول هذا مرة اخرى ـ خير عون لسواه ، بوصفه يخطط من اجل اعداد اثمن عامل في اي تقدم واي هدف ، نعني العامل الانساني .

ولكن هذا التخطيط بدوره ليس مجرد كلمة تقال او لفظ مستحدث يجري على الالسن . انه خبرة وفن ودراية . انه بدوره في حاجة الى تخطيط . وكثيرا ما نكتفي من التخطيط بالاسم ، وكثيرا ما ينقلب التخطيط الى نقيض الغاية المرجوة منه ، عندما يكون تخطيطا جاهلا بالوسائل الفنية الحديثة ، غير مدرك لمبادىء العمل في هذا المجال ، وللتواصل بين التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والتربوي بوجه خاص .

فقد يؤدي طغيان النظرة الاقتصادية الخالصة في التخطيط الى مخاطر كبيرة ، على رأسها ان ننسى ـ كما

سبق أن قلنا – أن الاقتصاد مجعول من اجل الانسان وليس الانسان من اجل الاقتصاد ، وان الحرص على التنمية الاقتصادية لا يجوز ان يؤدي الى استعباد الانسان والى عبودية جديدة باسم الاقتصاد .

والعكس صحيح . فالخطة التربوية التي لا تضع على رأس اهدافها تلبية حاجات الاقتصاد تؤدي الى شلل الثقافة وعجزها وتكوين مثقفين عاطلين و « افساد » طبيعة الانسان وتشويهها حين نفصله عن وظيفته الانسانية الاصيلة ، نعني كونه عاملا وكونه انسانا يشغل عملا مفيدا في مجتمعه .

وفوق هذا وذاك لا يجوز ان ننسى ان هنالك اهدافا اجتماعية للتخطيط ، بدونها لا يفلح التخطيط الاقتصادي التربوي ، فهنالك مفهوم العدالة وتحقيقها ، وهنالك الطبقات الاجتماعية وضرورة القضاء عليها ، وهنالك الرفاهية والصحة والسعادة الخ .. ولو صح ان نهمل الاهداف الاجتماعية لحق لنا ان نقول ان الوباء او الامراض قد تكون مفيدة من الوجهة الاقتصادية لانها تخلصنا من عدد من الافواه الجائعة . ان التقدم ليس مسألة اقتصادية وفنية فحسب ، بل هو مسألة تطرح قضية الحضارة كلها ، قضية الانسان واحترامه وتوفير العدالة له وضمان رزقه وصحته وحمايته من الفئات الاجتماعية التي تهدد نموه بل وجوده احيانا .

وقد بين باحث هو « آدم كورل Adam Curle » – نتيجة لتجربته كخبير اجتماعي في بعض بلدان افريقيا وآسيا ولا سيما باكستان – **اهمية العنصر الاجتماعي** في تنمية هذه البلدان وضرورة تغيير البنية الاجتماعية كلها ، تلك البنية التي تعرقل التطور . واشار خاصة الى الدور الذي تلعبه سيطرة مبادىء المساواة والعدالة الاجتماعية في التنمية الاقتصادية لتلك البلدان . كما وقف عند الصلة الوثيقة القائمة بين البنية الاجتماعية السياسية وبين الانتاج . وانتهى من وراء ذلك كله الى اهمية تربية الكبار واهمية استخدام وسائل « تنمية المجتمع » واهمية الديمقراطية في رفع مستوى تلك البلدان المتخلفة وفي تحقيق النمو الاقتصادي .

وهكذا فالمسألة « مسألة التخطيط » ليست اقتصادية ولا هي تربوية خالصة ولا هي اجتماعية ، وانما هي اقتصادية وتربوية واجتماعية معا .

وما دمنا بصدد التخطيط في البلدان العربية خاصة ، هذه البلدان التي تعتمد على الزراعة اعتمادا اساسيا والتي لا بد ان تنطلق من التنمية الزراعية من اجل الانطلاق نحو التصنيع ، لا بد ان نولي اهتماما خاصا للتخطيط في ميدان الزراعة والاصلاح الزراعي . فالثروة التي تنجم عن رفع مستوى الزراعة ثروة لا بد منها للقفز نحو التصنيع ونحو المجتمع المصنع . وهذا ما حدث في البلدان المتقدمة نفسها ، اذ كان نمو الثروة الزراعية منطلقا اساسيا ساعد على انتهاج طريق التصنيع .

والمجال ليس مجال الحديث عن معالم الخطة الزراعية المنشودة ، وحسبنا ان نذكر من قبيل المثال ما كان لتخطيط الزراعة في اسرائيل من دور كبير في التغلب على مشكلاتها الاقتصادية . وما اولته من عناية خاصة لمشكلة « التخطيط الزراعي المحلي » تبعا للمناطق المختلفة .

خاتمة :

ولا شك ان خاتمة المطاف لهذه الاهداف كلها ان نقوى **على تكوين الروح العربية الجديدة بخلق المجتمع العربي الموحد .** فالهدف العربي هدف شامل من اهداف التربية يلم سائر الاهداف ويوحد بينها ويبرر وجودها . ولا بد من الانطلاق دوما وابدا من هذه الحقيقة التي يؤكدها الواقع الحي ويجأر بها : وهي ان المصير العربي واحد وان العمل له لا بد ان يكون واحدا . قد تختلف سبل الوصول الى هذا المصير العربي المشترك ، وقد تكون هنالك صيغ عديدة لتكوين المجتمع العربي الموحد وقد تتباين الانظمة السياسية التي من شأنها تحقيق مثل هذه الوحدة . والذي يحكم على هذه الصيغة وعلى سبيل الوصول وطريق المصير الواحد هو الواقع العربي بمقوماته وامكانياته والتطور الذي يمكن ان يحققه والخطوات التي يتقبلها كيانه . ولكن اصل الاصول يظل على اية حال ان سلاحنا الاكبر في معركتنا من اجل البناء الداخلي ومن اجل التغلب على العدو المشترك يظل دوما وابدا **تكوين الجيل العربي انطلاقا من روح تربوية موحدة هي الجديرة بأن تطلق الروح العربية الموحدة والكيان العربي الموحد .** فعلى الرغم من ان مقومات الوحدة واصولها التاريخية والراهنة قائمة في البلاد العربية وان الشعور المشترك بالوجود المشترك هو شعور الجماهير الغفيرة في البلاد العربية يظل من الصحيح ان هذه المقومات وهذا الشعور لا تبني من تلقاء ذاتها الكيان العربي المنشود ولا تؤدي بضرب من الجبرية الى بلوغ هذا المستقر . وهنالك دون شك فرق اساسي دوما بين الامة كوجود عفوي يملك بذور الوحدة ومقوماتها وبين الحركة القومية التي تعبىء قوى الوحدة الكامنة في الامة وتغنيها وتهب لها مضمونها كي تنقلب الى كيان واقعي سياسي . وليس المجال مجال الحديث عن وسائل تكوين الروح العربية الموحدة لدى جيلنا العربي ، وهو موضوع طالما جاسه الرواد وطرقته الاقلام . غير ان الذي يعنينا ان نقف عنده ونؤكد عليه – ما دمنا في ميدان التربية – هو ان الوسائل المجدية للوصول الى هذا الهدف العربي المنشود لا بد ان تنبع من الاهداف التربوية التي اشرنا اليها عبر هذه الكلمة . فالعمل العربي القادر حقا على خلق روح عربية موحدة راسخة لا بد ان ينطلق من الاساس العلمي ، ولا بد ان يكون قوامه الايمان بالعقل ، وبالعقل المستقل ، وبروح الحوار ، وبالتخطيط وبسائر الاهداف التي اشرنا اليها . **لا بد في عملنا لبناء الروح العربية الموحدة ان نغادر**

الاسلوب السحري العاطفي في العمل ، وأن ننأى عن جعل هذا العمل تغنيا بالماضي والاجداد او ايمانا بالقدره الخارقه للافراد والافراد القلائل على تكوين المجتمع العربي المنشود . لا بد ان ندرك ان العمل العربي هو عمل كل فرد من ابناء الامه العربية وانه عمل يومي ومحسوس له قوامه وله عناصره وله خطته وما هو مجرد عبير تتنسمه في الهواء او قدرة سحرية نعتمد انها تنطلق انطلاق المارد الجبار . لا بد ان نحارب اسطورة البطل القادر وحده على ان يصنع كل شيء والمتحمل وحده اعباء المعركة ، كما نغادر اسطوره الايديولوجيه الفارغة المتجمده التي تكتفي من العقيده بالشعار وتقيم انفصاما بين هذه العقيدة وبين الواقع ، وتحسب ان مجرد تقرير العقيده يعني تطبيقها ، وننسى **الفرق الهائل بين رسم الايديولوجيه وبين رسم خطوات تنفيذها .**

ان الجيل العربي الجديد القادر على بناء المجتمع العربي الموحد — ايا كانت صيغة هذه الوحده — هو الجيل الذي يؤمن بالعلم لا بالمعجزات وبالعمل الدائب المخطط لا بالامنيات . هو الجيل التقدمي الذي يدرك ان التقدمية بشتى عناصرها العلميه والفكريه والتقنية هي اداة تكوين المجتمع العربي المنشود . هو الجيل الذي يدرك ان التراث العربي لا بد ان يرتبط ويتصل بتراث القرن العشرين . هو الجيل الذي يعي هذه الحقيقه : وهي ان الحضارة العربية في اوج نهضتها كانت اولا وقبل كل شيء حضارة تعنى بالعلوم وبالعقل التجريبي وانها هي التي اطلقت للعالم قبل « روجيه بيكون » و « فرنسيس بيكون » وغيرهما روح الاستقراء والتجربة العلمية والاستلقاء في احضان الطبيعة للتنقيب فيها ومعرفتها ومعرفة قوانينها واستخدامها . **وهذه الروح العلمية التجريبية التي اطلقتها الحضارة العربية — من دون حضارة اليونان وفارس وغيرهما — هي القمينة بأن تغذي الروح العربية من جديد** بعد طول غفوة ورقاد وبأن تصل المجتمع العربي بمجتمع التقنية والآلة والصناعة ، بمجتمع الابداع الذي يستخرج اكثر فاكثر طاقات الانسان ويسلطها على الكون ويتحدى بها الواقع .

ان الجيل الذي ينبغي ان ينبثق من قلب هذه النكسة المؤلمة ليصنع المستقبل المنشود هو جيل الادراك العلمي لمضمون التغيير الاجتماعي والسياسي واساليبه ، لا جيل الشعارات الخاوية او التصفيق المطمئن او الاتكالية الكسولة . هو جيل الثورة على الديماغوجية وعلى سياسة المزاودة وعلى روح القطيع . جيل احترام الانسان كانسان ، جيل الحوار والتفاعل بين الافكار والقيم . هو **الجيل المؤمن بالديمقراطية** كأساس لكل نهضة ، على ان يتحد فيها معنياها المرتبطان ارتباطا عضويا ، نعني معنى الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية .

وعندما تضع التربيه لنفسها هدفا تكوين مثل هذا الجيل فانها بذلك وحده تستطيع ان تطمئن الى المستقبل لان عملها يعني بالذات انها اطلقت البذره المنتجه لمجتمع قادر على ان ينمي نفسه بنفسه ، بعد ان اطلقنا مارده الاكبر مارد الفكر الحر التقدمي القادر دوما على مزيد من التفتح . انها بذلك تشعل شراره النمو القادره على الاستمرار ، وتغزل نسيج التنميه الذي يملك قدره التحرك الذاتي والتراكم . فالمهم ليس ان نخلق واحات من العمل التقدمي ومن مشروعات التنميه منثوره هنا وهناك وسط صحراء ترمقها شزرا **بل خلق الوقود المحرك للمجتمع كله** ، القادر على ان يجعل هذا المجتمع مالكا لمقومات الانطلاق المستمر والتقدم المتراكم . ولا يفعل مثل ذلك سوى الانسان . سوى بناء العنصر الانساني الذي اطلقنا لديه روح التفتح والعقل المبدع واليد الصناع والخبره الفنيه الدقيقه وروح الحوار والتفاعل وعقليه العمل الجماعي المشترك والتمرس بالنضال ومغالبه الواقع مغالبه علميه .

وبوجيز العباره ان معركتنا هي قبل كل شيء معركة ضد التخلف بكل معانيه . ولئن كانت سمات التخلف معروفه اطال في وصفها الاقتصاديون وسواهم ، فان المهم امران : اولهما تبين سمات التخلف وطبيعتها واسبابها في بلادنا العربية ، وثانيهما معرفه وسائل التغلب على سمات التخلف هذه ، معرفه نقاط البدايه من اجل كسر حلقة التخلف ، معرفه الخطوات اللازمة وترتيبها ورسم الاولويات وادراك ما هو اولى بأن يقدم وما هو قابل للتأخير والتأجيل . واذا كنا نشير الى الامر الاول وهو معرفه اسباب التخلف في بلادنا لا في أي بلد فذلك لان رأس عملنا في سبيل مجتمعنا المنشود لا بد ان ينطلق من **الايمان بكيانه الذاتي المستقل وطريقنا الخاص الى التغيير الاجتماعي والاقتصادي** ، ذلك الطريق الذي لا بد ان ينبثق من بنية واقعنا ومن حرصنا على الانبعاث بقوانا الذاتية قبل كل شيء ، **وانكارنا لاي معركة سلاحها الاول لا يستمد من طاقات العرب انفسهم** ، وتنكرنا بالتالي لاي معنى من معاني التبعية أيا كان نوعها ولالقاء اعباء تقدمنا على سوانا . ان اللقاء بين التجارب العالمية والتعاون بينها من سمات العصر ما في ذلك ريب . ولكن اللقاء والتعاون لا يتخذان معناهما الحقيقي الا اذا قام بين دول لكل منها كيانها الذاتي المميز واستقلالها الكريم . والكيان القادر على ان نقتدي بتجربة الاخرين هو الذي يملك اولا مقومات الكيان واعصابه وشرايينه التي تستطيع ان تمتص اطعمة الاخرين ورفدهم . **والكيان ينبغي ان يكون شيئا كي يستطيع ان يتفاعل ويقتدي بتجربة سواه** . واذا كنا بعد ذلك نقف عند الامر الثاني وهو رسم الاساليب ووضع الخطط والخطوات الكفيلة بالتغلب على تخلفنا ، فذلك لان من بدهي القول ان نذكر كرة اخرى ان الفكر والعمل

ينبغي ان يتكاملا وان الخطة العلميـــة الصحيحة هـــي بالتعريف وصنع مجموعة من الاهداف ورسم السبـــل والتدابير اللازمة للوصول الى تلك الاهداف ...

***

هل يقول القاريء من جديد ان هذه الاهداف التربوية التي نجد فيها طريق خلاصنا اهداف تحتاج الـــى نفس طويل ووقت مديد وجهد قد تنوء تحته الاكتاف ؟ ان هذا ما نريده وما نقصد اليه . اننـــا **نريد ان نؤكد مـــرة اخرى الايمان بالعمل العميق وان يمد طويلا** ، وان نؤكد ضرورة البدء من البداية الصحيحة . وهذا هـــو جوهر الانقلاب الجذري الذي ينبغي ان نحدثه فـــي عقليتنا واسلوبنا ان المتعجل هو كالمنبت (لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى) . وان اجشع القوم اعجلهم . ولا بد ان نطلق طلاقا بائنا مبـــدأ « كل شيء او لا شيء » . فهو المبدأ السحري بعينـــه .. ان صاحب هذا المبدأ يريد ان يصل الى كل شيء غـــدا وبين عشية وضحاها ، كالطفل الذي لا يصبر علـــى شراء دميته المحببة . وهو اذ لا يستطيع بلوغ ما ينشد وكل مـــا ينشد غدا او بعد غد يكتفي بالنقمة والتبـــرم واليـــأس والضياع بدلا من انه يحاول الوصول الى هدفه من خلال عمل يومي متصل ونضال دائب طويل النفس يعد للامـــر عدته بروح مطمئنة واثقة لانها تدرك الطريق وترى العقبات وتناضل في سبيل قطع المسافات وتكسير الصعوبات . ولعل خير شعار نتخذه شعار « لافونتين » فـــي قصته الشهيرة ، نعني الارنب والسلحفاة ، حين قال : « تعجلوا ولكن بتؤدة وبشجاعة لا تعرف الكلل » . وهذا كله يفترض قيادة للمعركة تؤمن بهذه الاهداف ويترابط لديهـــا الفكر الواعي بالعمل السياسي ويتفاعلان ، بل يقود لديها الفكـــر السياسة وتغدو السياسة عندها جزءا لا يتجزأ من الفكر في حال تحركه ونضجه واتضاح اهدافه . واذا كان خير المفكرين ليس بالضرورة خير السياسيين فمن الحـــق أن السياسي لا بد ان يكون من المفكرين ولا بد ان يتحد لديه الفكر مع السياسة ...

هذه صوى شتيتة حاولنا ان نزرعها هنا وهناك عبر طريق الخلاص . ولا سيما ان حديث النكسة حديث معقد لا بد ان تسهم في توضيحه عقول كثيرة واقلام عديدة . غير ان الذي لا مناص منه ان تبدأ الاقلام فـــي ان تجوس ارض المعركة وتدرك ابعادها وتعمل شيئا بعد شيء علـــى توضيح معالم الطريق . الشيء الذي لا مناص منه خاصة بعد هذه النكسة الاليمة ان يقوم نقـــد جريء وايجابـــي لاسباب النكسة يكون نقطـــة الانطلاق لتوضيح المعالـــم المحسوسة والتفصيلية للطريق الجديد . المهم ان لا يبقى الفكر بعد النكسة كما كان قبلها محجوب الضياء معطـــل القوى تابعا لا مبدعا مثقلا بارهاب التيارات الديماغوجية التي تستغل الفساد الموجود وتتخذ منه سندها وقوتها ، بدلا من ان تقف بجرأة امام هذا الفساد لتعالجه وتداويه شيئا بعد شيء ، ولتجعل مـــن التأييـــد اللاواعي تأييدا يندس فيه بالتدريج نور الوعي والفهم وتصلحه روح النقد والحوار والاستقلال والموضوعية التي علينا ان نبدأ ببثها بين الجماهير ولدى الاجيال الناشئة علـــى اوسع نطاق ممكن . **ان الجرأة الصادقة فـــي تحليل تجاربنا مهمـــة مقدسة ينبغي ان يضطلع بها المفكرون فـــي هذه المرحلة .** وكل احتماء بالاساليب التقليدية القديمة واصرار علـــى معالجة الامور بروح التعمية والغموض والدعاوة السطحية معناها ان يخون المفكرون فكرهم وقضيتهم وان يؤثـــروا السلام على خوض المعركة ، معركـــة المصيـــر الـــذي يستصرخنا من الاعماق ويطلق صيحات الاغاثة المدوية .

بيروت **الدائم**

الكــابوس

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ ـ

وعيناه جامدتين ، ويضعه في وعاء كبير تتصاعد منه الابخرة ، ثم يخرجه منه بعد قليل والماء يقطر منه ، ويذهب به نحو الدولاب الكبير الـذي كان يدور بسرعة ويضعه فوقه ، فتضرب الرؤوس المطاطة الدوارة جسمه ضربات متتابعة وتسلخه ، فيتحول في لحظات الى قطعة من اللحم . ثم يقذف به الى امراة في يدها سكين ايضا ، ومـا ان تلقفته حتى قطعت اوصاله واخرجت احشاءه ثم وضعته في كيس لماع شفاف .

وقال صاحبي مستانفا كلامه :

ـ لقد مات . انظر الى زملائنا . انهم لا يدركون ذلك ، وقـد رفضوا الاصغاء الي حين اخبرتهم بما يحدث حولهم مـن امور هائلة . وهم ما يزالون يتشاجرون ويتصارعون وينبشون الارض بحثا عن الطعام، انهم لا يفهمون .. ولكن سياتي دورنا قريبا . سينتهي كـل شيء . كل شيء ..

فقلت له وانا ما ازال مصعوقا :

ـ اتعني انهم سيذبحوننا نحن ايضا ؟

فقال وهو ينظر الي بعطف واشفاق :

ـ الذي يحزنني هو انك ما تزال صغيرا[1] ، ولم تعش حياتك بعد . انظر ماذا فعل بك حبك للحرية . كان عليك ان تجتاز مراحل حياتـك كما فعلت انا وترضى بقيودها الصغيرة ومتعها المحدودة ، فتنتقل مـن باب الى باب ، من بيت الى بيت ، من حياة الى حياة ، ومـن يدري ، فربما كنت ستوفق مثلي ، فقد عشت حياة حافلة بالحب والمـرح ، وكررت كل شيء الف الف مرة حتى مللت ولم اعد اريد المزيد من هـذا التكرار ولم يعد في وسعي على كل حال ان استسيغ الحياة الان ، بعد ان ادركت النهاية وعرفت ما ينتظرنا من مصير ...

وبينما كان صاحبي يتحدث ، امتدت قبضة الرجل اليه ، وابتعد به نحو البرميل ، ونظرت اليه فرايت عينيه وهما تحملقان فـي عيني بنظرة حزينة كئيبة يائسة ، ثم امتدت السكين الـى رقبته ، ومـرت لحظات ، واختفى جسمه المرتجف المرتعد في البرميل ، وظلت ساقـاه ترفسان ، ومرت المشاهد كذلك ، وكان عدد الرجال في الغرفة يتناقص شيئا فشيئا ، وهم يغادرونها حاملين زملائي في اكياس لماعة شفافة . ولم يبق احد في الغرفة غير الرجل ، كما لم يبق احد فـي الزاوية غيري انا ، ثم سار الرجل نحوي وقبض على ساقي ، وشعرت بشلل غريب يتسلل الى كياني ، وارتسمت السكين في عيني ، وكانت ما تزال تقطر دما في يده وصوت الآلة الرهيبة يصم اذني ، واستسلمت لقبضته وانا العن الحرية والحياة والنور وكل شيء ، ولكنني انتبهت بعد قليل، في لحظة هائلة من الادراك المرعب ، وانا انتظر ان تقطع السكين رقبتي، ورايت لدهشتي انه كان يغادر الغرفة ، ويخرج بـي الى النور مـن جديد . ثم سار بين صفوف الابنية حتى وصل الى باب مـن الابواب المغلقة ، وفتحها ودخل ، ثم القى بي خلف حاجز من الحواجز ، واختفى، بعد ان اغلق الباب خلفه .

ومرت لحظات ، استعدت زمام نفسي خلالها ، ثـم نظرت حولي . كان زملائي القدامى ينهمكون في تناول الطعام ، وكنت انـا اقف فـي الزاوية متاملا ذلك الحشد المتصارع ، ناظرا الى نفسي ، والى الباب. لا بد ان ذلك كله كان كابوسا رهيبا ، واسعدني انـه انتهى .. ولكـن مشكلتي الان هي انني لا اعرف هل كان ذلك كابوسا حقا ام ان ذلـك كله كان قد حدث فعلا وانه سيحدث حقا ، سيتكرر كمـا رأيته ، ثـم ان النور ما يزال في أوله ، وربما كان ذلك كله وهما مـن اوهام الظلام اللعين الذي لا اعرف لماذا يخيفني كل هذا الخوف ويجعلني احلم بمثل هذه الكوابيس المفزعة . فقد كانت تلك جميعا اشياء غير معقولة ، غير مبررة ، السكين .. والدم النازف .. والسيقان الرافسة .. والآلـة الرهيبة ، تلك الآلة الرهيبة بالذات ، كم هي غامضة . اننـي ارتجف ذعرا وفزعا ، وفي الوقت نفسه اشعر بسعادة هائلة لانني مـا ازال موجودا بين زملائي القدامى ، والاوعية ملأى بالطعام والشراب ، وزميلـة فاتنة من زميلاتي تنظر الي بين حين واخر .. كم هـي جميلة .. ان عينيها تنسيانني كل شيء اخر .. حتى الطعام ، حتى الشراب ، حتـى حلم الحرية الرائع ! حتى الكابوس الفظيع ! حتى اولئك الذين قطعت رقابهم في البرميل الدموي . كل شيء حلو مع ذلك . واقتربت مـن صاحبتي واللهفة المضطرمة تشتعل في صدري ، وانا اسمر عيني فـي عينيها الحلوتين ..

انيس زكي حسن

فهرست

العدد السابع والثامن ـ تموز (يوليه) و آب (اغسطس) ١٩٦٧ ـ السنة ١٥